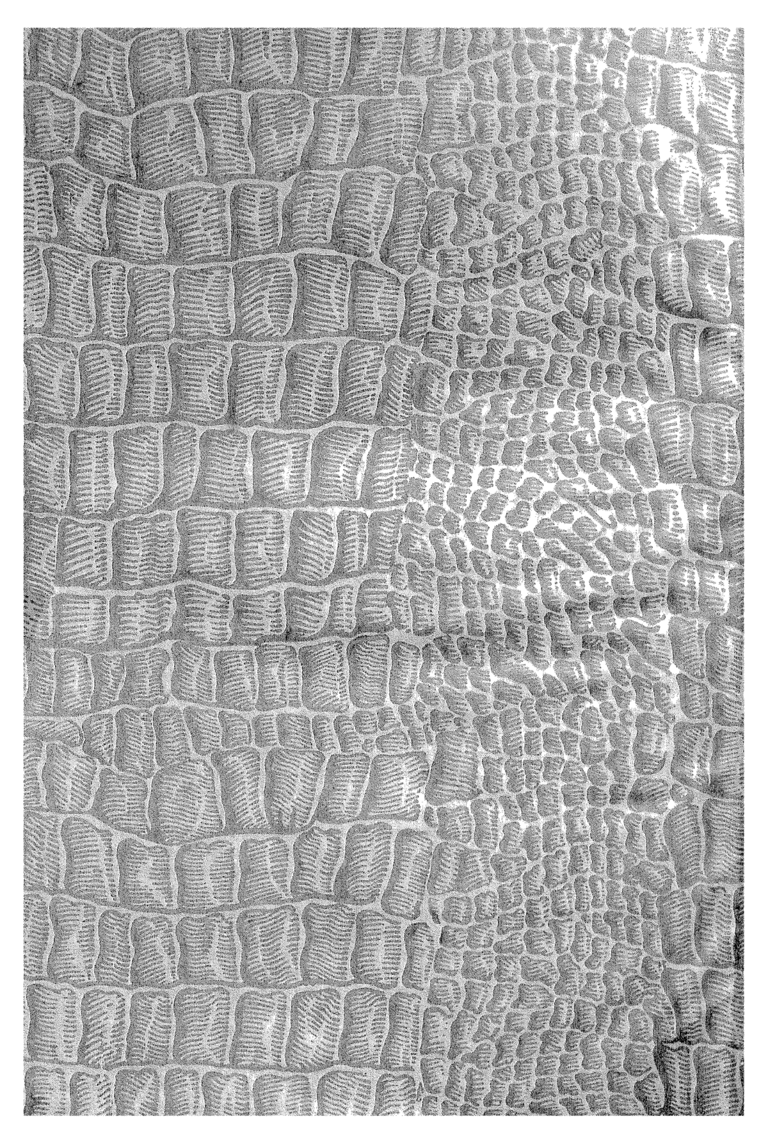
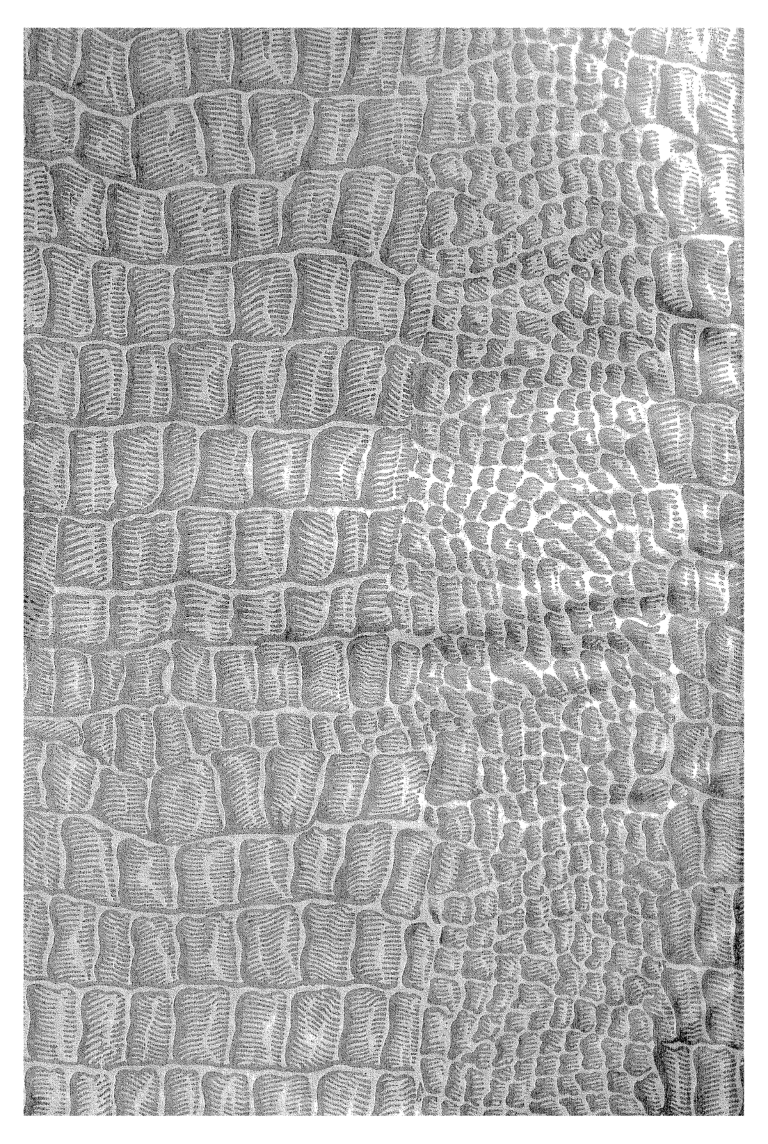








تأليف

الدكتور زكي مبارك

أن النساء منبع من منابع الشعر ، والشعراء مدينون لهن بأفضل الصفات لديهم ، وهي وصف شعور الناس . لأن الشاعر الذي يشعر بالحب ، لا يتكلم عن نفسه فحسبُ ، وإنما يجمع آلام العشاق ، وأنينهم ، فيتألّم ويئنّ معهم ، وليس هناك أعذب من هذه الآلام ، ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين .

وليس الغزَل في كلام العرب من المسائل الهزلية : لأن الشعر الذي هو وحي النفوس أكثر ما يكون ظهوراً في التعبير عن الحب ، ولأن العشق إدراك أكبر مظاهر الجمال في الكوْنِ ، ومن لم يفتح الحب قلبه يوماً لم يدرك أسرار الحياة ، ولم ير غير ظواهرها ، ولم يتسرَّب إلى نفسه بصيصُ ضوء من جمال الوجود .

الدكتور احمد ضيف

تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر — لصاحبها مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها [illegible] شريف

إهداء

مدامع العشاق

إلى تلك النفس التى لا يَعْنيها من أَمرى شىء ، والتى أخْلَفَتْ ما أخْلَفَتْ من الوُعُود ، ونَسِيَتْ ما نَسِيَتْ من العُهُود ، والتى شُغِلتْ بنعمة المال ، والجمال ، عمّا أُقاسِي من مِحْنَةٍ وعذاب ، والتى ما أحسبُنى أطمع فى أن تسكنَ إلىّ ، أو تعطفَ علىّ ،

إلى تلك النفس الظَّلوم : أُهدى هذا السِّفْرَ الحزين !

ولست آمُلُ والحمد للهِ والحب ، أن تُتوِّجَهُ بالقبول ، فإن هذا أَملٌ عزيزُ المنال ، وكل ما أصبو إليه : أن تنفَحَنى من أجلهِ بظلمٍ جديد

فبعضُ الظالمينَ وإن تناهَى * شَهِيُّ الظُّلمِ مغفورُ الذُّنوبِ

زكى مبارك

مقدمة



١

وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟!

آيةٌ كريمة ، تذهب فيها النفس مذاهب شتى ، ولكني أريدها لمعنًى خاص : هو الحكم على الأقوال والأفعال

وبيان ذلك أننا نرى غيرنا يقول ، أو يعمل ، فنحكم عليه بالبرّ أو الفجور ، فتارةً نخطئ ، وتارةً نُصيب . وأكثر مانكون شططاً إذا حكمنا على القول ، أو الفعل ، من غير أن نحيط خُبْرًا بظروف القائل ، أو الفاعل . وهى وحدها مِحوَر الخير ، والشر ، والخطأ ، والصواب . فليست كل كلمة يكفر قائلها كما يقول الفقهاء بمكفرة ، مالم تشهد القرائن على أن قائلها مُعانِدٌ جَحُود ، وليست القصائد الخمرية شهادةً على قائلها بالإثم ولا قصائد التشبيب رمْياً لصاحبها بالفسوق ، ولكن فى الظروف

وحدها الحكمُ بأن الشاعر فاسقٌ أو سِكّير !

ومتى عوّدنا أنفسنا البحث فى الحالة النفسية للقائل قبل البحث عن مدلول ما قال ، واجتهدنا فى معرفة ظروف الفاعل قبل تأمُّل ما فعل من مُنكر أو خبيث ، فقد تُوفع التهمة عن كثير ممن حُكِم عليهم بالكفر والمجانة ، لكلمةٍ ظاهرها الكفر أو فعلٍ ظاهره المجون

وليس فى ذلك خروج على أصول الدين ، فقد قال عليه السلام : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» وليس لمتعنّت أن يردَّ علينا بأن هذا خاصٌّ بأعمال الخير ، لا الشر . فانه كما يجوز أن يفسُد الخير حين يُراد به شر ، كذلك يصلح الشر حين يُراد به خير ، وتبقى التبعة على من يقصّرون فى إرشاد الناس إلى نتائج أعمالهم ، وما لها من الضر ، أو النفع ، لتتماثل النيات والأعمال

وإذا أباح لك حسن النية أن تحكم على رجل بالصلاح لغلبة الخير على أقواله وأفعاله ، من غير أن تُلمَّ إلمامةً بالأسباب القريبة والبعيدة ، لما يعمل وما يقول ، وقد تكون نيته سيئة فيحبط عمله ، فان من الواجب أن تنظر بدقة إلى ظروف من ساءقوله وعمله ، فقد تكون نيته حسنة فيرضى عنه علام الغيوب

إن علماء الغرب لايحكمون على خُلق المؤلف إلا بعد أن يتبينُّوا العصر الذى عاش فيهِ ، والبيئةَ التى أحدقت به ، فنال منها ونالت منه ، لاحتمال أن تسود كتابتَهُ فكرةٌ كانت في عصره حسنة ، وهى فى عصرنا سيئة ، فنحكم عليه بما هو منه براء

٢

ولنرجع الى الآية التى صدّرنا بها هذا المقال (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فإنى لا أكتم القراء أني وجدت فى مذكراتى كلمة لو قرأتها لغيرى الآن لأنكرتها عليه . مع أني أعرف أنى كتبتها من قبل ، وأنا نقىُّ القلب ، خالص الضمير . ولقد تبدو تلك الكلمة ، وكأنها خطاب مفتوح لأهل الجمال ، وهى سذاجة طريفة ، تمثل عهداً من عُهُود الصِّبا ، خُيِّل إلىّ فيه أن الحُسْن يجب أن يكون مِلكا لجميع العيون ، تستمتع به آمنةً مطمئنّة لايمانعها فيه غيور ، ولايحجبها عنه ضنين . وليس فى مقدورى الآن أن أكتب مثل تلك الكلمة ، لأنى حُرِمت من تلك السذاجة ، واطّلعت من الناس على بلايا ومناكر ، يلؤم من بعدها الكريم ، وحاشاىْ ! وسأفرض الآن أنى فى العهد الأول من عهود الشباب ، وان الناس كما كنت أحسبهم منذ سنين

أطهاراً بررَة ، لايحرّفون الكلِمَ عن مواضعه ، ولا يتقوّلون الأقاويل ، ولأذكر طرَفاً من ذلك الخطاب :

«يا أرباب الجمال !

مالكم تضِنّون علينا بماسوف يشبع الدود منه نَهْماً ، ويأكله التراب أكلاً لماً ؟

كم صائنٍ عن قُبلةٍ خدّهُ * سُلطت الأرض على خدِّهِ
وحاملٍ ثِقْلُ الثرى جيدُهُ * وكان يشكو الضعف من عقدِهِ

أما والله إن أرواحنا لفى حاجة إلى بعض ماتنعَم به الوسائدُ من الخدود ، والمراود من الجُفون ، والمساويك من الثغُور ، والأمشاط من الشعُور ، والغلائل من الأعطاف ، والزينة من الأطراف . . . فلِمَ تحرمو ننا فى حبنا لكم ، وإشفاقنا عليكم ، مما تكرمون به الجماد ليلاً ونهاراً ، على أنه لايعرف ما حفّ به من حُسْن ، وأحدق به من جمال ؟ !

يا أهل الملاحة !

إن الله ما خلقكم كالأزهار ، فى القِفار ، تزهر ، ثم تذبل ، ولا يتمتع أحد بشمها ، ولثمها ، وإنما خلقكم رَوْحاً لكل حيّ ، ونعيماً لكل موجود ، فاجعلوا لنا منكم حظّاً ، ولاأقلّ من النظر ،

فقد خفنا على أرواحنا أن تزهق ببخلكم ، وتموت بصدكم ، وما الله بغافل عما تعملون ! !

يا أعلامَ الحسن !

إن كنتم فُطِرتم على العِزة ، وجُبلتم على النخوة ، فهبُونا بعض القرب منكم ، والأنس بكم ، ولكم منّا ما تشاءون من ذلة واستكانة ، وخضوع وعبودية ، وقد عذرناكم لعزكم ، فارحمونا لذلنا ، وعشقناكم لحسنكم ، فاعشقونا لحبنا ، فكفى بالحب جمالاً وبالعشق زينة ، وإن المحبّ المملول ، لخيرٌ من الحبيب الملول ، فان أبيتم إلا الصد والقطيعة ، والجفاء والإعراض ، فانا نبشركم بأن الحسن حالٌ تحُول ، ودولةٌ تدُول ، ثم يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين !

أوردية الخدين من ترف الصبا * ويا ابنة ذى الإقدام بالفرس الورد
صلى واغنمى شكراً فما وردة الربى * تدوم على حالٍ ولا وردةُ الخد



ولقد يعجب قارىء هذا الخطاب حين يرى كاتباً يعتقد أن الجمال مِلك العيون النواظر ، وأن البخل به إثم وعقوق ، ولكنه لو تروّى لعرف أن النفس الطاهرة كثيرة الشطط ، وأن صاحبها

لا يسلم من الإسراف ، ورحم الله ذلك العهد الذى كنت أعيش فيه بأملٍ غير محدود !!

لياليَ لا تنجو بنبلى خريدةٌ ✻ وإن عزَّ حاميها وجَمَّ عديدُها
اذا مارمتنى ذات دلٍّ رميتها ✻ بعينٍ لها منها مُقيدٌ يُقيدُها

على أنى لا أمنع أحداً من أن يسيء الظن بما كتبت منذ سنين ، فانّ الذى يطمع فى معرفة النفس البشرية ، لا يبخل بوضع نفسه على المشرحة ، ليسهُل عليه وعلى غيره التحليل ، ومثله فى ذلك مثَل الطبيب المخلص لعامه ، لا يبخل بتضحية نفسه وهو يفحص صرعى السّل والتيفوس ، فهل يعقل هؤلاء الذين يطيعون أهواءهم ، وشهواتهم ، فينسون أنفسهم ، ويسلقون إخوانهم بألسنةٍ حِداد ؟

إن قليلاً من الرويَّة والاناة لكافٍ لسلامتنا من الزلَل والعِثار ، حين الحكم على ما يعمل الناس وما يقولون

٤

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل أسرف الكاتب حين همّ بنشر مدامع العشاق فى جريدة الصباح سنة ١٩٢٢ وافتتحها بهذه الكلمة الجريئة ، موجهةً الى إحدى العذارى

« قُضِيَ الأمر ، وأصبحت حيّاً كميْت ، وموجوداً كمعدوم !

فما ضرّنى لو أذعت هـذا الحب ، وما أبقى هواكِ منى ما أسمع به ملاماً أو أرى وجه عذول ؟

على أن قلبى يحدثنى بأن الإشادة بما بيننا من هوًى قد تزيد حِقْد الحاقدين ، وما الى رَدْعهم سبيل ! وأنتِ المعْنيةُ بهـذا الإشفاق ، أما أنا فما كنت لا رهَب قوماً لاسلاح لهم غير القيل والقال

فليت رجالاً فيكِ قد نذروا دمى * وهمُّوا بقتلى يابثَين لَقُونى

اذا ما رأونى طالعاً من ثَنِيّةٍ * يقولونَ: من هذا؟ وقد عرفونى

وبعد فانه لم يبق ما أسكن اليه فى هذا الوجود غير حديث الحب ، وبلايا المحبين ، وقد رأيت أن أساير شـعراء العرب فى أعْذَب ما جرى على ألسنتهم : وهو النسيب ، وأنْ أبدأ ذلك بما انتهوا اليه ، وهو الحديث عن الدموع ، وما لها من سبب قريب أو بعيد ، حتى اذا هدأت ثورة القلب بعد هذا الدمع المسفوح ، عدت فصاحبت الشـعراء ، وذكرت كيف فتكت بهم النظرة الأولى ، وبينت مَهْوَى عيونهم ، ومصرع قلوبهم ، بين الخدود الفواتن ، والعيون الفواتك ، ولن أتحرَّج من ذكر ما كان من الوقائع بين الخصر النحيل ، والرِّدْف الثقيل ، وعلىّ وحدى إثم الفتنة التى ستقيمها هذه الأبحاث الشائقة فى صدور الشباب

والكهول ، ولمن شاء السلامة من القراء أن يكف منذ الآن عن قراءة هذا الحديث

نصحتك علماً بالهوى ، والذى أرى * مخالفتى ، فاختر لنفسك ما يحلو

٥

وهذا خطاب أقل ما يؤخذ عليه أنه لا يُوَجَّه إلى فتاة ، فضلاً عمَّا فيه من المجازفة ، فى حَمْل إثم الآثمين ، وفتك الفاتكين ، ولقد آدتنى آثامى ، فكيف أحمل آصار الناس !

ولم يمرّ ذلك الخطاب بدون أن تضجَّ له إحدى الجرائد الأسبوعية ، وبدون أن ينالنى أحد الكُتّاب بلسان حديد ، فكتبت فى الرد عليهم هذه الكلمة القاسية :

«فى مصر قومٌ لا يعرفون من الجِدّ غير الغطرسة والكبرياء والكاتب الجادُّ فى نظرهم هو الرجل السليط ، الذى يُخَيَّلُ إليه كلما كتب : أنه قسّيس فى كنيسة حافلة ، أو خطيب فى مسجد جامع ، فهو مسئول عن سَرْد الرذائل وعدّ المنكرات ! ؟ فأمّا الكاتب المفتون بما أودع الله هذا العالم من روائع الحُسْن ، وبدائع الجمال ، فهو فى رأيهم كاتبٌ ماجنٌ خليع !!

ولا أدرى بماذا يجيب هؤلاء لو سألتهم من خلق هذه

الصوَر الجميلة ، التى طارت بألباب الشعراء ؟ وصيّرتهم فى كل وادٍ يهيمون ؟ أتراهم يقولون إنها من خلق الله ، أم من خلق الشيطان ؟ فاذا كانت من خلق الله ، فلِمَ ينكرون علينا أن نتغنّى بصنْعِهِ البديع ؟ وإن كانت من خلق الشيطان ، فلمَ لا يمحون الحُسْن من وجوه الحِسَان ، لأنه من عمل الشيطان الرجيم ؟

آمنت بالله وكفرت بمالهم من منطقٍ مقلوب !

يريد جماعةٌ ممن أظلمت الدنيا فى وجوههم ، وعَمُوا عن صُنع الله الذى أتقن كلّ شئ ، ماذا يريدون ؟ إنهم يريدون أن أُجاريهم فى عمَايتهم ؛ وأن أُسايرهم فى جهَالتهم ، فلا أكتب فى غير مايروقهم من ذمّ الدنيا ، والتبرُّم بالوجود !! ولكنى عرفت مالم يعرفوا من « أفنان الجمال » فى هذه الدنيا البديعة التى حملت الغزالى على أن يصرِّح بأنْ ليس فى الإمكان ، أبدع مما كان فمُدّتُ خليقاً بحمد الحُسْن ، والتقديس له ، كلما أمعنوا هم فى الجحود !

يقولون إن مدامع العشاق التى أنشرها فى جريدة الصباح مما يفسد الشباب ، وذلك منهم جهلٌ بأسرار الجمال ، وماله من الأثر فى تهذيب النفوس ، وتثقيف العقول . ويهدّدون ويُوعدون بالويل والثبور ، إذا أنا مضيت فى هذا البحث الشائق

الطريف ! فهل حسب هؤلاء السفهاء أنى أكتب لهم حتى أنزل عند رأيهم السخيف المأفون !

أبينا أن نطيعكمُ أبينا * فلا تُلقوا نصيحتكم إلينا
ركبنا فى الهوى خطراً فإمَّا * لنا ما قد كسبنا أو علينا
ولولم يرض ربك ما أردنا * لما أعطى لنا أُذناً وعَيْنا
فما تسآلكم عن كل صبٍّ * كأن لكم على العشّاق دَيْنا

٦

إلى هنا وقف القارئ على ألوانٍ من الخواطر ، مرّت بخاطر شابٍّ يهمُّ بالتمرّد على ما ألِفَ الناس ، وما كنت لأذكر هذه التفاصيل لولا بغضى للرياء ، فأنا بصريح القول : مُوَكَّلٌ بالحُسْن أتبعُه ، ومُغرمٌ بالتغريد على أفنان الجمال . وإنى لأقول:

أشجاكَ ما خلفَ الستّار وإنما * خلفَ الستّائر لؤلؤٌ مكنونُ
والناس فى غفلاتهم لم يعلموا * أنى بكل حِسانهم مفتون

وأقول

فيارب إمّا رُمتَ لى الخير مُنعماً * ففى قرب من أهوى وبعد أخى اللوم
وان كان لى فيما قضَيْتَ مَساءةٌ * تُخزنٌ على النائين حيرَتِى القدْم
وإن شئت لى يوماً جوارك فلا كن * شهيداً الجوى لا نِضوَهمٍّ ولا سقْمِ

وطوّلْ حسابى فى المعاد على الهوى * فطول أحاديث الصبابة من همّى

وما كان أغنانى عن الفزَع الى حُكم الأخلاق ، لأرجع الخير والشر الى النيات ، لا إلى الأعمال ، فقد آن لنا أن نعرف أن من الحق ، بل من الواجب ، أن ندرس الجمال ، وأن نتغنى به ، وأن نصفه بالنثر البليغ ، والشعر الجميل ، وأن نكتبَ عمن كلِفُوا بالُحسْن : من العشاق ، والشعراء .

ولقد يروون عن رسول الله أنه قال (ان الله ليعجب من شابّ لا صبوةَ لهُ) وأنا لا أريد أن يعجب الله منى ! وسينكر المتعنتون هذا الحديث ، وأنا قبلهم لا أجزم بصحته ، ولكنى أثق بأنه يقرّر حقيقة واقعة ، فما كان الله ليخلق الجمال لنَعْمَى عنه ، أو لنرمىَ عُشّاقه بالإثم والفجور ، وهؤلاء المتزمّتون الأغبياء لا يملّون من الدعوة الى الاستمتاع بجمال الطبيعة ، لهم الويل ! وهل الإنسان إلا لُباب الطبيعة ، وسرُّها المكنون ؟!

وماذا أصنع بالأشجار ، والأزهار ، والثمار ، والأنهار ، والكواكب ، والنجوم ، والسهول ، والحُزُون ، والجبال ، والوِديان ، والطيور الصوادح ، والظباء السوانح ؟؟

ماذا أصنع بكل أولئك ، اذا لم يكن معى إنسان أُطارحه القول ، وأساجله الحديث ، وأُساقيه صهباء هذا الوجود ؟!

وهذا الانسان ؟ أليس لى الحق فى اختياره ، قبل اصطفائه، وكيف أختاره إن لم أُحكِّم الذوق ، فى تمييز جسمهِ وروحه ، وعقلهِ وشعوره ، وحِسِّهِ ووجدانه ؟

وما قيمة الليل ان لم تظلّنى فى الحب ظلماؤُه ؟ وماقيمة البدر إن لم يذكّرنى بالثغر لا لأوُه ؟ وما جمال الأغصان إن لم تهزّنى الى ضمّ القدود ؟ وماحُسْن الأزهار إن لم تَشَوّقنى الى لَثم الخدود ؟ وكيف أميل الى الظباء ، لو لم تُشبه بعيونها وأجيادها ، ماللحِسان من أعناق وعُيون ؟ وكيف أصبو الى غُنَّة الغزال ، لولا ذكرى تلك النبرات العِذاب ، التى يسمونها السِّحر الحلال ؟

وإنك لتعلم أيها القمر ، كيف كنتُ أصدِف عنك ، وأنا أطالع ذلك الوجه ، الذى نَعِمْتَ معى بثغره المفلج، وأنفه الأقنى ، وطرفه الأحوَر ، وجبينه الوضاح ؟ وانك لتعلم أيها القمر، كيف هجرتك حين غاب ، وتعلم أنى لا أنظر إليك إلا حين السِّرار ، لأرى كيف يفعل الشحوب بك ، وكيف تنال منك الليالى ! وإنها لشماتةٌ طفيفة ، أحزن من بعدها على خلود مُتْعتك بصِباحِ الوجوه ، وعلى عودتك لشبابك ، فى حين أنى أودّع كل يومٍ جزءاً من شبابى ، ووآحسرتاه على ما أُودّع من أجزاء الشباب !!

لأصبحتُ نهبَ الأسى والحزَن * لجسمٍ أقامَ وقلبٍ ظعَنْ

فياويحهم يَزْعمون الرحيلْ * ومازوّدونىَ غير الشَّجَن
دموعٌ تحدَّرُ فوق الخدودْ * كصَوْب الغمام اذا ما هَتَنْ
وقلبٌ يُقلَّب بين الضلوع * بعيدَ القرارِ فقيدَ السكَنْ
وأصبحت والرأس مرعى المشيب * قليل السرورِ كثير الحزَنْ
لعمرى لئن شبت قبل الأوان * لقد شاب حظى وشاب الزَّمنْ
كأنَّ الشعور عراها البياضْ * سهامُ الردى أو خيوط الكفنْ
وإن الشباب إذا ما انقضى * لكالحُلْم أقلع عنه الوَسَن

٧

أما بعد فقد أخرجنا للناس كتاب « الأخلاق عند الغزالى » فرَموْنا من أجله بالكفر ، واليوم نخرج لهم مدامع العشاق ، وسيرمو ننا من أجله بالفجور ، وسنصبر على عدوانهم حتى نخرج كتاب « آراء الجاحظ الفلسفية والأدبية » وكتاب « أفنان الجمال » ثم نجنح بعد ذلك الى المتاب !

وقد زعمت ليلى بأنِّىَ فاجرٌ * لنفسى تقاها أو عليها فجورها

الملحد الفاجر فيما يزعمون

زكى مبارك

سنتريس فى ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٤٣ هجرية

مذاهب النسيب

أكثرَ شعراءُ العرب من الحديث عن الحب ، وعن الُحسْن وتنوّعت مذاهبهم فى وصف مايشقى به المحب ، وماينعمُ به الحبيب !

ويمكن رجْعُ كلامهم فى النسيب إلى أصلين اثنين :

الأول — وصف مايلاقى المحبون من عنَت الحب . ويدخل فى ذلك كل ما يَهِيجُ الوجد ، ويثير الدمع ، كحديث الفراق ، والعتاب ، والذكرى ، والحنين

الثانى — وصف مايرى الشعراء فى أحبابهم من روعة الُحسْن ويدخل فى ذلك كل ماتتمتع به النفس ، والعين ، من جمال الأبدان والأرواح ، كوصف العيون ، والخدود ، والثغور ، والنحور ، والصدور ، وكالحديث عن العطف ، والرفق ، والوفاء ، والعفاف

وقد رأيت أن أفصّل مذاهب النسيب فى وصف مايشقى به المحبون فى كتاب أسميه « مدامع العشاق » وأن أشرح مذاهبهم فى الكلام عن الُحسْن فى كتاب أسميه « أفنان الجمال »

وكان الواجب أن نبدأ بطبع « أفنان الجمال » لأنه أوفى وأمتع ، ولأن أفنان الجمال ، وجدت قبل مدامع العشاق

ولكنّ دولة الحسن لاعدل فيها ولا رحمة ، فلنتابعها فى الظلم ، ولنقدم الفروع على الأصول !!

موجبات الدموع

نذكر فى هذا الباب حديث الشعراء عن أسباب البكاء ، وموجبات المدامع ، ثم مايعرفون عن احمرار الدموع بعد أن كانت بيضاء ، وابيضاضها بعد أن كانت حمراء !!

وللدموع أسباب عامة ، وأسباب خاصة . فأما الأسباب العامة فهى الحُرَق الدخيلة ، والجوى الدفين ، وما الى ذلك من البث والحزن ، واللوعة والحسرة ، فمن هذا قول العباس بن الأحنف

ظلمت عيناكِ عينى انها بادَلَتْها بالرقاد الأرقا
سُلِّطَ الشوق على الدمع فما هبَّ داعى الشوق الا اندفقا

وما كان له أن ينسب الى عينيها الظلم ، لابتلائه بالسهاد . وخير منه قول صريع الغوانى

أسهرتمونى أنام الله أعينكم لسنا نبالى اذا ما نمت من سهرا

ولو قال

رحمت عيناك عينى انها بادلتها بالرقاد الأرقا

لكان أقرب الى الصدق وعرفان الجميل ، فحسب المحب ما أهدته عينا حبيبه من ضنى الجسم ، وسهد الجفون . وقال البحترى

قد أرتك الدموع يوم تولّتْ ظُعُن الحى ماوراءَ الدموعِ (١)

(١) الظعن والظعائن : جمع ظعينة . وهى المرأة فى الهودج

عبرات ملء الجفون مرتّها　　حُرَق للفؤاد ملء الضلوع (١)

فرقة لم تدع لعينَيْ محب　　منظراً بالعقيق غير الربوع

ولا أدرى ما الذى أراده البحترى بما وراء الدموع ! أهو الدم الأحمر الذى تجود به الشئون عند ماتغيض المدامع ، أم هى الحرق الدخيلة التى ينبئ عنها الدمع ، ويفصح عن مكنونها البكاء ! وقال الشريف الرضى

يقولون ما أبقيتَ للعين عبرةً　　فقلت جوًى لو تعلمون أليمُ

أيسمح جفنى بالدموع وأغتدى　　ضنيناً بها ؟ انى اذنْ للئيمُ

ولو بخلت عينى اِذن لعتبتها　　فكيف ودمع الناظرين كريمُ

ولعل هذا خير ماقيل فى الاعتذار عن البكاء ، بذكر موجبه ، والداعى اليه ، وانه لشعر بديع . أما الاسباب الخاصة فهى كثيرة : فمن العشاق من يبكى لتلمُّس الأخبار ، كما قال ابن هرم

وأستخبر الأخبار من نحو أرضها　　وأسأل عنها الركب عهدهمُ عهدى

فان ذكرت فاضت من العين عبرةٌ　　على لحيتى نثر الجمان من العقد

وانى ليروقنى قوله (وأسأل عنها الركب عهدهم عهدى) فانه يدل على حيرة ووَلَه ، اذ كان يسأل من لايعلم من أخبارها شيئاً ، استرواحاً بالسؤال عنها ، وكذلك يفعل المشوق ! ولا يبعد أن يستنكر الغوانى فيض الدموع على اللحية فى هذا الشعر ، لأن الأمر كما قال أبو تمام :

أحلى الرجال من النساء مواقعاً　　من كان أشبههم بهن خدودا

وقاتل الله الشيب ، ولا عفا عن جنايته على الشباب !

---

(١) يقال مرى الراعى الناقة : اذا مسح ضرعها لتدر اللبن . ويريد الشاعر أن يقول ان اللوعة مرت الدمع ، أى حملته على أن يفيض

ومنهم من يبكي عند ظهور المعالم ، أو مطالعة الرسوم . كما قال ابن الدمينة

هل الحب الا زفرةٌ بعد زفرةٍ   وحرٌّ على الأحشاء ليس له بردُ
وفيض دموع العين ياميّ كلما   بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

وما كان الحب زفرة ولا عبرة ، كما قال ابن الدمينة — ولكنه شيء به الروح تكلفُ — وما أحسن قول ابن أسباط القيرواني

قال الخليُّ الهوى محالٌ   فقلت لو ذقتَهُ عرفتَهْ
فقال هل غير شغل قلبٍ   ان أنت لم ترضهُ صرفتَهْ
وهل سوى زفرة ودمعٍ   ان لم ترد جريهُ كففتَهْ
فقلت من بعد كل وصفٍ   لم تعرف الحب اذ وصفتَهْ

ومنهم من يبكي عند الوقوف بالرياض ، اذ تذكّره رشاقة أغصانها ، وحمرة أزهارها ، بالقدود الرشيقة ، والخدود الوردية ، كما قال ابن المعتز

وقفت بالروض أبكي فقد مشبههِ   وقد بكت بدموعي أعين الزَّهَرِ
لولم تعرها الجفون الدمع تسفحهُ   لرحمتي لاستعارتهُ من المطرِ

وهذا نوع من الاسعاد ما عرفه الناس قبل ابن المعتز فيما أعلم ! وانما كانت تسعد الحمائم ويبكي الرفيق[١]

ومن الشعراء من يبكي عند هبوب النسيم . كما قال بعض الأعراب

لعمرك ماميعاد عينيك والبكا   بداراء الا أن تهب جنوبُ
أعاشر في (داراء) من لاأحبه   وبالرمل مهجور اليّ حبيبُ[٢]
إذا هبَّ علويُّ الرياح وجدتني   كأني لعلوي الرياح نسيب[٣]

---

(١) الاسعاد هو المشاركة في البكاء   (٢) داراء اسم موضع ، وكذلك الرمل
(٣) علوى نسبة شاذة الى عالية نجد

ومنهم من يبكى لبكاء الحمائم ، وهو كثير فى كلامهم . ولعل من أبدعه وأروعه قول الشبلى يصف شَجْوَ حمامة هاجت شَجْوَه :

ربَّ ورقاءَ هتوفٍ فى الضحى ذات شَجْوٍ صدحت فى فَنَنِ [1]

ذكرت إلفاً وعيشاً سالفاً فبكت حُزْناً فهاجت حَزَنى

فبكائى ربما أرَّقها وبكاها ربما أرّقنى

ولقد تشكو فما أفهمُها ولقد أشكو فما تفهمنى

غير أنى بالجوى أعرفُها وهى أيضاً بالجوى تعرِفُنى

أتراها بالبكا مولعةً أم سقاها البين ماجرّعنى

وهذه الأبيات من أحسن الشعر تقسيماً ، وأبرعه تصويراً ، ولقد افتتح بها الشيخ على الجارم خطبته فى تأبين المرحوم الشيخ حمزه فتح الله فخرج الناس وهم يقدمونه على سائر الشعراء ، ظنا منهم أنها له . ولولا الجهل بتاريخ الآداب العربية لما عاش الأحياء على حساب الأموات ، من حيث لايشعر الناس !!

ومما ابتدعه المتأخرون فى موجب البكاء ، ماجعله بعضهم عقاباً للعين ، جزاءً بما أهدت نظراتُها للقلب من شجى ، وللجسم من نحول ، فقال :

لأعذبنَّ العين غير مفكرٍ فيما جرت بالدمع أوسالت دما

ولأهجرنَّ من الرقاد لذيذهُ حتى يعود على الجفون محرَّما

هى أوقعتنى فى حبائل فتنةٍ لولم تكن نظرت لكنتُ مُسلَّما

سفكت دمى فلأسفحنَّ دموعها وهى التى بدأت فكانت أظلما

وهو مذهب غريب ، يدل على مبلغ صاحبه من إدراك الحسن ،

(١) الورقاء هى الحمامة ، والشجو الحزن ، والفنن الغصن ويجمع على أفنان

وفهم الجمال ! وإلاَّ فأى عاشق يذكر جناية النظر عليه ، ولا يدعو لعينيه بطول البقاء . ولله در القائل

قالت أترقدُ إذ غبنا ؟ فقلت لها نعم ، وأشفق من دمعى على بصرى
ماحقُّ طرفٍ هدانى نحو حسنكمُ انى أعذبهُ بالنوح والسهرِ

ومنهم من جعل الدمع غسلا للعين مما زنت بالنظر ، فقال

وقائلةٍ ما بال عينك مذ رأت محاسن هذا الظبى أدمعها هُطْلُ
فقلت زنت عينى بطلعة وجهه فحق لها من فيض مدمعها غسل

وقال الآخر

انسانةٌ فتانةٌ بدر الدجى منها خجل
اذا زنت عينى بها فبالدموع تغتسل

وهو خيال فقهاء ، لاخيال شعراء ! !

وقد نظر الارّجانى الى قول أبى تمام :

بسطت اليك بنانة أسْرُوعا تصف الفراق ومقلة ينبوعا [1]
كادت لعرفان النوى ألفاظها من رقة الشكوى تكون دموعا

فولّد منه معنى لطيفا ، إذ جعل دموعه عند الفراق ، وقد تحدّرت كاللآلئ ، بقية ما نفثه المودعون فى آذانه من حديث هو الدر النفيس . وذلك قوله

لم يبكنى إلا حديث فراقهم لما أسرَّ به الىّ مودّعى
هو ذلك الدرّ الذى أودِعتهُ فى مسمعى ألقيتهُ من مدمعى

***

(١) الاسروع ويجمع على أساريع دود أبيض أحمر الرأس يشبه به العرب الانامل الرقيقة

أما السبب فى احمرار الدموع فلم أجد فيه أبلغ من قول صَرَّدُرَّ

حتام أرعى وردةً لاتُجتَنَى ... فى الخدّ أو تفاحةً لاتُلثَمُ

أيذاد عن تلك المحاسن ناظرى ... ويريد منى أن يسوّغها الفَمُ

فى كل يوم للعيون وقائعٌ ... إنسانها الطمّاح فيها يُكلَمُ

لو لم تكن جرحى غداة لقاءهم ... ما كان يجرى من مآقيها الدّمُ

لم أدرِ أن الحب حَوْمةُ مأزقٍ ... تُصلَى ولا أن اللواحظ أسْهُمُ

وهو مأخوذ بلطف من قول مسلم بن الوليد :

ياواشياً حسنت فينا إساءتهُ ... نجّى حذارك انسانى من الغرَقِ

انى أصدّ دموعاً لجّ سائقها ... مطروفة العين بالمرضى من الحدقِ

ويرى القارىء أن أصحاب هذه الأخيلة الشعرية ، يرون أن احمرار الدموع انما هو أثر للحرب القائمة بين عين العاشق وعين المعشوق . فيالها من حرب ضروس تطأ فيها أقدام الجنس اللطيف أعناق الجنس النشيط . وإنا بهذه الهزيمة لفرحون ! !

وكان عجيباً أن تبيضّ الدموع بعد احمرارها ! ! وقد رأينا كيف أوّلوا احمرار الدموع . ولنذكر أن أصدقهم سِبط بن التعاويذى حين يقول :

أتبعتهم يوم استقلّ فريقهم ... نظر المشوقِ وأنّة المفجوعِ

لم تبك يوم فراقهم عينى دماً ... إلاّ وقد نزف البكاء دموعى

والآن نريد أن نعرف كيف يتأوّلون ابيضاض الدموع بعد أن صيّرها الحزن حمراء . فمن الشعراء من يرى الدمع الأبيض ماء ورد الخدود التى قطفها بعينيه عند الرحيل ، كما قال بعض الظرفاء

كانت دموعىَ حمراً يوم بينهمُ ... فمذ نأوا قصرتها بعدهم حُرَقى

قطفت باللحظ ورداً من خدودهمُ ... فاستقطر البينُ ماء الورد من حدقى

ومنهم من جعله شيباً للدموع بعد طول عمر البكاء كقوله

قالت عهدتك تبكى ... دماً لطول التنائى

فلِمْ تعوضت عنا ... بعد الدماء بماء

فقلت ماذاكِ منى ... لسلوةٍ وعزاء

لكن دموعىَ شابت ... لطول عمر بكائى

وأشجى منه قول الآخر :

وقائلةٍ ما بال دمعك أبيضاً ... فقلت لها ياعزُ هذا الذى بقى

ألم تعلمى أن البكا طال عمرهُ ... فشابت دموعى مثل ماشاب مفرقى

وعما قليل لا دموعى ولا دمى ... ترينَ ولكن لوعتى ونحرّقى

وهذه الأبيات من أكثر الشعر حزناً ، وأغزره دمعاً ، وهل تجد أدعى للشجو والبثّ من قوله :

فقلت لها ياعزّ هذا الذى بقى ! !

ويذكرنى هذا بقول الشريف الرضى فى إتيان الدموع على العيون ، والغليل على الضلوع

محا بعدكم تلك العيون بكاؤها ... وغال بكم تلك الاضالع غُولهُا

فمن ناظرٍ لم يبق الا دموعهُ ... ومن مهجةٍ لم يبق الا غليلُها

دَعُوا لى قلبا بالغرام أذيبهُ ... عليكم وعيناً فى الطلول أجيلُها

ويذكر الشعراء أن الدموع حين تبيض بعد احمرارها تكون أرق من الهواء . ولهم فى ذلك فنونٌ من القول ، وشجونٌ من الحديث ، وأجمل

ما رأيت فى ذلك قول خالد الكاتب فى رفق عذّاله به ، وإسعادهم له :

بكى عاذلى من رحمةٍ فرحمتهُ ... وكم مسعدٍ لى فى الهوى ومعينِ
ورقّت دموع العينِ حتى كأنها ... دموعُ دموعى لا دموعُ جفونى

عذر أرباب الدموع

لا تعذل المشتاق فى أشواقهِ ... حتى يكونَ حشاك فى أحشائهِ
إن القتيل مبلّلاً بدموعهِ ... مثلُ القتيل مضرجاً بدمائهِ

نذكر هنا ما يعتذر به الباكون عن بكائهم ، وما يحتجون به لدى عذالهم . وهو نوع من الافصاح عن موجب الدمع ، وداعى البكاء . والشعراء فيه رجلان : رجل غلبه الحب ، وقهرته الصبابة : فباح بمكنون سره ، ومكتوم حبه ، ورجل تخوّف الرقباء ، وتهيّب العذال ، فأخذ يختلق العللَ ، وينتحل الأسباب ، دفعاً لكيد الواشين ، ودرءاً لعذل اللائمين . . .
فمن الأول قول البحترى

سارت مقدمة الدموع وخلّفت ... حُرقاً توقَّد فى الحشا ما ترحلُ
ان الفراق كما علمتَ فخلنى ... ومدامعاً تسَع الفراق وتَفْضُلُ
إلاّ يكن صبرٌ جميلٌ فالهوى ... نشوانُ يجمل فيه مالا يجمل

وحسن البيت الأول فى خلود اللوعة ، وبقاء الغليل ! وهو خير من قول ذى الرمة .

لعلّ انحدار الدمع يعقب راحةً ... من الوجدِ أو يشفى شجىٌّ البلابلِ

والبيت الأخير أروع من قول أبى تمام فى نفس المعنى .

والصبر أجمل غير أن تلدُّداً ... فى الحب أحرى أن يكون جميلا

وقال البحترى فى الاعتذار عن البكاء .

لا تلمنى على البكاء فانى ... نِضْو شجو ما لمت فيه البكاء

عذلاً يترك الحنين أنيناً ... فى هوًى يترك الدموع دماء

كيف أغدو من الصبابة خِلواً ... بعد ما راحت الديار خلاء

ومن بديع الاعتذار عن البكاء قول خالد الكاتب :

عشْ فحبّيكَ سريعاً قاتلى ... والضنى إن لم تصلنى واصلى

ظفر الحب بقلب دنفٍ ... فيكَ والسقم بجسم ناحلِ

فهما بين اكتئاب وضنىً ... صيّرانى كالقضيب الذابلِ

وبكى العاذل لى من رحمةٍ ... فبكائى لبكاء العاذلِ

وهذا معنى جميل ، لا ينقص غير القرب من الحقيقة : فقد يندر أن يبكى اللائمون رفقاً بالمحب الحزين !

ومما انتحل فيه الشعراء للبكاء أسباباً غير أسبابه قول كُثَيِّر

اذا ازرفت عيناى أعتلّ بالقذى ... وعَزّةُ لو يدرى الطبيب قذاهما

وهو نوع من الكتمان يفزع اليه الشعراء عند اليأس من أحبابهم

يأسٌ يحسّن لى التّستّر فاعلمى ... لو كنت أطمع فيك لم أتستّرِ

ومن طريف هذا النوع قول أبى العتاهيه يعتذر عن بكائه ، وقد استحيا من صديقه

كم من صديق لى أسا ... رقه البكاء من الحياء

فاذا تأمّل لامنى ... فأقول ما بى من بكاء

لكن ذهبت لأرتدى ... فطرفت عينى بالرداء

الاكتفاء بالدموع

هو نوع من القناعة فى الحب يكون عنـد القنوط . ومن جيد الشعر فيه قول بعض الأعراب

فان تمنعوا ليلى وحُسْن حديثها   فلن تمنعوا منى البكا والقوافيا
فهلا منعتم إذ منعتم حديثها   خيالاً يوافينى على النأى هاديا

وهى سذاجة طريفة تذكرنا بقول جَحْدر وهو فى السجن

أليس الليلُ يجمع أم عمرو   وإيّانا فذاك لنا تدانى
نعم وأرى الهلال كما تراهُ   ويعلوها النهار كما علانى

وما الذى يضير أعداء المحب من أن يرى القمر كما تراه ، ويعلوها النهار كما علاه ، ماداموا قد أبعدوه عنها ، وحرموه منها . وقد تنبه بعض الأعراب الى تفاهة هذه القناعة فقال :

بربك هل ضممتَ اليك ليلى   قُبَيْل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفَّت عليك فروع ليلى   رفيف الأقحوانة فى شذاها

على أنه ينبغى أن لا ينسينا جمال هذا الخيال مافى شعر جحدر وأمثاله من روعة الصدق ، وجلال الوفاء . وماذا عسى أن تكون الصبابة إن لم يصبح البكاء أشهى من الحديث المعسول ، حين يغدو المحب ولا أمل له فى غير الوجد المشبوب ، والدمع المسكوب ، والصبر المغلوب !

من أجل هذا نخالف أستاذنا الجليل الشيخ سيد المرصفى ونرجوه أن يصفح عن اعجابنا بقول قيس بن ذريح فى الاكتفاء بدمعه الدائم ، وحزنه المقيم

فان يحجبوها أو يحل دون وصلها — مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يمنعوا عينيَّ من دائم البكا — ولن يُذهبوا ما قد أجنّ ضميرى
الى الله أشكو ما ألاقى من الهوى — ومن كُرَبٍ تعتادنى وزفيرِ
ومن حُرَقٍ للحب فى باطن الحشا — وليلٍ طويلِ الحزن غير قصيرِ
سأبكى على نفسى بعين قريحةٍ — بكاءَ حزينٍ فى الوَثاق أسيرِ
وكنا جميعاً قبل أن تظهر النوى — بأنعم حالىْ غبطةٍ وسرورِ
فما برح الواشون حتّى بدت لنا — بطون الهوى مقلوبةً لظهورِ
لقد كنت حَسْبَ النفس لو دام وصلنا — ولكنما الدنيا متاع غرورِ

وتمتاز هذه القطعة بتصويرها للنفس الانسانية أجمل تصوير ، وتمثيلها أدق تمثيل . ألم تر إلى الشاعر وقد أوجز فى قناعته بالبكاء ، ثم انطلق يشكو الى الله لوعته ، وحرقته ، ولياليهَ الطوال ! ! ألم تر اليه وقد كان يحسب الدمع نعمةً سابغة يكبت بخلودها الأعداء ، فعاد يرى الدمع آية الذل والمسكنة ، وآخر ما يفزع اليه الأذلاء المساكين ! !

الفزع الى الدموع

قال أبو بكر بن عِياش : نزلت بى مصيبة أوجعتنى فذكرت قول ذى الرمة :

لعل انحدار الدمع يعقب راحةً — من الوجد أو يشفى شجىَّ البلابلِ

فخلوت فبكيت فسلوت ! ! ولست أدرى كيف تذهب بالوجد زفرة ، أو تودى به عبرة ، وهو كما قيل :

ظن الهوى لِبْسةً تبلى فيخلعها　　فكان فى الروح مثل الروح فى البدنِ

وكنت أسمى هذا النوع من الشعر استشفاء بالدموع ، وَفْقاً لما يجنح اليه الشعراء ، ولكنى رأيت أن أسميه « فزعا الى الدموع » حين تبينت أن الدمع لا يطفئ اللوعة ، وأنه نار حامية ، لا برد وسلام ! !

وهل تجد أدعى للبث ، وأجلب للحزن ، من قول كثيِّر ، وقد ترحلت حبيبته :

كفى حَزَناً للعين أن ردّ طرفها　　لعزة عيرٌ آذنت برحيلِ

وقالوا نأتْ فاختر من الصبر والبكا　　فقلت البكا أشفى اذنْ لغليلى

تولّيتُ محزونا وقلت لصاحبى　　أقاتلى ليلى بغير قتيلِ

وما اختار البكاء لأنه أشفى للغليل كما قال . ولكنه اختاره ليفر من الصبر الذى رآه مر المذاق ! ! وقد حسب بعض الشعراء أن التفضيل بين الصبر والبكاء مما ينال، وفى ذلك يقول :

اذا مادعوت الصبر بعدك والبكا　　أجاب البكا طوعا ولم يجب الصبرُ

وهو ضلال مبين : فان البكاء لا ينتظر دعوة المحزون ، ولكنه ينقض عليه انقضاض الصاعقة ، فاذا هو صريع ! وأمثال هذا الشاعر لا يتحدثون عن حزنهم المقيم . ولكنهم يمنون على أحبابهم بهذا الدمع المجلوب

ومن الشعراء من تنبه الى أن السلامة من الجوى أمضّ من الجوى ، وهؤلاء يبكون وجدهم الذاهب وضلالهم القديم « ومن أسماء الحب الضلال » ومن مختار الشعر فى هذا البكاء قول المتنبى :

يراد من القلب نسيانكم　　وتأبى الطباع على الناقلِ

ولو زلتمُ ثم لم أبككم　　بكيت على حبىَ الزائلِ

وأوجع منه قول البحترى

وأود أنى ما قضيت لُبانتى ... منكم ولا أنى شفيت غليلى

وأعد بُرْئى من هواك جنايةً ... والبرء أعظم غاية المخبولِ

ذلك بأن القلب الجريح لا يجد شفاءه فى السلوة ، ولا فى البكاء . . وهل السلوة إلا رزء جديد يقصم الظهر ، ويقصف العمر ؟ أرأيت آدم وقد خرج من الجنة ؟ أليست لوعته على ذلك الفردوس الضائع ، هى سر ما يعتادنا من أنين قد لا نعرف له سبباً قريباً ؟ وهل البكاء إلا أثر من آثار الوجد يخشع لرهبته غلاظ الأكباد ، ويرق له قساة القلوب ؟

تلك حسرة البحترى أفصح عنها بقوله :

وأود أنى ما قضيت لبانتى ... منكم ولا أنى شفيت غليلى

فما الذى جعله يرجو من الدمع الشفاء حين يقول :

قِفْ مشوقاً أو مُسْعِداً أو حزينا ... أو معيناً أو عاذراً أو عذولا

وخلاف الجميل قولك للذا ... كر عهد الأحباب صبراً جميلا

علّ ماء الدموع يخمد ناراً ... من جوى الحب أو يَبُلّ غليلا

وبكاء الديار مما يرد الشو ... ق ذكراً والحب نضواً ضئيلا

لم يكن يومنا طويلا بنعما ... ن ولكن كان البكاء طويلا

إن فهم ذلك يحتاج الى تأمل النفس البشرية : فهى ليست مُوَحّدة المشاعر والميول . ولو جاز أن نجد نفساً خالدة الألم لفقد شقيقتها فى عالم النفوس ، لجاز أيضا أن تكون فى لوعتها الخالدة ذات تصاريف فى الشكوى والأنين ! وليس طلب السلوة الا صرخة الوجد يعجز عن كبحها المتيم العانى : ومن الذى يُحرّم على شقىّ أن يلتمس الى السعادة السبيل ؟

ومتى كان المحبون سعداء حتى يكون طلب الخلاص من بلواهم كفراً بنعمة الحب التى ابتلى الله بها اولئك الشهداء ؟ ! وقد يحسن أن ننشد القارئ قول البحترى نفسه :

قد كان منى الوجد غِبَّ تذكرٍ   اذ كان منك الصدُّ غِبَّ تناسى
تجرى دموعى حيث دمعك جامدٌ   ويرق قلبى حيث قلبك قاسى

ألا تراه جعل الوجد أثراً للتذكر الذى حسب البكاء يفضى اليه فيريحه من الشوق فى قوله :

وبكاء الديار مما يرد الشو   ق « ذكرا » والحب نضوا ضئيلا

فهو يجعل الذكر دواء تارة ، ويجعله داء تارة أخرى ! ولسنا نتخذ من ذلك دليلا يرضاه المنطق عن خلود الصبابة ، والعالم كله لن يرزق الخلود ، ولكنا نستدل به على الحيرة يرزأ بها المتيم المحزون ، فما يدرى أيشفيه الدمع ، أم يزيد لوعته اضطراما . .

على أنه لاعيب على الشاعر فى أن « تتناقض » خواطره ، لأن الشعر كالمرآة ، والنفس دنيا ثانية ، تتراءى صورها المختلفة ، فى لوحة الشعر الجميل

الدمع عند الوداع

نذكر هنا نماذج من وصف الدموع عند الفراق . فمن ذلك قول ابن الرومى :

لو كنتَ يوم الفراق حاضرنا   وهنَّ يطفين غلةَ الوجدِ
لم ترَ الاّ دموع باكيةٍ   تقطر من مقلةٍ على خدِ

كأن تلك الدموع قطر ندًى   يقطر من نرْجس على وردِ

وقد يؤخذ على هذه الابيات ما فيها من الغزل فى غير حينه : وهو كقول أبى نواس فى جنان

ياقمراً أبصرتُ فى مأتمٍ   يندب شجواً بين أترابِ
يبكى فيذرى الدّر من نرجسٍ   ويلطم الورد بعنّابِ

والأدباء يرون هذا من وَثَبات الخيال ، ونراها أخيلةً عاديّة ليس لها جمال خاص ، فقد يجد الشاعر فى الجميلة الباكية ماينسيه وصف طرفها الساحر ، وخدها الاسيل !! وقد أجاد ابن الرومى أو كاد فى قوله

تلاقينا لقاءً لافتراقٍ   كلانا منهُ ذو قلب مروعِ
فما اقترّت شفاهٌ عن ثغورٍ   بل اقترّت جفون عن دموعِ

ومما جمع بين براعة التصوير ، ومتانة التعبير ، قول المتنبى :

لما تقطّعت الحمول تقطعتْ   نفسى أسًى وكأنهنّ طُلوحُ
وجلا الوداع من الحبيب محاسناً   حسنُ العزاء وقد جُلين قبيحُ
فيدٌ مسلِّمةٌ ، وطرفٌ شاخصٌ   وحشاً يذوب ومدمع مسفوحُ
يجد الحمام ولو كوجدى لانبرى   شجر الأراك مع الحمام ينوح

وقال مهيار فى الاعتذار عما للمودِّع من الزفرات والعبرات

دعونى فلى إن زمّت العيس وقفةٌ   أعلِّم فيها الصَّخر كيف يلينُ
وخلُّوا دموعى أو يقال نعم بكى   وزفرة صدرى أو يقال حزينُ
فلولا غليل الشوق أو دمعة النوى   لما خلقت لى أضلعٌ وجفونُ

وهى مدافعةٌ حسنة تذكرنا بقول صردر

اذا لم أفزْ منكم بوعدٍ فنظرة   اليكم فما نفعى بسمعى وناظرى

وقال السرى الرفاء فى ذكر مظاهر الوداع : من اللوعة ، والحنين ، وتخديد الخد بالدمع ، مع ذهاب العزاء :

وقفتنا النوى على الكُرهِ منا * موقفاً ضمّ شائقاً ومشوقا

حال ورد الخدود فيه فاضحى النـــرجس الغضّ بالدموع غريقا

لوعة أفرطت فعادت حريقا * وحنينٌ أربى فعاد شهيقا

وخليقٌ بلوعة الحب صبٌّ * لم يكن بالعزاء فيه خليقا

ومن شجىّ الشعر فى ذلك قول الشريف الرضى :

ولما تواقفنا ذهلت ولم يَحنْ * لطير قلوب العاشقين وقوعُ

عشيةَ لى من رقبة الحى زاجرٌ * عن الدمع إلاّ أن تشذّ دموعُ

وقد أمرت عيناك عينيّ بالبكا * فقل لىَ أىّ الآمرَيْن أطيع

ولهذا الشعر مزية خاصة : وهى ترتيب المعانى ترتيباً لولا حيرة المودع لكان غايةً فى الوضوح . ولا يفوتنا أن نذكرهنا قول ابن زريق :

ودّعته وبودى لو يودّعنى * صفوُ الحياة وأنى لا أودعهُ

وكم تشفّع بى أن لا أفارقهُ * وللضّرورات حالٌ لا تشفّعهُ

وكم تشبثّ بى يوم الرحيل ضحًى * وأدمعى مستهلاّتٌ وأدمعهُ

ومن الشعراء من يفرح بالوداع ، إذ يمكنه من معشوقة قد لا تراها العين إلا عند الرحيل . فمن ذلك قول البحترى :

إن للبين نعمةً لا تؤدّى * ويداً فى تُماضرٍ بيضاءَ

جحبوها حتى بدت لفراقٍ * كان داءً لعاشق ودواءَ

أضحك البين يوم ذاك وأبكى * كلّ ذى صبوةٍ وسرّ وساءَ
فجعلنا الوداع فيه سلاماً * وجعلنا الفراق فيه لقاءَ

وفى هذا المعنى يقول بعض الظرفاء :

لم أنس إذ ودعته والتقى * ذا البدنُ الناعمُ والناحلُ
كأنما جسمى على جسمهِ * غصنان ذا غضٌّ وذا ذابلُ
يارُبَّ ما أطيب ضمى له * إلىَّ لولا أنه راحلُ !

وقد ألمَّ الشريف بهذا المعنى فى هذه الأبيات :

أفى كل يومٍ لفتةٌ ثم عَبرةٌ * على رسم دارٍ أو مطىٌّ مُوَقَّفُ
وركبٍ على الأكوار يثنى رقابهم * لداعى الصبا عهد قديم ومَألَفُ
فمن واجدٍ قد ألزم القلبَ كفهُ * ومن طربٍ يعلو اليَفَاع ويشرفُ
ومُستَعبرٍ قد أتبَعَ الدمع زفرةً * تكاد لها عُوجُ الضلوع تثقّفُ
قضى ماقضى من أنةِ الشوق وانثنى * بدار الجوى والقلب يهفو ويرجُفُ
ولم نَغنَ حتى زايل البعد بيننا * وحتى رمانا الأزلم المتغطرف[1]
كأنّ الليالى كنَّ آلين حِلفةً * بأن لا يُرى فيهنَّ شملٌ مؤلَّفُ
أيا وقفة التوديع هل فيك راجعٌ * إشارتهُ ذاك البنان المطرّفُ
وهل مُطمعى ذاك الغزال بلفتةٍ * وإن ثوّر الركب العجال وأوجفوا[2]

وهذه الأبيات وصف سابغ للمرور بمنازل الأحباب ، ولكن فيها تصويراً لانتهاب الحسن عند الوداع ، وإمتاع العين باللفتة وإشارة البنان ، وليست هذه المُتعة بالشىء القليل !

---

(١) لم نغن : لم نقم . والازلم المتغطرف هو الدهر . (٢) أوجفوا : أسرعوا

الدمع بعد الفراق

ذكرنا فى الكلمة السالفة مذاهب الشعراء فى وصف الوداع ، واليوم نذكر أفانين من شعرهم فى الدمع بعد الفراق . فمن ذلك قول دعبل فى راحلين مايدرى أيلقاهم وهو حىّ ، أم ينتظرهم فى عالم البقاء

ألم يأن للسَّفْر الذين تحمّلوا * إلى وطنٍ قبل الممات رجوعُ
فقلت ولم أملك سوابق عَبْرَةٍ * نطقنَ بما ضُمّتْ عليه ضلوع
تبيّنْ فكم دارٍ تفرق شملها * وشملٍ شتيتٍ عاد وهو جميع
كذاك الليالى صرفهن كما ترى * لكل أناسٍ جَدْبَةٌ وربيعُ

ويذكر صاحب « مواسم الأدب » أن المأمون كان يُعجب بهذه الأبيات ، وكذلك كان المؤلفون « يسجلون » إعجاب الملوك بما يقول الشعراء ، كأن الشعر « نقود » لا يتداولها الناس إلا إن حملت شارات الملوك !! على أن من العدل أن نذكر بهذه المناسبة أن إقبال المأمون على الشعر الجيد ، وتشجيعه للشعراء المجيدين ، كان مما رفع الأدب ونهض بالأدباء وهناك ظاهرة أخرى لإعجاب المأمون بهذه القطعة الوجدانية : هى إقبال كرائم النفوس على مناهل الوفاء ، وان أُسبغت عليها نعمة العلم والجاه !! ولنا أن نقول . إن فى عجز العلم والملك عن قتل الحب فى صدور الملوك والعلماء لدليلاً على أن نِعَم الوجود تتلاشى أمام هذه النعمة الساحرة ، القاهرة : نعمة الجمال !!

وفى الفزع من الموت قبل اللقاء ، يقول الطغرائى :

إنى لأذكركم وقد بلغ الظما * منى فأشرق بالزلال البارد

وأقول ليت أحبتى عاينتهم * قبل الممات ولو بيوم واحد

وللشريف الرضى فى الوجد بعد الفراق شعر باكٍ حزين . كقوله:

الدمع مذ بَعُد الخليط قريبُ * والشوق يدعو والزفير يجيبْ

إن لم تكن كبدى غداة وداعكم * ذابتْ فأعلمُ أنها ستذوبُ

داءٌ طلبت له الأساة فلم يكن * إلا التعلّل بالدموع طبيبُ

إمّا أقمت فان دمعى غالبٌ * لعواذلى وتجلّدى مغلوبُ

ومن الشعراء من ينفد دمعه ، فيوصى بالبكاء عنه ، كما قال الشريف

أيها الرائح المغذّ تحمل * حاجةً للمتيم المشتاق

إقرَ عنى السلام أهلَ المصلّى * فبلاغ السلام بعض التلاقى

وإذا ما مررت بالخيف فاشهد * أن قلبى إليه بالأشواق

وإذا ما سُئلتَ عنى فقل نضـ * ـوُ هوًى ما أظنه اليومَ باقِ

ضاع قلبى فانشده لى بين جمعٍ * ومنًى عند بعض تلك الحداق

وابك عنى فطالما كنت من قبـ * ـلُ أعيرُ الدموع للعشاق

وتذكرنا هذه الأبيات بقول عبد الرحمن الداخل :

أيها الراكب الميمِّم أرضى * إقرَ من بعضَى السلام لبعضى

إن جسمى كما علمت بأرضٍ * وفؤادى ومالكيه بأرض

قُدِّر البين بيننا فافترقنا * وطوى البين عن جفونى غمضى

قد قضى الله بيننا بافتراقٍ * فعسى باجتماعنا سوف يقضى

ومن الشعراء من يبكى فى القرب والبعد، كما قال بعض الظرفاء

ومافى الأرض أشقى من محبٍّ * وإن وجد الهوى حلو المذاقِ

تراهُ باكياً فى كل حالٍ * مخافة فرقةٍ أو لاشتياقِ

فيبكى إن نأوْا شوقاً إليهم * ويبكى إن دنوا خوف الفراق

فتسخن عينه عند التنائى * وتسخن عينه عند التلاقى

وليس لنا إلا أن نذكّر أمثال هذا الشاعر بما قاله الأخطل لعبد الملك ابن مروان وقد سأله كيف تشرب الخمر : وأولها مرّ، وآخرها سكر ؟ فقال صدقت ياأمير المؤمنين ! ولكن بين السكر والمرارة لحظة دونها ملك الطويل العريض !

وبين دموع التلاق، ودموع الفراق، لحظة دونها حياة الأبرار فى جنات النعيم !!

ومن الشعراء من يتوجع على عهده قبل الفراق. كقول الشريف

هل عهدُنا بعد التفرق راجعٌ * أو غصننا بعد التسلُّب مُورقُ

شوقٌ أقام وأنتِ غير مقيمةٍ * والشوق بالكلفِ المعنىّ أعلقُ

ما كنت أحظى فى الدنو فكيف بى * واليوم نحن مغرِّبٌ ومشرِّق

وفى البيت الأخير حسرة تذيب لفائف القلوب

وقد أجاد الأرَّجانى فى وصف اليأس بعد الفراق، حين قال :

رَحلوا : أمام الركب نشر عبيرهم * ووراءهم نَفَس المشوق الصادى

فكأنّ هذا من وراء ركابهم * حادٍ لها وكأن ذلك هادى

لله موقف ساعةٍ يوم النوى * بمِنىً وأقمار الحدوج بَوَادِ
لما تبعت وللمشيّع غايةٌ * أظعانهم وقد امتلكن قيادى
أتبعتهم عينى وقلبى واقفاً * فوق الثنية والمطىّ غوادِ
كيف السبيل الى التلاقى بعدما * ضرب الغيور عليه بالأسداد
والحىّ قد ركزوا الرماح بمنزلٍ * فيه الظباء ربائب الآسادِ
وعد المنى بهمُ فقلت لصاحبى * كم دون ذلك من عِدًى وعواد
عهدى بهم وهمُ بوجرة جيرةٌ * سُقِيَتْ عهودهمُ بصوب عهاد
فاليوم من نَفَس النسيم اذا سرى * نبغى شفاء علائل الأكباد

ومن العشاق من يقف بالديار فيبكى لما صنعت بها أيدى الفراق حين نفرت عنها الظباء ، كسبط ابن التعايذى حين يقول :

ياموقفاً بالبان لم تثمر لنا * غير الصبابة والأسى شجراتهْ
هلْ نفّرتْ لانفّرت غزلانهُ * أو صوّحتْ لاصوّحت باناتهُ
عهدى به يلوى الديون قضاتهُ * وتصيد ألباب الرجال مهاتهُ
فاليومَ لاجيرانهُ جيرانهُ * قدماً ولا فتياتهُ فتياتهُ
ياحادىَ الأظعان فى آثاركم * قلبٌ تقطّعه جوًى حسراتهُ
ولقد يُرى ثَبْتَ الحصاةِ فماله * أمست تذوب على البعاد حصاته (١)

(١) الحصاة : القلب

شكوى الصبابة

نظرت ماقال الشعراء فى الشكوى فاذاهم مختلفون : فنهم من يشكو الى من يعلم السر والنجوى ، ومن يقدر على تصريف الخواطر ، وتقليب القلوب

أَلانَ لداودَ الحديد بقدرةٍ * مليكٌ على تيسير قلبك قادرُ

وهؤلاء أصدق الناس حباً وأحسنهم إيماناً · وسيدهم أبوصخر الهُزلى حين يقول :

بيدالذى شعف الفؤاد بكم * تفريج ماألقى من الهمّ

فانه جعل الهوى قدرا، وجعل الأمر فى تيسير قلب من يهوى وتذليله للذى خلق الحب ، وأودع الذل فيه · ولم أجد فى هذا المعنى أوجع من قول قيس بن ذريح

إلى الله أشكو فقد لُبنى كما شكا * إلى الله بعد الوالدَيْن يتيمُ

يتيمٌ جفاه الأقربون فدمعهُ * غزيرٌ وعهد الوالدين قديمُ

وإذا كان محالا أن يجد المرء بعد أبويه من يعوله ، ويحدب عليه ، ويمنحه من العطف والحنان ما كان جديراً أن يفوز به لو عاش أبواه ، فكذلك لايجد قيس من بين النساء من تبره برّ لبنى . وهذا وجه الحسن فى هذين البيتين ، اللذين يفيضان ناراً وحرقة . وقال ابن المعتز

إلى الله أشكو الشوق لاإن لقيتها * يقلُّ ولا إن بنت يخلقه الدهرُ

مقيمٌ على الأحشاء قد قطعْت به * فساعته يومٌ وليلته دهرُ

ولم يذكر الشاعر هنا من موجب الشكوى غير فرط حبه ، وخلود وجده . وإنما يشكو المحب قسوة الهجر، ومرارة الصدود . وقال معين الدين الخطيب فى الشكوى من لوعته وحسن محبوبه

أشكو الى الله من نارين واحدة * فى وجنتيه وأخرى منه فى كبدى
ومن سَقامين سُقم قدأحل دمى * من الجفون وسقم حلّ فى جسدى

وهذا شعر منتقد . فانه اذا صح ان يشكو المحب الى الله سقمه ووجده ، أملاً فى الراحة من بلاء الحب ، فما الذى يريده بشكوى السقم فى جفن محبوبه والنار فى خديه ؟ وقد أجاد أوقارب فى قوله

ومن نَمومين دمعى حين أذكرهُ * يذيع سرى وواشٍ منه بالرصدِ
ومن ضعيفين صبرى حين يهجرنى * ووده ويراه الناس طوع يدي

فانه لا بأس من شكوى الواشى والود الضعيف !

ومن المحبين من يشكو الى المعاهد والرسوم . وهو نوع من الوله، وصنف من الصبابة · تقربه عين المحب · وتطيب به نفس المشوق . كقول ابن المعتز

أيا سِدْرة الوادى على المشْرَع العذبِ * سقاك حيًا حيُّ الثرى ميت الجدبِ
كذبت الهوى إن لم أقف أشتكى الهوى * إليك وإن طال الطريق على صحبى
أصانع أطراف الدموع ومقلتى * موقَّرَةٌ بالدمع غربًا على غربِ
وهل هى إلا حاجة قضيت لنا * ولوم تحمّلناه فى طاعة الحب
تبدّلت شيبًا بالشباب فان تَطِر * شياطين لذاتى يقعْنَ على قربِ

ومنهم من يشكو إلى المسعد والرفيق . وهو أصل هذا الباب . ومنه هذا البيت السائر

ولابد من شكوى إلى ذي مروءةٍ * يواسيك أو يسليك أو يتوجعُ

ويعجبني في هذا المعنى قول البها زهير

أين من يرحمني أشكو له * انما الشكوى إلى من يرحمُ

أنا من قلبي ومنها آيسٌ * لم يكن من مقلتيها يسلم

أيها السائل عن وجدي بها * إنهُ أعظم مما تزعم

ولقد حدثت عن شرح الهوى * أنت يارب بحالى أعلمُ

طال ما ألقاه من نار الجوى * وحديثي لك يامن يفهم

عشق الناس ومثلي لم يكن * فاعلموا أنيَ فيهم علَمُ

سُطّرت قبلي أحاديث الهوى * وبمسكٍ من حديثي تختم

وهذا شعر يشف عن كثير من سلامة الذوق ، وخفة الروح . ولعلك لاتجد أظرف من قوله

أين من يرحمني أشكو له * انما الشكوى إلى من يرحم

فانه خير ماقيل في معناه . . . ومن المغرمين من يشكو إلى حبيبه وهو أوجب لرحمته ، وأدعى إلى انصافه . ومنه قول الطغرائي :

لعمرك مايرجى شفائيَ والهوى * له بين جسمي والعظام دبيبُ

أُجلّك أن أشكو إليك وأنطوى * على كمدى إن الهوى لعجيب

وآمل برءاً من هوىً خامر الحشا * وكيف بداءٍ لايراه طبيب

نصيبك من قلبي كما قد عهدتهُ * ومالى بحمد الله منك نصيبُ

وما أدّعى الا اكتفاءً بنظرةٍ * اليك ودعوى العاشقين ضُروب

ومابحت بالسر الذى كان بيننا * ولكنما لحظ المحب مُريبُ

وقوله « نصيبك من قلبي كما قد عهدته » مأخوذ من قول ابن الأحنف

اليك أشكو ربِّ ماحلَّ بي * من صدِّ هذا التائه المعجبِ
صبٌّ بعصياني ولو قال لى * لاتشرب البارد لم أشربِ
ان قال لم يفعل وان سيل لم * يبذل وان عوتب لم يُعتبِ

وقوله «وما أدعى إلا اكتفاءً بنظرة » مأخوذ من قول الشريف

عشقت وما بي يعلم الله حاجةٌ * سوى نظرى والعاشقون ضروبُ

ومما حُسنت معانيه وصحت تقاسيمه — فى الشكوى إلى المحبوب — قول بعض الأعراب

شكوت فقالت كل هذا تبرماً * بحبي أراح الله قلبك من حبي
فلما كتمت الحب قالت لشدّ ما * صبرت وما هذا بفعل شجي القلبِ
وأدنو فتقصيني فأبعد طالباً * رضاها فتعتدُّ التباعد من ذنبي
فشكواى تؤذيها وصبرى يسوءها * وتجزع من بعدى وتنفر من قربى
فياقوم هل من حيلةٍ تعرفونها * أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربى

وهذا شعر الطبع والسليقة ، والموفقون الى مثله قليل

وقد أجاد فى هذا المعنى من شعراء العصر حافظ بك إبراهيم حين قال :

كم تحت أذيال الظلام متيمٌ * دامى الفؤاد وليله لايعلمُ
ماأنت فى دنياك أول عاشق * راميه لايحنو ولا يترحَّمُ
أهرمتنى ياليل فى شرخ الصبا * كم فيك ساعات تشيب وتهرمُ
لاأنت تقصر لى ولا أنامقصرٌ * أتعبتنى وتعبتَ ، هل من يحكمُ

لله موقفنا وقد ناجيتها * بعظيم مايخفى الفؤاد ويكتمُ
قالت من الشاكى تسائل سربها * عنى ومن هذا الذى يتظلمْ
فأجبتها وعجبت كيف تجاهلت * هو ذلكِ المتوجِّعُ المتألمُ
أنا من عرفتِ ومن جهلتِ ومن لهُ * لولا عيونك حجةٌ لاتُفحمُ
أسلمت نفسى للهوى وأظنها * مما يجشمها الهوى لاتسلمُ
وأتيت يحدوبى الرجاء ومن أتى * متحرِّماً بفنائكم لايُحْرَم
أشكو لذات الخال ماصنعت بنا * تلك العيون وما جناه المِعصمُ
لاالسهم يرفق بالجريح ولاالهوى * يُبقى عليه ولا الصبابة ترحمُ
لو تنظرين اليه فى جوف الدجى * متململاً من هول مايتجشمُ
يمشى إلى كنف الفراش محاذراً * وجلاً يؤخر رجلهُ ويقدمُ
يرمى الفراش بناظريه وينثنى * جزِعاً ويقدم بعد ذاك ويحجمُ
فكأنه واليأس ينسف نفسه * للقتل فوق فراشه يتقدّم
رُشقت به فى كل جنب مُديةٌ * وانساب فيه بكل ركن أرقمُ
فكأنه فى هولهِ وسعيرهِ * وادٍ قد اطّلعت عليه جهنمُ
هذا وحقك بعض ما كابدتهُ * من ناظريك وما كتمتك أعظمُ
قالت أهذا أنت ويحك فاتئد * حتى مَ تنجد فى الغرام وتتهم
إنّا سمعنا عنك ماقد رابنا * وأطال فيك وفى هواك اللُّوَّمُ
أصغتْ إلى قول الوشاة فأسرفت * فى هجرها وجنت علىّ وأجرموا
حتى إذا يئس الطبيب وجاءها * أنى تلفت تندّمت وتندموا
وأتت تعود مريضها لا بل أتت * منى تشيّع راحلاً لوتعلم

وفى هذه القصيدة صورة شعرية بديعة ، تمثل العاشق ، وقد طال عليه الليل ، وهجر جفنيه المنام . وهي غاية فى حسن القَصَص ، وسحْر البيان

ولنذكر الشكوى الى ساقى الراح فى قول ابن المعتز :

أيها الساقى الليل المشتكى * قد دعوناك وإن لم تسمعِ
ونديمٍ هِمْتُ فى غرّتِهِ * وبشرب الراح من راحتهِ
كلما اُستيقظ من سَكْرتهِ * جذب الزّقّ اليه واتكا
وسقانى أربعًا فى أربعِ

مالعينى عَشِيتْ بالنظرِ * أنكرتْ بعدكَ ضوءالقمرِ
وإذا ماشئت فاسمع خبرى * عَشِيتْ عيناىَ من طولِ البكا
وبكى بعضى على بعضى معى

غصن بان مال من حيث التوى * مات من يهواه من فرط الجوى
خفقَ الأحشاء موهون القُوى * كلما فكر فى البين بكى
ويْحَهُ يبكى لما لم يَقعِ !

ليس لى صبرٌ ولالى جلَدُ * يالقومى عذَلوا واجتهدوا
أنكرواشكواىَ مما أجدُ * مثل حالى حقهُ أن يُشتكى
كمد اليأس وذلّ الطمعِ

كبدٌ حرَّى ودمعٌ يكفُ * أصرف الدمع فلا ينصرفُ
أيها المعرض عما أصفُ * قد نما حبى بقلبى وزكا
لاتقل فى الحب إنى مدعى

وفى هذه الموشحة شكوى أليمة . تهم بمثلها النفس الشجية ، من حين الى حين !

وتعجبنى شكوى ابن الرومى فى قوله :

ظبىٌ يصيدُ ولا يصاد محاذرٌ * نبل الهوى وحبائل الإيناسِ
غِرٌّ شموسٌ إن أحسَّ بريبةٍ * أَعجبْ بجامع غِرَّةٍ وشماسِ
يسبى القلوب بمقلة مكحولةٍ * بفتور غُنجٍ لا فتور نُعاسِ
ياللرِّجال ألا معين لأيِّدٍ * صبِّ الفؤاد على ضعيفٍ قاسِ (١)
أيضيمنى خَنِث الشمائل لو نضا * عنه غِلالته حساه الحاسى ؟
ومن العجائب أن تحل ظلامةٌ * بفتى أُناسٍ من فتاة أُناس

ومن المعذبين من يبث شكواه من دهره وإخوانه إلى صديق أقصته فى بره الليالى . ومن شعراء العصر من قارب الإجادة فى هذا المعنى ، كصاحب البدائع حين يقول (٢) :

أنت الذى علمتنى * ياسيِّدى بِرَّ الصديقْ
وتركتَنى فى فِتيةٍ * مافيهمُ بَرٌّ رفيقْ
لم ألق بعدك منهمُ * إلا الجفاءَ أو العقوقْ
حتى كأنِّى لم أبتْ * منهم على عهدٍ وثيقْ
وكأنهم لم يبصروا * فى خُلقى الحرّ الصدوق
فنسوا هواىَ ولم يفق * من ودهم قلبى المشوقْ

---

(١) أيد : قوى . من الايد بسكون الياء وهو القوة
(٢) أرسلت هذه القصيدة للصديق العزيز محمد محمود حسين

ونسوا طريف حديثنا * عند الصَّبوح أو الغبوق
ليت الهوى ما قادنى * يوماً الى ذاك الطريق
أو ليتنى لم أنخدع * جهلاً بهاتيك البروق
بل ليتنى بعد الذى * عانيت من صبحى أُفيق

* * *

مولاىَ لو أبصرتنى * لفزعتَ من دمعى الطليقْ
وشجاكَ جسمى ناحلاً * وكأنه الطيف الطروق
أشكو إليك وإنما * يشكو المَضيم إلى الشفيق
فارحم فديتك مهجةً * أودي بها الحزن العميق
حزن يقطِّع فى الحشا * فكأنهُ غدرُ الصديق

* * *

ياوَيحَ قلبى لم يزلْ * يهفو به الرَّوْح الخفوق
وتقوده الذكرى إلى * عهد الهوى الغضّ الرقيق
أيامَ نمرح فى الصبا * فى ذلك العيش الأنيق
أيامَ نُسقى فى الهوى * والود كأساً من رحيق
تلك الليالى لم تدع * من بعدها حُسْناً يروق
كلاً ولا خلّت لنا * إلا الزفير أو الشهيقْ

عند منازل الأحباب

كان أبو نُواس يكره الشعر فى بكاء الرسوم والأطلال ، وأدباء هذا العصر يعدون هذه النزعة توديعاً للقديم ، وترحيباً بالجديد ، وهذا حق إذا لوحظ أن الشعراء كانوا يبدأون قصائدهم ببكاء الديار ، وان لم يكونوا بنار الفراق من المحرقين ! ولكن من العبث فى تحليل العواطف أن نجهل مايجده المحبون عند المرور بديار أحبابهم المبعدين ، ومن الغبن للآداب العربية أن نغفل ماقيل فى منازل الأحباب من الشعر الباكى الحزين ! وهانحن أولاء نبسط القول عن هـذه الوقفة الأليمة ، وقفة المحب على ديار خلت غُرفها من الظباء الغرائر ، وعفت سُرْرها من النساء الحرائر ، بعد أن كان ساكنوها أمل الآمل ، وأمنية المتمنى ! !

فمن ذلك قول بعض الأعراب وقد وقف (بالحزن) بفتح الحاء ـ وكان ملعب شبابه ، ومنتدي هواه ، وصورة أيامه الخوالى :

ومستنجد (بالحزن) دمعاً كأنهُ * على الخد مما ليس يرقأ حائرُ
اذا ديمة منه استقلت تهلّت * أوائل أخرى مالهن أواخرُ
ملا مقلتيه الدمع حتى كانه * لما انهلّ من عينيه فى الماء ناظر
وينظر من بين الدموع بمقلة * دمى الشوق فى إنسانها فهو ساهرُ

وفى هذا المعنى يقول ابن الملوّح :

نظرت كأنى من وراء زجاجةٍ * الى الدار من ماء الصبابة أنظرُ
فعيناىَ طورا تغرقان من البكا * فأعشى وطورا يحسران فأبصرُ

ومما يغرى القلب بالحزن ، والعين بالدمع ، قول البحترى :

وقفنا فحيينا لأهلك باللوى * ربوع ديار دارسات المعالم

ذكرنا الهوى العذرىَّ فيها فأنسيَتْ * عزاها مشوقات القلوب الهوائم

خلعنا بها عذر الدموع فأقبلت * تلوم وتلحى كل لاح ولائم

لقد حكم البين المشتت بالبلى * عليك وصرف الدهر أجْور حاكم

لعلَّ الليالى يكتسين بشاشةً * فيجمعن من شمل الهوى المتقادم

ونود لو تأمل القارىء ما فى هذه الأبيات من الترتيب والتنسيق : فقد وقف الشاعر بالديار ، ثم حياها وهو يتنقل بروحه بين الشقاء الحاضر والنعيم الماضى ، ثم اشتعل الحزن فى قلبه اشتعالاً ، فنسى جمال الصبر وحسن العزاء ، فاندفع يبكى وينتحب ، ثم أغرب فى البكاء والنحيب ، حتى خشع عاذلوه ، وخضع لائموه ! ! ثم توجَّع للديار مما حكم عليها البين وصنعت بها الليالى ! ! ثم تمنى لو ضحك الزمن بعد العبوس ، فاجتمع الشمل بعد الفراق ! ! وقال أبو فراس :

علىَّ لربع العامرية وقفةٌ * ليملى علىَّ الشوق والدمع كاتبُ

فلا وأبى العشاق ما أنا عاشقٌ * اذا هى لم تلعب بصبرى الملاعبُ

ومن مذهبى حب الديار وأهلها * وللناس فيما يعشقون مذاهبُ

ولا يفهم أحد كيف يكون حب الديار وأهلها مذهباً لأبى فراس ، مع أن أبياته هذه ليست شيئاً فى جانب ماقيل فى منازل الأحباب ، ويكفى أن نذكر قول نبهان العبسى فى البئر الذي كانت تشرب منه محبوبته سليمى

سأسرى الى الماء الذى شربت به * سليمى وإن مل السرى كل واحد
وألصق أحشائى ببرد ترابه * وان كان مخلوطاً بسم الأساود

ويذكرنى هذا بقول بعض الأعراب فى (الوشل) وهو ماء كان يطالع عنده وجوه الكواعب :

إقرأ على الوشل السلام وقل له * كل المشارب مذ هجرت ذميم
سقياً لظلك بالعشى وبالضحى * ولبرد مائك والمياه حميم
لو كنت أملك منع مائك لم يذق * مافى قلاتك ما حييت لئيم(١)

وللشريف الرضى فى بكاء الديار بدائع ، فمن ذلك قوله :

تزافر صحبى يوم ذى الأثل زفرة * تذوب قلوب من لظاها وأضلع
منازل لم تسلم عليهن مقلة * ولا جف بعد البين فيهن مدمع
فدمع على بالى الديار مفرق * وقلب على أهل الديار موزع
ألا ليت شعرى كل دار مشتة * ألا موطن يدنو بشمل ويجمع

ومن جيد شعره فى هذا المعنى قوله من كلمة ثانية :

وقفت على تلك الديار ووحشها * دوان ومن يحكين غير دوان
فأنكرت العينان والقلب عارف * قليلا ولجا بعد فى الهملان

وهذا آخر مايقال فى رسوم الديار ، فحسب أطلالها من البلى ، ورسومها من العفاء ، أن تنكرها العينان ، ولا يعرفها القلب الا قليلا !! والأدباء ينكرون أن يتردد القلب فى معرفة دار كانت بالأمس جنة ونعيما ، ويعجبون بقول طريح بن اسماعيل الثقفى :

(١) القلات جمع قلت بفتح فسكون وهو النقرة تكون فى الصخرة

تستخبر الدِّمن القفار ولم تكن * لترد أخباراً على مستخبِرِ
فظللت َتحكم بين قلب عارفٍ * مغنى أُحبته وطرفٍ منكرِ

ومن الشعراء من يرى الديار الخالية ، وكأنها بأهلها مأهولة ، كأبى نواس حين يقول :

لمن دِمَنٌ تزداد طيب نسيم * على طول ماأقوَت وحُسْن رسوم
تجافى البلى عنهن حتى كأنما * لبسْنَ على الإِقواء ثوب نعيم

وكقول الأخطل :

لأسماء مُحْتلٌ بناظرة البشر * قديمٌ ولما يُعفه سالف الدهرِ
يكاد من العرفان يضحك رسمهُ * وكم من ليالٍ للديار وكم شهرِ

وكقول ابن أحمر العقيلى :

تراها على طول القواء جديدة * وعهد المغانى بالحلول قديمُ

والمعروف فى هذا المعنى أن الديار تجد مثل ما يجد المتيم المحزون ، كقول محمد بن وهب :

طللان طال عليهما الأمدُ * دَرَسا فلا عَلَم ولا قَصَدُ
لبسا البلى فكأنما وجدا * بعد الأحبة مثل ماأجدُ

وكقول مالك ابن أسماء الفزارى :

بيناهمُ سكن لجارهمُ * ذكروا الفراق فأصبحوا سفْرا
فظللت ذا ولَهٍ يعاتبنى * من لا يرى مثلى له أمرا
بكت الديار لفقد ساكنها * أفعند قلبى أبتغى الصبرا

ومن بديع الشعر فى هذا الباب قول ابن سنان الخفاجى :

ولما وقفنا بالديار وعندنا * مدامعُ نسديها لكم وننثيرُها

شكونا اليها مالقينا من الضنى * فعرَّفنا كيف السقام دثورُها

وقد درست إلا أمارة ذاكرٍ * تلوح له بعد التمادى سطورُها

خليلىَّ قد عمَّ الأسى وتقاسمَتْ * فنونَ البلى عشاق ليلى ودورُها

فلا دار إلا دمنة ورسومها * ولا نفَس الا لوعةٌ وزفيرُها

لعمر الليالى ماحمدت قديمها * فيوحشنى ذهابها ومُرُورها

وقالوا عطاء الدهر يبلى جديدهُ * ومن لى بدنيا لايزول سرورها

ونود لو تأمل القارئ إبداع ابن سنان فى هذين البيتين

خليلىَّ قد عم الأسى وتقاسمت * فنون البلى عشاق ليلى ودورها

فلا دار الادمنة ورسومها * ولا نفس الالوعة وزفيرها

وحسب العاشق من موجب الأسى ، وداعى الحزن ، أن يرى منازل أحبابه هامدات ، باليات !

تعفو المنازل إن نأوا * عنها وتغبرُّ البلادُ

والحىّ أولى بالبلى * شوقا اذا بلى الجمادُ

وهل تأملت كيف شكا الى الديار مالقى من الضنى ، وكيف عرف ما به من السقم لماتبين دثورها ، وتعرّف عفاءها ! ويا ليت شعرى هل شكت اليه ماتجد من بُعد سكانها ، وبَيْن ملاكها ؟ أما والهوى إنها لتشكو فى صمتها الرهيب : اذ كانت تحزن بغير قلب ، وتبكى بغير دمع !!

كفى حزَناً للهائم الصب أن يرى * منازل من يهوى معطلة قفرا!

ومما يقرب من فلسفة الشعر ، وفقه الأدب ، فى بكاء الرسوم الهوامد ،

والأطلال الدوارس ، مع الإفصاح عن الأسى والبث والشجى والحزن ، قول ابن الخياط فى ديار لقيت من بعد سكانها مالقى المحب بعدهم من الضنى والنحول :

وقفت أدارى الوجد خوف مدامع * تُبيح من السر الممنّع ماأحمى
أغالبُ بالشك اليقين صبابةً * وأدفع من صدر الحقيقة بالوهم

وهذا من خير ماقيل فى مصانعة النفس ، ومغالبة الوجد : فقد عرف الديار بقلبه ، لما ضمنت منه الضلوع لأهلها النازحين ، وأنكرها بطرفه ، لما لقيت من الدثور والعفاء ، فهو يريد أن يعتصم بالشك ، لينجو من قسوة اليقين ، ولكنه غلب على أمره فقال :

فلما أبى الاّ البكاء لىَ الأسى * بكيتُ فما أبقيت للرسم من رسم
كأني بأجزاع النقيبة مُسلَمٌ * إلى ثائر لا يعرف الصفح عن جرم

يرحمه الله !! فهل رأى ثائراً أظلم من الوجد ، وحاكماً أجور من الصبابة !! ثم أخذ يقارن بين بليته وبلية الديار، فقال :

لقد وجدتْ وجدى الديار بأهلها * ولو لم تجد وجدى لما سقمت سقمى
عليهن وَسْمٌ للفراق وإنما * علىَّ له ماليس للنار من وسم

وهذا من الابداع فى وصف الديار الخالية ، وهل تجد المنزل بعد أهله الا باكيا حزيناً ؟ أوَ ليست وحشة المنزل الخالى ذلةً باديةً يطالع بها الرائح والغادى ، عساه يعرف شيئاً عن سكانه الراحلين ، وملاّكه الغائبين ؟ إن السكان للمنازل كالأرواح للاجسام ، فاذا ارتحلوا آن حِمامُها ، وحان

دُثورها ، وحلّ دمارها ! ؛ وقد رأى الشاعر بعد ذلك أن البين جائر في قسمة الضنى بينه وبين المنزل الخالى ، فقال :

وكم قسّم البين الضنى بين منزل * وبينى ولكن الهوى جائر القَسْمِ
منازل أدراس شجانى نحولها * فهلا شجاها ناحل القلب والجسم

وهذه استغاثة بالطلل البالى ، يشعر بمثلها ذو اللوعة الحزين !

وكان ابن الخياط من أغزر الناس دمعاً عند مغانى الأحباب ، فمن ذلك قوله :

ياعمرُو ماوقفةٌ فى رسم منزلةٍ * أثار شوقك فيها مَحْوُ آثارِ
أنكرتَ فيها الهوى ثم اعترفت بهِ * وما اعترافك الادمعك الجارى
لوكنتُ ناسيَ عهدٍ من تقادمهِ * نسيتُ فيها لُباناتى وأوطارى
أيامَ يفتك فيها غير مرتقَبٍ * ظبي الكناس بليث الغابة الضارى
لاأرسل اللحظ الا كان موقعهُ * على شموسٍ منيرات وأقمارِ
ماأطيبَ العيش لوأنى وفدت به * على زمانٍ ودهرٍ غير غدار

وهذا شعر يخالط النفس ، ويلابس الفؤاد ، ومثله فى اللوعة قوله من كلمة ثانية :

أجدك ماتنفكّ بالغور ناشداً * فؤاداً بنجد ؟ ياآقلبك من نجدِ !
وانى لتصمينى سهام ادكاركم * وان كان رامى الشوق منى على بعدِ
تمادى غرام ليس يجرى الى مدًى * وفرط سقام لايقيم على حد
وما أنسَ لاأنسَ الحمى وأهِلَّةً * تَضِلّ ومن حق الأهلة أن تهدى
زماناً إخال الجهل فيه من النهى * وحبًّا أعد الغىّ فيه من الرشد

غَذِينَ وما نوّلن نيلا سوى الجوى * وبنَّ وما زوّدن زاداً سوى الوجدِ
خليلىَّ ما أحلى الحياة لو أنها * لطاعمها لم تخلط الصاب بالشهدِ
لقد حالت الأيام عن حال عهدها * ومن لى بأيام تدوم على العهدِ

ومن بديع الشعر فى بكاء الديار قوله من كلمة طويلة :

وبالجزع حىٌّ كلما عنَّ ذكرهم * أمات الهوى منى فؤادى وأحياهْ
تمنّيتهم بالرقمتين ودارُهم * بوادى الغضا يابُعْدَ ما أتمناهْ
سقى الوابل الربعىُّ حائل ربعهم * وراوَحهُ ماشاء رَوْحٌ وغاداهُ
وجرَّ عليه ذيله كل خاطرٍ * اذا ما مشى فى عاطل الترب حلاهْ
وما كنت لولا أن دمعىَ من دمٍ * لأحمل منًّا للسحاب بسقياه

ومن المعانى المولدة فى الدمع عند الرسوم قول الأرجّانى :

وقفت بأطلال الديار مسلماً * وعهدى وملء الواديَين قبابْ
فأبرق عذالى ملاماً وأرعدوا * وأمطرتُ أجفانى فتمَّ سحابْ
به غَنيت أرض الحمى عن مصبّح * يقول سقى دار الرباب ربابْ

وهو خيال يبدو كأنه طريف ، ولكنه من الأخيلة الجوفاء ! وفى هذا المعنى يقول ابن التعاويذى :

سقى دار الحبيب وإن تناءتْ * مُلثٌّ مثلُ أجفانى هطول
ولا برحت تَسحّبُ للغوادى * وطوراً للصّبا فيها ذيولُ
لجفنى والغمام لها غديرٌ * وقلبى والنسيم بها عليلُ
وعنّفنى على العبرات صحبى * عشية قُوّض الحىّ الحلولْ
وقالوا استبق للأحباب دمعا * فقد شَرِقت بأدمعك الطلولُ

معاذ الحب أن أُلفى حَمولاً * وقد سارت بمن أهوي الحُمولُ
وعارٌ أن تزمَّ ليوم بين * جمالهمُ ولى صبرٌ جميلُ

ومن الشعراء من يجعل الحنين إلى الوطن كنايةً عن الحنين إلى ليالى الشباب التى قضاها بمرأًى من كواكبه السواطع ، ونجومه اللوامع . وقد نوّه بذلك صاحب زهر الآداب فذكر أن ابن الرومى جاء إلى على ابن عبد الكريم النصيبى وأنشده هذه القطعة البديعة :

ولى وطنٌ آليت أن لا أبيعه * وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا
عمَرْتُ به شرخ الشباب منعماً * بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبّبَ أوطان الرجال إليهمُ * مآربُ قضاًها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرت لهم * عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفته النفس حتى كأنهُ * لها جسد إن بان غودر هالكا

ثم قال : أنصفنى وقل الحق . أيهما أحسن ؟ قولى فى الوطن أم قول الاعرابى
أحب بلاد الله ما بين مَنعِج * إلىّ وسلمى لا يصوب سحابها
بلادٌ بها نيطت علىَّ تمائمى * وأول أرض مسّ جسمى ترابها

فقال له : بل قولك أحسن ، لأنه ذكر الوطن ومحبته . وأنت ذكرت العلة التى أوجبت ذلك !! وقد يشعر القارئ بالحاجة إلى معرفة المخاطب فى قول ابن الرومى :

عمرت به شرخ الشباب منعما * بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا

وخلاصة الحديث أن القطعة التى نقلناها من شعر ابن الرومى عن الوطن هى جزء من قصيدة قدمها إلى سليمان ابن عبد الله بن طاهر

يستعديه على رجل من التجار أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرانها،
فمما فيها من التحريض قوله :

وإنى وان أضحى مُدلاً بماله * لآمل أن أُضحى مدلاً بمالكا
فان لم تصبنى من يمينك نعمةٌ * فلا تخطئنْهُ نقمة من شمالكا
فكم لقى العافون بدءًا وعودةً * نوالك والعادون غمر نكالكا

وقال ابن الرومى من كلمة أخرى يتشوق إلى بغداد :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا * ولبست ثوب العيش وهو جديدُ
فاذا تمثل فى الضمير رأيته * وعليه أغصان الشباب تميد

والأدباء يرون أن مثل هذا الشعر ليس بكاء على الوطن ، ولا بكاء
على اللهو ، ولكنه بكاء على الشباب ، ويذكرون قول ابن الرومى من
كلمة ثانية :

لاتَلحُ من يبكى شبيبتهُ * إلاّ إذا لم يبكها بدمِ
عيب الشبيبة غول سكرتها * ومدار ما فيها من النعمِ
لسنا نراها حق رؤيتها * إلا أوان الشيب والهرمِ
كالشمس لاتبدو فضيلتها * حتى تُغشّى الأرض بالظلَمِ
ولربَّ شئ لا يسر به * وجدانه إلا مع العدمِ

والذين يؤولون شعر ابن الرومى هذا التأويل يرون أنه تبع فى وصف
الوطن بشار بن برد حين يقول :

متى تعرف الدار التى بان أهلها * بسعدى فان العهد منك قريبُ
تذكرك الأهواء إذ أنت يافعٌ * لديها فغناها إليكَ حبيبُ

ولعلنا لانبالغ إذا ذكّرنا هؤلاء بأن بكاء الشباب ليس إلا بكاءً لما انقطع بعده من دواعى الطيش ، وموجبات الجنون ، فبعض العقل رزء ، وبعض الوقار بلاء ، ولكن أكثر الناس لايفقهون ! !

ولقد سافر العباس بن الأحنف مع هرون الرشيد الى خراسان فاستدعاه ليلة لينشده شيئاً من الشعر ، فأنشده هذه الأبيات :

قالوا خُراسانُ أقصى مايراد بنا * ثم القفول فقد جئنا خُراسانا
مضى الذى كنت أرجوه وآمله * أما الذى كنت أخشاه فقد كانا
ما أقدرَ الله أن يدنى على شحطٍ * سكان دجلة من سكان جيحانا

فقال له : لقد اشتقتَ ياعباس ! فأجابه ، نعم ياأمير المؤمنين ! فأذن له بالرجوع ... وقال ابن ميادة يخاطب الوليدبن يزيد

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً * بحَرَّة نيلى حيث ربّبنى أهلى
بلاد بها نيطت علىّ تمائمى * وقُطِّعن عنى حين أدركنى عقلى
فان كنت عن تلك المواطن مانعى * فأقرْ علىّ الرزق واجمع بها شملى

وهذا البيت من أرق ماقيل فى الحنين إلى الأوطان ! وما أدرى أكان شوق ابن ميادة إلى بلاده رفقاً بالأهل والعشيرة ، أم كان براً بمن فيها من فاتنات الخدود ، وساحرات العيون ، وقاسيات القلوب ؟ لايعلم ذلك الا الذى يقول :

ومن بينات الحب أن كان أهلها * أحبَّ إلى قلبى وعينىّ من أهلى

وقال مالك ابن الريب يتشوق إلى اليمامة ونسيمها العليل :

سقى الله اليمامة من بلادٍ * نوافجها كأرواح الغوانى [1]
وجوّ أزاهرٍ للريح فيه * نسيم لا يرُوع الترب وانى
به سُقت الشباب إلى مشيب * يقبح عندنا حسنَ الزمان

وقال بعض الاعراب فى توديع نجد ، ومالقى بها من نضارة العيش ، وطيب الحياة :

أقول لصاحبى والعيس تهوى * بنا بين المنيفة فالضِّمارِ
تمتع من شميم عَرار نجدٍ * فما بعد العشية من عَرارِ
ألا يا حبذا نفحات نجدٍ * وريَّا روضه بعد القِطارِ
وأهلك إذ يحلّ الحىّ نجداً * وأنت على زمانك غير زارِ [2]
شهور ينقضين وما شعرنا * بأنصاف لهن ولا سِرار

وهذا حنين يذل له عصىُّ الدمع . ويشبهه قول ابن المعتز فى دار كانت ملعب صباه :

لامثلَ منزلة الدويرة منزلٌ * يا دارُ جادكِ وابلٌ وسقاكِ
بؤساً لدهرٍ غيَّرتك صروفهُ * لم يمحُ من قلبى الهوى ومحاكِ
لم يحلُ للعينينِ بعدكِ منظرٌ * ذُمّ المنازل كلهنَّ سواكِ
أى المعاهد منك أندب طيبهُ * ممساكِ بالآصال أم مغداكِ
أم بَرْدظلكِ ذى الغصون وذى الجَنَى * أم أرضك الميثاء أم ريّاكِ
وكأنما سُطعت مجامر عنبرٍ * أو فُتَّ فار المسك فوق ثراكِ
وكأنما حصباء أرضك جوهرٌ * وكأن ماء الورد دمع نداكِ

(١) النوافج بالجيم جمع نافجة وهى الريح تبدأ بشدة (٢) غير زار : غير عاتب

وكأنما أيدى الربيع ضَحيّةً * نشرت ثياب الوشى فوق رُبالكِ
وكأنّ درعا مُفْرغاً من فضةٍ * ماء الغدير جرت عليه صَبالكِ

ومما يقرب من بكاء الديار ذكر منازل اللهو والقصف . وقد كان الشعراء يتخذون الأديار موطنا لعبث الصبا ولعب الشباب ، ولكثير منهم حنين موجع إلى سكانها من ظرفاء الرهبان ، وربما عدنا إلى بسط ذلك فى غير هذا الحديث ، ونكتفى الآن بنفثات العشاق فى التغنى بمنازل الشراب . فمن ذلك قول محمد بن عاصم المصري فى دير القُصير ، وقد كان ملعباً للشعراء المصريين :

إن دير القصير هاج اُدكارى * لهْوَ أيامنا الحسانِ القصارِ
وزماناً مضى حميداً سريعاً * وشباباً مثل الرداء المُعارِ
ولو أن الديار تشكو اشتياقاً * لشكت جفوتى وبعد مزارى
ولكادت تسير نحوى لما قد * كنت فيها سيّرت من أشعارى
وكأنى إذ زرته بعد هجرٍ * لم يكن من منازلى ودياري
إذ صعودى على الجياد إليه * وانحدارى فى المعتقات الجوارى
بصقور الى الدماء صوادٍ * وكلابٍ على الوحوش ضوارى
منزلا لست محصياً ما لقلبى * ولنفسى فيه من الأوطار
كم شربنا على التصاوير فيه * بصغارٍ محثوثةٍ وكبارِ
صورة فى مصوّر فيه ظلت * فتنةً للقلوب والأبصار
أطربتنا بغير شدو فأغنت * عن سماع العيدان والمزمار
لا وحسن العينين والشفة اللمـ * ـياء منها وخدها الجلنار

لاتخلفتُ عن مرادىَ دهراً * هى منه ولو نأى بى مزارى

وفى دير القصير هذا يقول كُشاجم :

سلام على دير القصير وسفحهِ * فجنات حلوان إلى النَخَلات

منازل كانت لى بهنَّ مآربٌ * وكنَّ مواخيرى ومنتزهاتى

إذا جئتها كان الجياد مراكبى * ومنصرَفى فى السفن منحدرات

ومن الأديار التى خلدها الشعراء « دير قنَّا » بالقرب من بغداد ، وقد أبدع فى وصفه المؤرخون ، ثم طواه الدهر فيما طوى من ملاعب الشباب ، ولم يبق غير ذكراه فى قول ابن جمهور :

يامنزل اللهو بدير قنَّا * قلبى الى تلك الرُّبى قد حنَّا

سقياً لأيامك لمّا كنّا * نختار منك لذّةً وحُسْنَا

أيامَ لا أنعم عيشاً منّا * إذا انتشينا وصحونا عُدْنا

إذا فنى دَنٌّ بزلنا دنّاً * حتى يُظن أننا جُنِنّا

ومُسعدٍ فى كل ما أردنا * يحكى لنا الغصن الرطيب اللدنا

أحسن خلق الله اذ تَحنّا * وجسّ زير عودهِ وغنا

بالله ياقسبس ياباقنا[1] * متى رأيت الرشأ الأغنَّا

متى رأيت فتنتى تجنىَّ * آه إذا ماماس أو تثنىّ

أسأت إذ أحسنت فينا الظنا ! !

ومن الشعراء من تهيج حفيظته على قطر فيتغنى بقطر آخر كان ملعب هواه ، كما قال السرى الرفاء يمدح الموصل ويذم العراق :

(١) قد يكون أصل الكلمة يا أباقنا ثم حذفت الهمزة تخفيفا والمراد به ساكن دير قنا

لحا الله العراق وساكنيه * فما للحرّ بينهم قرارُ
وجاد الموصل المبيض غيث * يجود وللبروق به انسفارُ
كما انهلت مدامع مستهام * تلهّب منه في الاحشاء نارُ
ففي أيامه حَسن التصابي * وفي أفيائه خُلع العذار
ليالىَ كان لى فى كل يوم * الى الحانات حجٌّ واعتمار
فعن ذكر القيامة بى صدود * وعن ساح المساجد بى نِفار
ولى خدنان همهما المعالى * وشأنهما السكينة والوقار
وساقٍ تضحك الدنيا إليه * اذا ضحكت بكفيه العقار
يطوف بها وقد حملت حباباً * كما حمل السقيط الجلّنارُ(١)
كأنّ الشرْب ينتهبون ناراً * لها لهب وليس لها شرار
رأى الدهر اجتماع الشمل منا * فبدّده وللدهر الخيار

إلى هنا وقف القارىء على نماذج فى بكاء الديار الخالية ، والحنين إلى الوطن النائى، والشوق إلى مواطن اللهو والشراب ، فلنذكر شكوى العشاق من المنزل القريب المأهول ، حين يصبح أهله كالكواكب قريبة الضوء ، بعيدة المنال !! وحين يصبح تمنّع الحبيب أقسى من النوى ، وأمر من الفراق . وأبدع الشعر فى ذلك قول راشد بن إسحق الكوفى :

ومُستوحش لم يمس فى دار غربة * ولكنهُ ممّنْ يحب غريبُ
طواه الهوى واستشعر الوصل غيرهُ * فشطّت نواهُ والمزارُ قريبُ
سلامٌ على الدار التى لا أزورها * وإن حلها شخص الىَّ حبيبُ
وان حَجَبت عن ناظرىَّ ستورُها * هوىً تحسُن الدنيا به وتطيبُ

(١) الجلنار : زهر الرمان

هوى تضحك اللذات عند حضوره * ويسخن طرف اللهو حين يغيبُ
تثنى به الأعطاف حتى كأنه * اذا اهتزّ من تحت الثياب قضيبُ
ألم ترصمتي حين يجرى حديثهُ * وقد كنت أدعى باسمهِ فأجيبُ
رضيت بسعى الدهر بيني وبينه * وان لم يكن للعين فيه نصيبُ
أحاذر إن واصلتهُ أن ينالنى * وإياهُ سهم للفراق مصيبُ
أرى دون من أهوى عيوناً تريبنى * ولاشك أنى عندهن مُريبُ
أدارى جليسى بالتجلد فى الهوى * ولى حين أخلو زفرةٌ ونحيبُ
وأخبرُ عنه بالذى لا أحبهُ * فيضحك سنى والفؤاد كئيبُ
مخافةَ أن تغرى بنا ألسن العدا * فيطمع فينا كاشح فيعيبُ
كأنّ مجال الطرف فى كل ناظر * على حركات العاشقين رقيبُ
أرى خطرات الشوق يبكين ذا الهوى * ويصبين عقل المرء وهو لبيبُ
وكم قد أذل الحب من متمنّع * فأضحى وثوب العز منه سليبُ
وإن خضوع النفس فى طلب الهوى * لأمرٌ اذا فكرت فيه عجيبُ

وقد نقل صاحب زهر الآداب عن أبى شراعة القيسى انه كان فى مجلس العتبى مع عبد الصمد بن المعذّل ، وأنهم تذاكروا ما أبدع المولدون من الشعر الرقيق ، فقال عبد الصمد أنافى ذلك أشعر الناس ، فقال أبو شراعه أشعر منك الذى يقول :

ومستوحش لم يمس فى دار غربة * ولكنه ممن يحب غريب

الى آخر القصيدة . وأن عبد الصمد حين سمعها لم ينطق بحرف !!

وعندى أن صاحب هذه القصيدة لم يوفق فى وصف مشاعره وصفاً

منظماً يصح أن يكون «صورة شعرية» بل نراه جمع بين أشياء متنافرة حظها من الائتلاف قليل : ألا تراه يذكر فى أول القصيدة أنه قريب ، ولكنه فى قربه غريب ، لأن انساناً غيره يتمتع بذلك الحبيب ؛ ثم ألا تراه بعد ذلك يذكر أنه يحاذر الوصل طائعاً لئلا يصيبه ويصيب من يهواه سهم الفراق ؛ وهذا بالطبع شطط فى تصوير النفس المعذّبة ، لأن الذى يتصور أن محبوبه قد يطوّق بذراع عاشق غيره لا يتغنى بأنه يترك مواصلته اتقاءً لعيون الوشاه !!

ينقص هذه القصيدة اذن ماأسميه « الصورة الشعرية » ولا يمنع هذا أن تكون فى جملتها جميلة لماتحويه من الأبيات المختارة . ولئن صح أن العتبى صادق على أن صاحبها أشعر الناس فانا نشك فى أذواق الأدباء الأقدمين ونرتاب فى حاستهم الفنية . وأحب أن يفهم بعض الناس معنى « الحاسة الفنية » فان كثيراً من أدعياء الأدب لا يفقهون ما يقولون وما يكتبون ، فضلا عن أن يفقهوا ما تناثر على بساط الدهر من ثمرات العقول !!

وأمثال هؤلاء يعرفون فقط ما يُسمع أو يرى أو يلمس أو يشم أو يذاق !! ولكنهم لا يعرفون ما يدرك ، إذ لم يرزقوا الادراك !! ومحال أن يجدوا طعماً لقول الشاعر :

أسمع فى قلبى دبيب المنى * وألمس الشبهة فى خاطرى

لأنهم لا يدرون أين تكون الخواطر . وأين تكون القلوب !! من أجل هذا أشير على طالب الأدب بأن يتروى ويتريث حين يقرأ آثار

الكتاب والشعراء ، وأن لا يعتمد فى اختياره على الأذواق العامة لعلماء البيان : فقد غفل الدهر عن كثير من المتصدرين فظنوا أنهم على شىء ، وأن الأدب لحياتهم مدين ! !

وقد يمر العاشق ببيت من يهوى ثم لا يملك التحية ، لأن الوشاة له بالمرصاد . . فمن ذلك قول السرى الرفاء :

مررنا بالعقيق فكم عقيقٍ * ترقرق فى محاجرنا فذابا

ومن مغنًى جعلنا الشوق فيه * سؤالاً والدموع له جوابا

وفى الكِلَل التى غابت شموسٌ * اذا شهدت ظلام الليل غابا

حملت لهنَّ أعباء التصابى * ولم أحمل من السلوان عابا

ولو بعدت قبابك قاب قوسٍ * من الواشين حييتُ القبابا

الى هنا عرف القارىء ألوان العواطف عند منازل الأحباب ، فقد رأى نفثات المحبين عند الديار الخالية ، وشهد بكاءهم على الوطن النائى ، وحنينهم الى مواطن اللهو والشراب ، ثم رأى زفراتهم عند المنزل يدنو وهو بعيد ، لنفور ما فيه من الظباء ! ! ويجمع شتيت هذه المعانى قول بعض الأعراب :

بكل تداوَينا فلم يُشفَ ما بنا * على أن قرب الدار خير من البعدِ

على أن قرب الدار ليس بنافع * اذا كان من تهواه ليس بذى عهدِ

وربما عدنا الى تفصيل هذه النوازع القلبية ، حين نتحدث عن آراء الشعراء فى أفنان الجمال

وشاية الدموع

من العشاق من يؤثر الكتمان : فهو يخشى أن تفضحه الدموع !
وأشهر الشعراء فى إخفاء الحب العباس بن الأحنف ، وسنبسط الكلام عن مذهبه حين نتكلم عن الكتمان . ونكتفى الآن بشعره عن قهره بالدموع : وقد رأيته يتوجع حيناً من عجزه عن كتم الحب وقد غلبه الدمع ، فيقول :

هبونى أغضُّ إذا ما بدت * وأملك طرفى فلا أنظرُ
فكيف اُستتارى إذا ما الدمو * ع نطقن فبُحْنَ بما أُضمرُ
أمنىِّ تخاف انتشار الحديث * وحظىَ فى صونهِ أوفرُ
ولو لم يكن فىَّ بُقيا عليك * نظرت لنفسى كما تنظرُ

ويغضب حيناً على دمع عينيه فيقول :

لا جزى الله دمع عينىَّ خيراً * وجزى الله كل خير لسانى
نمَّ دمعى فليس يكتم شيئاً * ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طىٌّ * فاستدلُّوا عليه بالعنوانِ

ويبالغ فى هذا المعنى حتى ليرمى قلبه بالعداوة ، فيقول :

قلبى الى ما ضرَّنى داعى * يكثر أسقامى وأوجاعى
كيف اُحتراسى من عدوى اذا * كان عدوِّى بين أضلاعى

ومن الشعراء من ييأس من كتم الهوى حين تنهمر الدموع ، كما يقول البحترى :

علاقة حبٍّ كنت أكتم بثّها * إلى أن أذاعتها الدموع الهوامع
اذا العين راحت وهي عينٌ على الجوى * فليس بسرٍّ ماتُسرُّ الأضالع

وقد أفصح الأرجانى عن غاية ذلك :وهى نصر الوشاة ، بقوله :

ولى نَفَسٌ إذ ما امتدّ شوقاً * أطار القلب من حُرَق شظايا
ودمعٌ ينصر الوشين ظلماً * ويُظهر من سرائرىَ الخبايا

وأكرم من هؤلاء جميعاً الشريف الرضى حين يقول :

أيسمح جفنى بالدموع وأغتدى * ضنيناً بها انى إذن للئيمُ
ولو بخلتْ عينى اذن لعتبتها * فكيف ودمع الناظرين كريم

وقد نظر أبو نُواس الى قول بشّار بن بُرْد :

يُرَوِّعهُ السِّرار بكل شيءٍ * مخافةَ أن يكونَ به السِّرارُ

ثم حاكاه بهذه الأبيات فى نميمة الدمع :

قدتستّرتُ بالسكوت وبالإطــــراق جُهدى فنمّتِ العينانِ
تركتنى الدموع نُصبَ المشيريــــنَ وأُحدوثةً بكل مكانِ
ماأرى خاليَيْن للسر إلاّ * قلت مايخلوان إلا بشانى

وهى صورة شعرية ، تمثّل العاشق المروّع أصدق تمثيل

ومن المحبين من تنمّ عليه دموعه الغِزار ، وأنفاسه الحِرَار ، كالبحترى حين يقول :

إنّ الخطوب طَوَيْننى ونشرْننى * عبَثَ الوليد بجانب القرطاسِ
ماشبتُ من طولِ السنين وإنما * طول الملامةِ فيك شيَّبَ راسى
نمّت على مافى ضميرى أدمعى * وتتابعُ الصُّعَداء من أنفاسى

ومن رائع الشعر فى فضيحة الدمع لصاحبه قول مهيار :

طرحتُ بجمعٍ نظرةً ساء كسبُها * وتبعث شرًّا للعيون المطارحُ
فان سترتْ تلك الثلاثُ على منًى * هوايَ فيومُ النَّفْرِ لا شكَّ فاضحُ
بكيتُ ولامَ العاذلاتُ فلم تغضْ * على رُقْيةِ العذلِ الدموعُ السوافحُ

وأحب أن يتأمل القارئ قوله «نظرت بجمعٍ نظرةً ساءَ كسبها» ليعرف كيف يسوء كسبُ العيون ، حين تجنى على القلوب !

سلطان الحب

سألَنَا حضرة الشيخ محمد على الخالدى عن الحب : أختيارى هو أم اضطرارى ؟ وهل المحب مضطر أم مختار ؟ وقد اختلف الناس من قبل فى هذه المسألة ، وأوضحها ابن أبى حجلة فى كتاب « ديوان الصبابة » وأنا ناقلٌ هنا نبذة من ذلك الكتاب الذى انتهى منه مؤلفه فى منتصف القرن الثامن الهجرى ، لأنه يمثل لنا رأى علماء ذلك العصر فى مثل هذه الشئون . قال ابن أبى حجلة فى سذاجة غريبة مانصه :

« هذا فصل عقدناه لما تقدم ذكره . وأسفر كالصباح أمره . اذ للناس فيه كلام من الطرفَيْن ، وتبختر من الصفّين . فقائل بأنه اضطرارى . وقائل بأنه اختيارى . ولكل من القولين وجه مليح . وقدّ رجيح . ونحن نذكر من ذلك مايعم به الانتفاع . ونتكلم فى طوله وعرضه بالباع والذراع (١١) فمن ذلك ما قاله القاضى أبو عمرو النونانى فى كتابه تحفة الظراف : العشاق معذورون على كل حال . مغفور لهم فى جميع الأقوال

والأفعال . إذ العشق إنما دعاهم على غير اختيار . بل اعتراهم على جبر واضطرار . والمرء إنما يلام على مايستطيع من الأمور . لافى المقضىّ عليه والمقدور . وقد جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الحامل كانت ترى يوسف عليه السلام فتضع حملها . فكيف تراها وضعته؟ أباختيار منها كان ذلك أم باضطرار ؟ لا . بل باضطرار ، وفقد اقتدار . وهذا مما لايشك فيه ذولب . ولايختلج خلافه فى قلب »

ثم نقل عن الفضيل بن عياض أنه قال : لو رزقنى الله دعوة مجابة لدعوت الله بها أن يغفر للعشاق لأن حركاتهم اضطرارية . ونقل عن أبي محمد بن حزم أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : ياأمير المؤمنين إنى رأيت امرأة فعشقتها . فقال عمر : ذلك مما لا يُملك . قال « وما أحسن قول بعض بنى عُذرة وقد قال له بعض العرب:مالأحدكم يموت عشقا فى هوى امرأة يألفها ؟ إنما ذلك ضعف نفس ، ورقّة ، وخَوَر ، تجدونه فيكم يابنى عُذرة . فقال : أماوالله لورأيتم الحواجب الزُّج ، فوق النواظر الدُّعج ، تحتها المباسم الفُلْج ،لاتخذتموها اللات والعزى ! »

ثم قال بعد كلام طويل « إن العشق يختلف باختلاف بنى آدم وما جُبلوا عليه من اللطافة ورقة الحاشية ، وغلظ الكبد ، وقساوة القلب ، ونفور الطباع ، وغير ذلك . فنهم من إذا رأى الصورة الحسنة مات من شدة مايرد على قلبه من الدهَش . ومنهم من اذا رأى المليح سقط من قامته ، ولم يَعرف نعلَه من عمامته » — العاقبة عندكم ياشيخ محمد ! — ثم قال «فهذا وأمثاله عشقه اضطرارى ؛ والمخالفة فيه مكابرة فى المحسوس»

والذى أراه أن المحب مضطر غير مختار، وما ذكرت هذه التفاصيل الاّ ترويحاً للنفس . أما الشعر فى سلطان الحب فكثير . فمن الشعراء من يجعله سحراً ، كالطغرائى حين يقول

إن لم يكن سحراً هواكِ فانهُ * والسحر قُدًّا من أديم واحدِ
مازلت أزهد فى مودة راغب * حتى ابتُليتُ برغبةٍ فى زاهدِ
ولربما نال المراد مُرَفَّهٌ * لم يَسعَ فيه وخاب سعى الجاهدِ
هـذا هو الداء الذى ضاقت بهِ * حِيَل الطبيب وطال يأس العائدِ

ومنهم من يذكر أنه قتل نفسه غير متعمد ، كقول مهيار :

وعنّفنى سعد على فرط ما أرى * فقلت أتعنيفٌ ولم تك مُسْعِدى
وما ذاك إلاّ أن عَجِلتُ بنظرةٍ * قتلتُ بها نفسى ولم أتعمَّدِ

ومنهم من يرى الحب يصبُّ على القلب كالقضاء المحتوم لا مردَّ له . كقول المتنبى :

أيدرى الربع أىّ دم أراقا * وأى قلوب هذا الركب شاقا
لنا ولأهله أبداً قلوبٌ * تَلاقى فى جسوم ما تلاقى
فليت هوى الأحبة كان عدلاً * فحمَّل كلَّ قلبٍ ما أطاقا

ومنهم من يجعله قضاءً من الله . كقول عمرو بن ربيعة الرقاشى :

تضيق جفون العين عن عَبراتها * فتسفحها بعد التجلُّد والصبرِ
وغُصّة صدر أظهرتْها فرفّهت * حزازة حرٍّ فى الجوانح والصدرِ
ألا لِيقلْ من شاء ماشاء إنمـا * يُلامُ الفتى فيما استطاع من الأمرِ
قضى الله حب المالكية فاصطبر * عليه فقد تجرى الأمور على قَدْرِ

ويدخل فى هذا الباب خلود الحب . فمن الشعراء من يجعل سببه خلود المحاسن فى الحبيب ، كقول ابن الرومى :

هـل الملالةُ إلا مُنقضى وطر * من مُتْعَةٍ يُقَضِّى من غيرها وطرُ
وفيك أحسنُ ماتسمو النفوس له * فأين يرغب عنك السمع والبصرُ

وكما قال ابن عُنَين :

خـبَّروها بأنهُ ما تصدّى * لسلوٍّ عنها ولو مات صدّا
واسألوها فى زَوْرةٍ من خيالٍ * إن تكن لم تجد من الهجر بُدّا
ظبيةٌ تخجل الغزالة وجهاً * وبهاءً وتفضح الغصن قدّا

وكما قال أبو الأسود الدؤلى :

أبى القلب إلا أمَّ عمرٍو وحبها * عجوزاً ومن يُحبب عجوزاً يفنّدِ
كبُرْد اليمانى قد تقادم عهدهُ * ورُقعته ماشئتَ فى العيز واليدِ

وهو رأى منتقد : فكل زهر الى ذبول ، وكل جمر الى خمود ، وكل حسن الى فناء ، ولا خلود للحب اذا كان داعيه الحسن الفانى والجمال الزائل

ومنهم من يجعل السبب فى خلود الحب كثرة دواعيه ، كقول صرّدر :

ولقد عرضت على السلو جوانحى الـــــسحرّى فلم يرهنّ دارَ مُقام
كيف السلوُّ وليس يسلك مسمعى * إلا حنين أو بكاء حمامِ

وكما قال ابن الزيات :

لم يزدنى العذل إلا ولعا * ضرنى أكثر مما نفعا

ذهبت بالقلب عين نظرت * ليتها كانت وإياهُ معا
كلَّ يوم لىَ منها آفةٌ * تركتنى للهوى متّبِعا

وكما قال ابن التعاويذى :

يلوم عليك خالٍ من غرامى * رويدك أين سمعى والملامُ
سلوٌّ مثل عطفك لا يرجّى * وصبر مثل وصلك لا يرامُ
فكيف أطيع عذالى وعندى * هموم قد سهرت لها وناموا

وهذا أيضاً منتقد ، فان أمثال هؤلاء الشعراء ينسون الحب اذا نفدت دواعيه ! !

ومنهم من يجعل السبب فى خلود الحب تغلغل الوجد فى الأحشاء .

كما قال الابيوردى :

أرى كل حب غير حبك زائلاً * وكل فؤادٍ غير قلبىَ ساليا
اذا استخبر الواشون عما أسرُّهُ * حمدت سلوِّى أو ذممت التصابيا
أيذهل قلب أنت سرُّ ضميرهِ * فلا كان يوما عنك يا علْوَ ساليا

وكما قال الغزى :

يا خليلىَّ لو ملكت فؤادى * جاز أن يملك الصواب عنانى
ظالمى من أراد إنصافَ نفسى * من هواها وآمرى من نهانى
قد تورّطت فى تعسُّف شوقى * حيث لا يعرف السلوُّ مكانى

وكما قال الطغرائى :

خليلىّ هل من مُسعدٍ أو معالجٍ * فؤاداً به داء من الحب ناكسُ
وهل ترجُوانِ البرءَ مما أكنهُ * فانى وبيت الله منه لآيسُ

هوًى لا يُديل القرب منه ولا النوى * ولا هو من طول التقادُم دارسُ
سرى حيث لا يدرى الضمير مكانهُ * ولا تهتدى يوماً اليه الهواجسُ
اذا قلت هذا يوم أسلو تراجعت * عقابيل من أسقامه ووساوس

وأرجو أن لا يغفل القارئ عما فى هذا الشعر من فنون الجمال

وهناك مذهب رابع يجعل خلود الحب مواتاةً للطبع ، ونزولاً عند حكم الخليقة ، وهو أجمل المذاهب . ومنه قول ابن التعاويذى :

من بات ذا قلب سـ ـليم من جوًى فأنا السليمُ (١)
مالى اذا رمت السلوّ * تلوّم القلب المليم (٢)
واذا كتمت الحب با * حَ بسره دمعٌ نمومُ
عينى وقلبى فى الهوى * عونٌ علىّ فمن ألومُ

وأظهر منه قول المتنبي :

إلامَ طماعيةُ العاذلِ * ولا رأى فى الحب للعاقلِ
يراد من القلب نسيانكم * وتأبى الطباع على الناقلِ
وهبت السلوّ لمن لامنى * وبت من الشوق فى شاغلِ

ولا أنكر أن من الشعراء من يرى غير ما ذهبت اليه فى هذا الحديث . ولكنى أرى الحب الصادق حليف الخلود . وقد أوضحت هذه المسألة فى كتاب « حب ابن أبي ربيعة وشعره » فليرجع إليه من شاء

(١) السليم هو الملدوغ (٢) المليم : الجانى

غرام النساء بالنساء

سألنى حضرة محمد شهيب عبد الناصر بديروط « عما قالته الغوانى فى غرامها وحنينها إلى بنات جنسها إن كان هناك شئ من ذلك » بمناسبة ماحدث فى برلين من غرام المسز كلين بالمسز ريب ، وما جنت يداهما فى سبيل هذا الحب الغريب !!

وآسف كثيراً أيها الاديب لاستحالة الجواب بالتفصيل فى صحيفة سيارة : فقد دَرَجَ الناس هنا على تفضيل الجهل فى سبيل الوقار ! ويكفى أن ألفت نظرك إلى حديث مسطور فى كتب الأدب جاءت فيه هذه العبارة « هذا شئ يحتاج إلى حبال ورجال ! » وإلى ذوقك يترك تقدير الظروف لأمثال هذه الوقائع !! وقد جاء فى كلام رسول الله النهى عن « السِّحاق » كما جاء فى القرآن النهى عن الزنا !! والفرق واضح بين الكلمتين فى اللفظ والمدلول !! والمطلع على آداب الفرنسويين يجد فى اعترافات النساء عجائب وغرائب تعجز عن مثلها الشياطين !! والآداب العربية مملوءة بأمثال هذه الأعاجيب . والناس هم الناس فى كل قطر وفى كل جيل ، فلا تصدق ماتسمع من أنّ الإسراف فى المجانة بدعة ابتدعها نساء برلين !! وعندى أن آفة المصلحين فى الشرق هى جهلهم بدقائق الحياة الإنسانية ، وإغفالهم الركن الأساسى للاصلاح ، وهو تشخيص الداء قبل وصف الدواء ، وإقدام كثير منهم على الأمر بما لا يأتمر به

والنهى عمّا لاينتهى عنه ، ومن البلية أن يكون المصلحون منافقين !!

ألم نصف الآداب الغربية بالإسراف فى وصف النساء ؟ لقد جعلنا ذلك سيئة لاتقبل الغفران ، ولكنها فى رأيى من الحسنات ، إذ كان الواجب على كل مصلح أن يقوّى ما بين الرجل والمرأة من الميول الطبيعية ، حتى لانشكو غرام المرأة بالمرأة ، وحب الرجال للغلمان ! !

اقرءوا هذا وتأملوه قبل أن تصدّعوا رءوسنا بالدعوة الى الفضيلة من حيث لاتعلمون !!

وبعد ذلك ألفت نظر قراء « مدامع العشاق » إلى أن شعر النساء فى الحب قليل : فقد كان العرب يستنكرون أن تعشق المرأة ، وكان الرجل منهم يذوب خجلا إذا قالت إحدى قريباته بيتاً واحداً فى غلام جميل ، وقد ثأر طويس المغنى لنفسه من عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين غناه شعر عمته فارعة بنت ثابت فى عبد الرحمن بن الحرث المخزومى

ياخليلى نابنى سُهُدى * لم تنم عينى ولم تكدِ
فشرابى ما أسيغ وما * أشتكى مابى إلى أحدِ
كيف تلحونى على رجلٍ * آنسٍ تلتذه كبدى
مثل ضوء البدر طلعتهُ * ليس بالزُّمَّيلة النكدِ
نظرت عينى فلا نظرت * بعدهُ عينى إلى أحدِ

وحديث عُليّة بنت المهدى معروف ، فقد حرّم عليها أخوها هارون الرشيد أن تشبّب بغلامها طل ، فكان من نتيجة ذلك أن تشببت بجاريتها زينب وقالت فيها

وجد الفؤاد بزينبا * وجداً شديداً مُتعباً

وهو شعر سخيف ، ولكنه يدل على أن عشق المرأة كان مما تسيغه النفوس فى ذلك العهد . وليس معنى ذلك أننا ننكر أن زينب هنا كناية عن طلّ ، ولكن معناه أن تشبيب علية بزينب كان حيلة سائغة لستر هواها الصحيح ، ولم نر فى الكتب الأدبية من أنكر على علية هذا الميل الذى أنكرناه اليوم على نساء الألمان !! وهنالك أبيات لفضل الشاعرة قالتها فى « قبيحة » جارية المتوكل :

سلافةٌ كالقمر الباهرِ * فى قدَح كالكوكب الزاهرِ

يُديرها خشفٌ كبدر الدجى * فوق قضيب أهيفٍ ناضرِ [1]

ولا مِرية فى أن العرب قتلوا عواطف المرأة ، وحرموها من التشبيب ، ولهم فى ذلك عذر مقبول ، فان الغيرة لم توجد ، ولن توجد ، فى مثل النفوس العربية ، والعرب بطبيعتهم عمالقة يكرهون الشريك ، أو شبه الشريك . ويأبون أن يسمعوا حديث المرأة عن هواها المشبوب ، بل يغارون من تحدُّث الرجل عن هواه ، حتى ليقول شاعرهم

لم ألق ذا شجنٍ يبوح بحبهِ * إلا حسبتك ذلك المحبوبا

حذراً عليك وإننى بك واثق * أن لا ينال سواىَ منك نصيبا

واذا عزّ على المرأة أن تقول شعراً فى الرجل ، فانه يعزُّ عليها من باب أولى أن تقول شعراً فى أختها المرأة ، فضلا عن بعد ذلك من الحاجة الطبيعية ، فان « هذه الشهوة » تعتبر فضولاً فى باب الشهوات ! !

(١) الخشف بتثليث الخاء ولد الظبى

والحق أننا حرمنا خيراً كثيراً حين حُرِمنا شعر النساء ، انظر الى قول فضل فى حبيب حرمها طيب الرقاد :

إنّ من يملك رِقى * مالك رِقّ الرقاب
لم يكن يا أحسن العا * لَم هذا فى حسابى

وتأمل ماغنته عبيدة الطنبورية

كن لى شفيعاً اليكا * ان خفّ ذاك عليكا
وأعفنى من سؤالى * سواك ما فى يديكا
يامن أُعز وأهوى * مالى أهون لديكا

اننا نشتهى أن تتكلم المرأة ! إننا نحب أن نسمع حديثها العذب الجميل ! ولكنهم يزعمون أن كلام المرأة فسق ، وأن حديثها فجور ، فياليت شعرى متى يفقهون !

طيف الخيال

من الشعراء من يصف الحسرة التى تُودى برشده حين تحرمه اليقظة من الاستمتاع بالطيف ، كالذى يقول :

وزارنى طيف من أهوى على حذَر * من الوُشاةِ وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أُوقظ من حولى به فرحاً * وكاد يهتك سِتْر الحب بى شغفا
ثم انتبهتُ وآمالى تكذّبنى * نَيْل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

ومنهم من يذكر العلة فى طروق الطيف ، والسبب فى زيارة الخيال ، كقول أبى تمام :

زار الخيال لها لا بل أَزارَكَهُ * فكرٌ إذا نام فكر الخلق لم ينمِ

ظبيٌ تقنّصته لما نصبت له * في آخر الليل أشراكاً من الحلُمِ

وقوله من كلمة ثانية :

استزارته فكرتي في المنامِ * فأتانا في خِفْيةٍ واكتتامِ

يا لها ليلةً تنزّهت الأر * واح فيها سِرّاً من الأجسامِ

مجلسٌ لم يكن لنا فيه عيبٌ * غير أنّا في دعوة الأحلامِ

وكقول عبد الصمد بن المعذّل :

وَصَلَ النوم بيننا بعد هجرٍ * فاجتمعنا ونحن مُفترقانِ

غير أنّ الأرواح خافت رقيباً * فطوت سرّها عن الأبدانِ

منظرٌ كان لذّة القلب إلاّ * أنّهُ منظرٌ بغير عِيانِ

فالعلة عند أبي تمام في طروق الخيال إنما هي احتيال فكره، ونصبه أشراكا من الحلُم. والسبب في زيارة الطيف عند ابن المعذل هو النوم، مع إبداعه في طيّ الأرواح سرها عن الأبدان، خوفاً من الرقباء !

وهنالك فكرة لابن العفيف ألطف من هاتين وأطرف : وهي أن الحبيب سطع نوره وعمّ، حتى شمل النائمين، وتجلّى لأعينهم، على بعدهم منه، ونأيهم عنه. وله في هذه الفكرة البديعة هاته الأبيات الحسان :

ياحبذا طيفك من قادمِ * يا أحسن العالَم في العالَمِ

طيفٌ تجلّى نورُه ساطعاً * حتى رأته مقلة النائمِ

يا غائباً يحكم في مهجتي * عليَّ طالتْ غيبة الحاكمِ

عارٌ على حسنك أن يشتكي * حظّيَ منهُ أنه ظالمي

والبحتري على شهرته بالخيال، لم يكن ممن يُعنون بذكر السبب

في قدومه ، والعلة في طروقه ، وإنما يجيد في وصف انعطافه ، وانصرافه ، كقوله :

سقى الغيثُ أجراعاً عهدت بجوّها * غزالا تراعيه الجآذرُ أغيدا

اذا ما الكرى أهدى الىّ خيالهُ * شفى قربه التبريح أو نقع الصدى

اذا انتزعتْهُ من يدىَّ انتباهةٌ * عددتُ حبيباً راح منىَ أو غدا

فلم أرَ مثلَيْنا ولا مثل شأننا * نُعذَّبُ أيقاظاً وننعَمُ هُجَّدا

ومن بديع الشعر فى ذهاب الخيال قوله :

ألمّت بنا بعد الهدوء فسامحت * بوصل متى نطلبه فى الجدّ تمنعِ

وولّت كأنّ البين يخلج شخصها * أوان تولت من حشاىَ وأضلعى

وهو غاية فى الإبانة عن اللهفة ، والإفصاح عن الحسرة !!

ومن الشعراء من يحمد للطيف سماحه بالنعيم المباح ، كقول بشار :

ولقد تعرّض لى خيالكمُ * فى القُرطوا لخلخال والقُلْبِ

فشربت غير مباشر حرجاً * برضاب أشنبَ باردٍ عذبِ

وكقول المتنبي فيما يقرب من هذا المعنى :

بتنا يناولنا المدام بكفهِ * من ليس يخطر أن نراهُ بباله

تُجنَى الكواكب من قلائد جيدهِ * وتُنال عين الشمس من خَلْخاله

وقد نص البحترى على ما ذكرناه من النعيم المباح بقوله :

ومانلتقى إلا على حلُم هاجدٍ * يحلُّ لنا جدْواك وهى حرام

إذا ما تبادَلنا النفائس خِلْتَنا * من الجدّ أيقاظاً ونحن نيامُ

وألمَّ به فى قوله :

بنفسى خيالاً من أثيلة كلما * تأوهتُ من وجدى تعرّض يُطمعُ
ترى مقلتى مالا ترى من لقائهِ * وتسمع أذنى رجْع ما ليس تسمعُ

خيال البحترى

وقد يكون من الوفاء لتاريخ الآداب أن نذكر كيف اُشتهر البحترى بالخيال حتى قالوا (خيال البحترى) وضربوا به الأمثال . وقد تأملت هذه الشهرة فوجدتها ترجع الى ترديده لزيارة الطيف فى غير ضعف ولا فضول : فتارة يصف الخيال بالكرم وقد ضن المحبوب ، والقرب وقد شطّت ديار الحبائب ، حتى ليبعث الهوى من جديد ، كقوله :

وقفنا فلا الأطلالُ ردّت اجابةً * ولا العذل أجدى فى المشوق المخاطِبِ
تمادَت عقابيلُ الهوى وتطاولت * لجاَجةُ معتوبٍ عليه وعاتبِ
إذا قلتُ قضّيتُ الصبابة ردّها * خيالٌ ملمٌّ من حبيب مُجانبِ
يجود وقد ضنّ الأُلى شغفى بهم * ويدنو وقد شطت ديار الحبائب

وتارة يذكر أن الطيف ألمّ به فى الظلام فلم يجد مكاناً يأوى اليـه ، لأن الكرى طردته الدموع ، كقوله :

تلك البخيلة ماوصلى بمنصرفٍ * عنها ولا صدُّها عنى بمصدودِ
ألمَّ بى طيفها وهناً فأعوزهُ * عندى وجود كرىً بالدمع مطرودِ

وأُحب لو تأمل القارئ وصفه لحبيبته بالبخل ، وعفا الله عن هؤلاء البخلاء ! ! ومما امتاز به البحترى شكواه هجر الخيال . وقد أكثر

من ذلك حين حُرم من غلامه نسيم ، ولغلامه هذا قصة عجيبة : فقد ذكروا أنه كان يبيعه ، ثم تطير نفسه اليه فيشتريه ، حتى وقع فى يد من لايبيع روائع الجمال ! ! وقد أوضح شكواه هجر الخيال فى هـذه الأبيات الحسان :

أنسيمُ هل للدهر وعدٌ صادقٌ * فيما يؤمِّلُهُ المحبُّ الوامقُ
مالى فقدتك فى المنام ولم يزل * عونَ المشوق إذا جفاهُ الشّائقُ
أَأُمنِعتَ أنت من الزيارة رِقبةً * منهم فهل مُنع الخيالُ الطارقُ
اليومَ جازَ بِىَ الهوى مقدَارهُ * فى أهلهِ وعلمت أَنِّىَ عاشقُ

ثم ردّد هذا المعنى فى داليته الجميلة ، التى يقول فيها :

دعا عبرتى تجرى على الجور والقصدِ * أظنّ نسيماً قارف الهجرَ من بعدى
خلا ناظري من طيفه بعد شخصهِ * فياعجباً للدهر فقداً على فقدِ
بنفسى حبيبٌ نقَّلوه عن اَسمهِ * فبات غريباً فى رَجاءَ وفى سعدِ
فيا حائلا عن ذلك الإِسم لاتحُلْ * وإن جهد الأعداء عن ذلك العهد
أباالفضل فى تسع وتسعين نعجةً * غنىً لك عن ظبى بساحتنا فَرْد
أتأخذُهُ منى وقد أخذ الجوي * مآخذهُ ممّا أُسرّ وما أبدى
ونخطو اليـه صبوتى وصبابتى * ولم يَخْطه بى ولم يعده وجدى

ونحب أن لا يتعقبنا حضرة (البدوى الملثم) فيطالبنا بتحقيق بيع البحترى لغلامه نسيم ، ليعرف أكان ذلك عن حاجـة أم كان طمعاً فى المـال ، فقد تردّد فى ذلك المؤرخون ! ! أليس هو الذي لمّح الينا حين ذكرنا أن عُلَية بنت المهدى كَنَت عن طلّ بزينب ، ولفت نظرنا الى

أنها انما كنت بزينب عن رشأ ؛ رويدك أيها الصديق ، فليس فى هذه المجاهل يقين ، وحسبك أن تعلم أن ذلك سر من أسرار القصور ، وناهيك بقصر الرشيد !

وبهذه المناسبة أذكر أن التعبير الحديث « شربوا نخب مصر ! وشربوا نخب فرنسا » كان له عند العرب بديل جميل ، انظر قول علية فى غلامها رشأ :

اشربْ على وجه الغزالْ * الأهيفِ الحلوِ الدّلالْ
اشربْ عليهِ وقل لهُ * ياغُلّ ألباب الرجال

وانظر قول اسحق فى غلامه زياد :

أدِرْها على بُعد الحبيب فربما * شربنا على بُعدِ الأحبةِ والفجْعِ
فما بلغتنى الكأس إلا شربتها * وإلا سقيت الأرض كأسا من الدمع

وقال ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مُدامةً * سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرْم

فأى التعبيرين أجمل ؟ أقول العرب : شربت على وجهه ، وعلىُ بُعده ، وعلى ذكره ؟ أم قولنا شربت نخبه ؟ أجيبوا أيها المتكلفون ! !

ونعود فنذكر تشبث البحتري بالطيف عند الصباح فى قوله .

وليلةَ هوَّمنا على العيس أرسلتْ * بطيف خيالٍ يشبه الحق باطلهْ
فلولا بياضُ الصبح طال تشبّثى * بعِطفَىْ غزالٍ بتُّ وهنًا أُغازلُهْ
وكم من يدٍ لليل عندى حميدةٍ * وللصبح من خطب تُذمّ غوائلُهْ

أتذكر أيها القارئ أن لسانك انعقد، وقد رأيت دُمْية من دُمى الجمال، فلم تزد على أن قلت : هذه فتاة حسناء؟ الأمر هنا كذلك، فاعذرنى إن لم أزد على أن أقول : هذا شعر جميل !

ويظرُف البحترى كثيراً حين يجعل هجر الطيف نوعاً من العتاب. انظر قوله :

تناءَتْ دارُ عَلْوةَ بعد قربٍ * فهل ركبٌ يبلغها السلاما
وجدَّدَ طيفها عتباً علينا * فما يعتادُنَا إلا لِماما
وربَّتَ ليلةٍ قد بتُّ أُسقى * بعينيْها وكفَّيْها المُداما
قطعنا الليل لثماً واعتناقاً * وأفنيناهُ ضمًّا والتزاما

وقد تعجب لتشبيهه الزائر النحيل بالطيف الطروق : انظر قوله :

وزَوْرٍ أتانى طارقاً فحسبتهُ * خيالاً أتى من آخر الليل يطرقُ
أقسِّمُ فيه الظنَّ طوراً مكذِّباً * به أنهُ حقٌّ وطوراً أُصدِّقُ
أَخافُ وأرجو بُطلَ ظنى وصدقَهُ * فلله ظنى حين أرجو وأفرَقُ
وقد ضمنًا وشْكُ التلاقى ولفَّنا * عناقُ على أعناقنا ثَمَّ ضيِّقُ
فلم نَرَ إلا مخبراً عن صبابةٍ * بشكوى وإلاّ عبرةً تترقرقُ
فأحسنْ بنا والدمع بالدمع واشجٌ * تمازُجُه والخد بالخد ملصقُ
ومن قُبَلٍ قبل التشاكى وبعدهُ * نكاد بها من شدة الوجد نشرقُ
فلو فهم الناس التلاقى وحسنهُ * لحبِّب من أجل التلاقى التفرق

وقد يأسى البحترى ويشجى حين لا تبقى له الليالى غير الذكرى والخيال، تأمل قوله :

حبيبٌ نأى الاَّ تعرّض ذِكْرةٍ * لهُ أو ملمٌّ طائفٌ من خيالهِ
أَأُمنَع فى هجرانهِ من صبابةٍ * وقد كنت صباً مغرماً فى وصالهِ
ويأمرنى بالصبر من ليس وجدهُ * كوجدى ولا إعلان حالى كحالهِ
فان أفقدِ العيش الذى فات باللوى * فقِدماً فقدت الظل عنـد انتقالهِ

ولقـد أذكر أنى قرأت منذ سنين رواية (رافاييل) وهى بدعة فى الآداب الفرنسوية. فأقسمت لأزورنّ إنِ استطعت قبر (لامارتين) واليوم أقسم إنِ استطعت لأزورن قبر البحترى !

أليس هو القائل فى طيف الخيال :

أترى حبى لسعدى قاتلى * واذا ما أفرط الحب قتـل
خطرتْ فى النوم منها خطرةٌ * خطرةَ البدر بدا ثم اضمحلّ
أىُّ زَوْر لك لو قصداً أسرى * وملمّ منك لو حقاً فعـل
يتراءى والـكرى فى مقلتى * فاذا فارقها النوم بطل

ولتقى الدين السروجى قصيدة بديعة ختمها ببيتين فى الخيال ، وقد زاره فما حققه لفرط سروره به ، ثم ولّى عنه فما درى كيف يدركه ، ولا عرف كيف يلحقه . قال :

أنعمْ بوصلك لى فهذا وقتـهُ * يكفى من الهجران ما قد ذقتـهُ
أنفقت عمرى فى هواك وليتنى * أُعطى وُصولاً بالذى أنفقتهُ
يامن شُغِلتُ بحبهِ عن غيرهِ * وسلوت كل الناس حين عشقتهُ
كم جال فى ميدان حبك فارسٌ * بالصدق فيك إلى رضاك سبقتهُ
أنت الذى جمع المحاسن وجههُ * لـكنْ عليـه تصبّرى فرقتـهُ

قال الوشاة قد ادّعى بك نسبةً * فسررتُ لما قلتَ قد صدقتهُ
بالله إن سألوك عنى قل لهم * عبدى وملك يدى وما أعتقتهُ
أو قيل مشتاقٌ اليك فقل لهم * أدرى بذا وأنا الذى شوّقتهُ
ياحسنَ طيف من خيالك زارنى * من فرحتى بلقاك ما حققتهُ
فمضى وفى قلبى عليه حسرةٌ * لو كان يمكننى الرقاد لحقتهُ

والشعراء يشكون غالباً ألاّ يمكث الطيف طويلا . وقد شذّ الطغرائى فذكر أن محبوبته عتبت عليه لغيبة الطيف عنده، وطول مكثه لديه . وذلك قوله :

بعثت إلىّ تلومنى فى هَجْعةٍ * أهدت إلىّ خيالها المذعورا
وتقول ما للطيف أبطأ بعد ما * كنا اشترطنا أن يقيم يسيرا
فأجبتها بالعذر وهو مبيّنٌ * لو كان يُنصف لائمٌ معذورا
أطبقت أجفانى عليه وسُمْته * خوض الدموع فما استطاع عبورا

وهذا الخيال على طرافته منتقد . فان الطيف لا يدخل العين، حتى يضطر إلى عبور الدمع، وهدى الله قوماً يحسبون هذا الشعر من وثبات الخيال!

قالوا : وأول من طرد الطيف طرفة ابن العبد فى قوله :

فقل لخيال العامرية ينقلبْ * اليها فأنى واصلٌ حبلَ من وصل

وتبعه جرير فقال :

طرَقتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعى بسلام

وهذا حدس وتخمين، فانه ليس الى توقيت النوازع القلبية من سبيل .

ومن طريف الشعر فى طرد الخيال قول ابن هانىء الأندلسى :

ألا طرقتنا والنجوم ركودُ * وفى الحىّ أيقاظٌ ونحن هُجودُ
وقد أعجل الفجر الملمّع خطوها * وفى أُخريات الليل منه عمودُ
سرت عاطلاً غضبى من الدر وحده * فلم يدر نحرٌ ما دهاهُ وجيدُ
فما برحت إلا ومن سلك أدمعى * قلائد فى لبّاتها وعقود
ألم يأتها أنا كبِرنا عن الصبا * وأنا بَلينا والزمان جديدُ

ومن الشعراء من يعتذر عن النوم فى بعد الحبيب باحتياله لزيارة الخيال . انظر قول على الايادى :

أما انه لولا الخيال المراجعُ * وعاصٍ يُرى فى النوم وهو مطاوعُ
لأشفق واستحيا من النوم والهٌ * يُرى بعد رَوْعات النوى وهو هاجعُ

وأود لو تأمل القارىء قوله (وعاصٍ يرى فى النوم وهو مطاوعُ) فطالما قدم النوم هؤلاء العصاة وهم للحب خاضعون ! !

وأصل هذا المعنى لقيس بن الملوح فى قوله :

وانى لأستغشى وما بى نَعسةٌ * لعلّ خيالاً منك يلقى خياليا
وأخرج من بين الجلوس لعلّنى * أحدّث عنك النفس فى السر خاليا
تُقطع أنفاسى بذكرك أنفساً * يَرِدْن فما يرجعنَ إلا صواديا

وأوضح منه قول قيس بن ذريح

وانى لأهوى النوم فى غير نعسةٍ * لعل لقاءً فى المنام يكونُ
تخبرنى الأحلام انى أراكمُ * فياليت أحلام النيام يقينُ

والظاهر أن نعمة الطيف لا تسوى بين العشاق جميعا . فهى عند

بعضهم لوعة وغليل ! فقد جعلها حسين بن الضحاك قناعة تقضى بها الضرورة حين يقول :

وماذا يفيدك طيف الخيا * ل والهجر حظك ممن تحبّ
غَناءٌ قليلٌ ولكنني * تمنيتهُ بقنوع المحبّ

ومن الشعراء من يعجب لزيارة الخيال ، كأن يزوره الطيف وهو سجين ، كقول جعفر بن عُلْبة

عجبت لمسراها وأنّى تخلصتْ * الىَّ وباب السجن دونى مُغلقُ
ألمّت فحيتْ ثم قامت فودعت * فلما تولّت كادت النفس تزهقُ
فلا تحسبى أنى تخشّعت بعدكم * لشىء ولا أنى من الموت أفرقُ
ولا أن نفسى يزدهيها وعيدهم * ولا أننى بالمشى فى القيد أخرقُ
ولكن عرتْني من هواك صبابةٌ * كما كنت ألقى منك إذ أنا مطلقُ

وقد ترفّق زياد بن حَمَل فعجب كيف زاره طيف حبيبته مع انها ضعيفة المشى مكسال. وذلك قوله من قصيدة طويلة :

زارت رُويقة شعثاً بعدماهجعوا * لدىْ نواحلَ فى أرساغها الخدمُ
وقمت للزَّوْر مرتاعاً فأرقنى * فقلت أهى سرت أم عادنى حُلمُ
وكان عهدى بها والمشى يبهظها * من القريب ومنها النوم والسأَمُ
وبالتكاليف تأتى بيت جارتها * تمشى الهُوَيْنا وما تبدو لها قَدَمُ
سُود ذوائبها بيض ترائبها * دُرْم مرافقها فى خلقها عَمَمُ
رويق إنى وما حجَّ الحجيج لهُ * وما أهلّ بجنبىْ نخلةَ الحرُمُ
لم ينسنى ذكركم مُذلم ألاقكمُ * عيش سلوت به عنكم ولا قِدمُ

ولم تشاركك عندى بعد غانيةُ * لا والذى أصبحت عندى له ذِممُ

ومن هذا يعتذر فريق من الشعراء عن هجر الطيف لبعد الشقة كقول ابن عنين :

سامحت كُتْبك فى القطيعة عالماً * ان الصحيفة أعوزت من حاملِ
وعذرت طيفك فى الجفاء لأنه * يسرى فيصبح دوننا بمراحلِ

وقال كشاجم فى مثل هذا العذر الطريف :

لقد بخلتْ حتى بطيف خيالها * علىَّ وقالت رحمةً لنحيبى
أخافُ على طيفى اذا جاء طارقاً * وسادك أن يلقاه طيف رقيبى

طرف أدبية

وقد يكون من المستملح أن نذكر جملة من الطُّرف تتناسب مع طيف الخيال . فمن ذلك ما أرسله بعض الشعراء الى الحسن بن سهل

رأيت فى النوم انى راكب فرساً * ولى وصيفٌ وفى كفى دنانيرُ
فقال قوم لهم فهمٌ ومعرفةٌ * رأيت خيراً وللأحلام تعبيرُ
رؤياك فسرّ غداً عند الأمير تجدْ * فى الحلم درًّا وفى النوم التباشير

فوقع فى أسفل الكتاب « أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين » !! ودخل بعض الشعراء على بشر بن مروان فأنشده

أغفيت عنـد الصبح نوم مسهَّدٍ * فى ساعة ما كنت قبلُ أنامُها
فرأيت انك رُعتنى بوليدة * رعبوبة حسنٌ علىّ قيامها
وببدرةٍ حُمِلت إلى وبغلةٍ * دهماء مشرقةٍ يصل لجامها

فدعوت ربى أن يثيبك جنــةً * عِوضاً يصيبك بردُها وسلامها

فقال له : أبشر فى كل شئ إلا البغلة فانى لا أملك إلا الشهباء ! فقال: امرأتى طالق ان كنت رأيتها الا شهباء غير أنى غلطت !

ونقل عن أبى العِبرِ أنه كان عنده حمار فمات فرآه فى النوم ينشد شعراً يقول فيه انه مات عاشقاً ، فسأله المتوكل ما الذى كان من شأنه ؟ فقال : كان يا أمير المؤمنين أعقل من القضاة ، ليس له هفوة ولا زلة ! فاعتلّ على حين غفلة ، فمات ، فرأيته فى النوم فقلت له : ألم أنقّ لك الشعير ، وأبرد لك الماء ، فماسبب موتك ؟ فقال أتذكر إذ وقفت على باب الصيدلاني ؟ قلت نعم ، قال مرت إذ ذاك أتان فافتتنت بها ومت ! فقلت وهل قلت شيئاً فى ذلك ؟ فقال نعم وأنشد :

هام قلبى بأتان * عند باب الصيدلانى
تيّمتنى يوم رُحنا * بثناياها الحسانِ
وبخدٍّ ذى دلالٍ * مثل خد الشيقرانِ
فبها متُّ ولو عشــــت اذاً طال هوانى

فقال له يا أبا معاذ . وما الشيقران ؟ فقال أنا مشغول بما أنا فيه ! وهذا كلام تعرفه الحمير ! فاذا رأيتم حماراً ، أو من كان أولا حماراً ، فاسألوه !! فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، جزاءً بما أبدع فى هذا الخيال

اليأس والرجاء

ليس فى العشاق من لم يُرزق الأمل والرجاء، وليس فيهم من لم يُرزأ باليأس والقنوط

وقد تأملت ما قال الشعراء فى اليأس، فرأيت منهم من يترك لأجله العتاب، كقول ابن الأحنف

سكوتى بلاءٌ لا أطيق احتماله * وقلبى ألوفٌ للهوى غيرُ نازعِ

وأقسم ما تركى عتابك عن قِلًى * ولكن لعلمى أنه غير نافعِ

وأني اذا لم ألزم الصبر طائعاً * فلا بدّ منه مكرهاً غير طائعِ

اذا أنت لم يعطفك إلا شفاعةٌ * فلا خير فى ودٍّ يكون بشافعِ

وقد عزّى نفسه ابن الأحنف حين يئس بقوله :

لعمرى لقد جلبت نظرتى * اليك علىّ بلاءً طويلا

فياويح من كلفت نفسهُ * بمن لا يطيق اليه السبيلا

هى الشمس مسكنها فى السماء * فعزّ الفؤاد عزاءً جميلا

فلن تستطيع إليها الصعود * ولن تستطيع إليك النزولا

وإنى لأتمنى أن يرحمنى الله من عذابى، بترديد هذا البيت الجميل

فياويح من كلفت نفسهُ * بمن لا يطيق اليه السبيلا

ومن العشاق من يرى اليأس أروح من الطمع. كما قال صردر

لا أمدح اليأس ولكنهُ * أروحُ للنفس من المطْمعِ

يا ليت أني قبل وَقْدِ الهوى * أذنت للعذل على مسمعي
أين بدورٌ من بني دارمٍ * تبخل أن تُسفر في مطلعِ
لا في سِرار الشهر تبدو لنا * ولا ليالي العشر والأربعِ
أودعتهم قلبي وما خِلتُهم * يستحسنون الغدر بالمودِعِ
لو زارني طيفهمُ ما درى * من الضنى أنيَ في مضجعي

ومن المتيمين من يعتذر عن نسيانه ، بيأسه وقنوطه . ولم أجد في هذا المعنى أبدع من قول الطغرائي :

مَنْ مُبلغ الحيِّ شطت دارهم ورضُوا * بالجار جاراً وما أرضى بهم عِوَضا
قد طاب عنكم فؤادٌ طاب قبلكمُ * عن الرَّضاع تقضّى والشباب مضى
إن الزمان الذي كانت بشاشتهُ * للقلب والعين ملهًى بان فانقرضا
فان نسيت فيأسٌ لم يدع طمعاً * وان ذكرت فعرقٌ ساكنٌ نبضا
حكّمت في مهجتي من ليس ينصفني * ولست أبلغ من تحكيمهِ غرضا
سيَّان عندي وأمري صار في يدهِ * قضى عليَّ بجورٍ أم الحقَّ قضى

وليس بعد اليأس إلا الرجاء ، وان عجب لذلك بعض الناس . فمن المحبين من يلهج بالأمل ترويحاً لنفسه ، وترفيهاً لقلبه ، كالذي يقول :

أعللُ بالمنى قلبي لعلّى * أُروّح بالأماني الهمَّ عني
وأعلم أن وصلك لا يرجّى * ولكن لا أقلَّ من التمني

ومنهم من يجعل الرجاء نصيب المبعَد الحزين : كما قال ياقوت

لله أيامٌ تقضَّت بكمْ * ما كان أحلاها وأهناها
مرَّتْ فلم يبق لنا بعدها * شيءٌ سوى أن نتمناها

ويكاد الامل يصرخ فى قول مسلم ابن الوليد

أدهراً تولّى هل نعيمك مقبلُ * وهل راجعٌ من عيشنا ما نؤملُ
أدهراً تولّى هل لنا منك عودةٌ * لعلّك يُعدى آخراً منك أولُ

وأوجع الشعر فى هذا المعنى قول ابن زريق :

لأصبرنَّ لدهرٍ لا يمتعنى * بهِ ولا بِىَ فى حال يمتّعهُ
علماً بأن اصطبارى معقب فرجاً * فأضيق الأمر لو فكرت أوسعهُ
علّ الليالى التى أضنت بفرقتنا * جسمى ستجمعنى يوماً وتجمعهُ

ولو سئِلت عن رأيى فى اليأس والرجاء ، لقدمت لسائلى هذه الدعوة المستجابة التى أدعو بها عقب كل صلاة «يا ربى ! إنى ما جحدت نعمتك يوم رزقتنى بهم ، ولا جهلت حكمتك يوم أقصيتهم عنى ، وها أنذا أنتظر فضلك وطولك ، فى ردهم إلىّ ، وعطفهم علىّ . فلولا الثقة برحمتك ، والايمان باحسانك ، لذهبت النفس عليهم حسرات . وقُطِّع القلب فى آثارهم قِطعا »

العتاب

خير العتاب ما كان ظاهر الذل ، بادى الخضوع ، نزولا عند حكم الهوى ، وإيماناً بعودة الحبيب ، كقول القائل

ياغاية القصد وأقصى المنى * وخير مرعى مقلة الناظرِ
إن كان لى ذنبٌ ولا ذنب لى * فما له غيرك من غافرِ
أعوذ بالود الذى بيننا * أن يفسد الاول بالآخرِ

وحسبك من موجب العطف ، ودواعي الرحمة ، أن يتوسل المحب بسالف حبه ، وماضي عهده ، وأن يجعل الأمر في غفر ذنبه لحبيبه .

وقال ابن التعاويذي :

يا ابنة القوم كيف ضاعت عهودي * بينكم والوفاء في العُرْب دينُ
كيف أسلمت فيك قلبي إلى الأشـ * ـجان لولا أن الغرام جنون
أتريني على النوى مضمراً عنـ * ـك سلوًّا إني إذن لخئون
انا من قد علمت عهدي على النأ * ي وثيق وحبل ودي متينُ

ولا يكون العتاب باباً للرضى إلا حين يصبح إنابة خالصة ، كقول ابن زيدون :

يا قمراً أطلعه المغربُ * قد ضاق بي في حبك المذهبُ
ألزمتني الذنب الذي جئتهُ * اليّ فاصفح أيها المذنب

وكقول الآخر

إذا مرضتم أتينا كم نعودكمُ * وتذنبون فنأتيكم فنعتذرَ

فأما قول البحتري

قد كان مني الوجد غِبّ تذكُّرٍ * اذ كان منك الصدغب تناسي
تجري دموعي حيث دمعك جامدٌ * ويرق قلبي حيث قلبك قاسي

فهو بالتأنيب أشبه منه بالعتاب ، وخير منه قول البحتري نفسه في كلمة ثانية

إني وإن لم أبح بوجدي * أُسِرُّ فيك الذي أسرُّ
يا ظالماً لي بغير جرم * اليك من ظلمك المفرُّ

أنت نعيمى وأنت بؤسى * وقد يسوء الذى يسرُّ

وقوله من كلمة أخرى تسيل ذلةً وتفيض خضوعا :

أيا قمر التمام أعنْت ظلماً * علىَّ تطاول الليل التمام

أما وفتور لحظك يوم أبقى * تقلّبهُ فتوراً فى عظامى

لقد كلفتنى كلفاً أُعنّى * به وشغلتنى عما أمامى

أعيذك أن يُراق دم حرامٌ * بذاك الدَّلّ فى شهر حرام

ويعجز القلم عن وصف مالهذا الشعر من روعة الجمال ، وأتمنى لو تأمل القارئ قليلا هذا البيت الجميل

ياظالماً لى بغير جرم * اليك من ظلمك المفرُّ

فأنه خير من قول ابن زيدون

ألزمتنى الذنب الذى جئتهُ * إلى فاصفح أيها المذنبُ

وهل رأى القارئ ، أرْوح للنفس ، وأمتْع للقلب ، من هذا القَسَم :

أما وفتور لحظك يوم أبقى * تقلّبه فتوراً فى عظامى

وهل رأى حيرة للحب أشق من حيرة الذى يقول :

لقد كلفتنى كلفاً أعنىَّ * به وشغلتنى عما أمامى

ألا ليت الذين يكتبون رسائلهم باللغة العامية ، يعلمون مانعلم من جمال اللغة الفصيحة ليعرفوا أنهم يجنون على أنفسهم ، وعلى قرائهم اذ يحرمونهم من التطلع الى جنة الادب ، وقطوفها الدانية ! ولو عرضت على كتاب العامية هذا البيت :

انى وان لم أبح بوجدى * أسر فيك الذى أُسرُّ

ثم سألتهم مافيه من وجوه الحسن لحسبوك من المسرفين ، وكيف يفهم جمال هذا البيت من يتدلى الى اللغة المتبذلة المهلهلة عجزاً عن الكتابة باللغة التى رحبت بثمرات العقول فى جميع الأمم الاسلامية ، وكانت لغة العالم زمناً غير قليل

ولا يحسب واحد من هؤلاء أن الحسن فى الأدب لا حد له ولا تعريف ، بل هناك حقائق أدبية يرتكز عليها الجمال ، فى الشعر البديع والنثر الجميل ، وقاعدة الحسن فيما نحن فيه أن العرب يستملحون بعض ألفاظ الشمول فى كثير من المواطن ، إيذاناً بالتفخيم والتهويل ، كلفظة « ما » فى قوله تعالى (فغشيهم من اليم ماغشيهم) للدلالة على أنَّ ماعانوه من طغيان الماء يفوق الوصف ، ويعجز عنه التمثيل ، ومنها قول البحترى : —

برّح بى حبك المغنىّ * وغرّنى منك مايغرُّ

إذ كانت دواعى الحب ، وأسباب العشق ، مما يقصر عن ادراكه المحب المفتون ، والعاشق المأسور !!

ومن ذلك لفظة « الذى » فى هذا البيت المختار :

انى وان لم أبح بوجدى * أسرّ فيك الذى أسرّ

إيذاناً بأن ما يُجنّه من اللوعة ، وما يكنه من الشوق ، أجلُّ من أن يحيط به الوصف ، أو يناله البيان : !

ومن العشاق من يضيف الى ذلة العتاب، ذلة الإقرار بالذنب، كقول الشريف.

أيا شاكياً منى بذنب جنيتهُ * فديتك من شاكٍ الىّ حبيبِ
لئن راب منى ما يريب فاننى * على عُدَواء الداء غير مريبِ
وإنى لأرعى منك والود بيننا * هوىً قلما يرعى بظهر مغيبِ
فهب لىَ ذنباً واحداً كنت قلته * فما زَلة من حازم بعجيبِ
فياحسن حال الود مادمت مذنبا * أتوب وما دامت تعد ذنوبى

والبيت الأخير يذكرنا بقول بشار:

ومن ذا الذى تُرضى سجاياه كلها * كفى المرء نُبلاً أن تُعـدّ معايبه

ومن بديع الشعر فى وصف العتاب، وما فيه من ذلة العاشق، وعزة المعشوق، قول الشريف

ومقبِّل كفى وددت لو انّهُ * أوما الى شفتىَّ بالتقبيلِ
جاذبتهُ طرَفَ العتاب وبيننا * كِبْر الملول وذلة المملولِ
ولحظت عقد نطاقه فكأنما * عُقد الجمال بقُرطُقٍ محلولِ
جذلان ينفض من فروج قميصهِ * أعطاف غصن البانة المطلولِ
من لى به والدار غير بعيدة * من دارهِ والمال غير قليلِ

وقوله:

ومقبِّل كفى وددت لو انّهُ * أوما الى شفتىَّ بالتقبيلِ

يذكرنا بقول الصاحب بن عبّاد:

أهوى لتقبيل يدى * فقلت لا. بل شفتى!

وحيرة أمثال الشريف الرضى والصاحب بن عباد فى أمثال هذه المواقف حيرة رهيبة ، فكلا الرجلين عالم جليل ، ولكن الحب كالموت لا يعصم منه البرج المشيد ، والحصن المنيع ، وقد يتقرب بعض الناس الى مثل الشريف الرضى بتقبيل يمناه ، فيود هذا لو قبل شفتيه ، لأن الحب شغله عن الاحتفاظ بالعظمة ، وقضى عليه بتقديس الجمال ! ! وهنا يظهر بطش الحب وعدوانه : حين يذهب بوقار العلم ، وجلال الجاه ، وغرُور المال ، ثم يسوى بين الأقدار ، ريثما ينسى العالم علمه ، والوجيه جاهه ، والغنى ماله ، حتى اذا أنِست تلك النفوس العاتية الى هذه المساواة ، عاد فميز أهل الحسن ، ورفع أرباب الجمال ، وصيّر المحبين أذلة ، بالرغم من أنف العلم والجاه والمال ! ! ويقول العرب : الهوى اله معبود ، وانهم لصادقون . غير أنه يحسن أن نعرف أن هذا الاله ليس برحمن ولا رحيم ، ولكنه قهار جبار ! ! ولولا الرحمة بضعفاء اليقين لأعطيت هذا البحث ما يستحقه من البيان ، ولبينت للقارئ رأى الفلاسفة فى مملكة الجمال ، ولكن الدين فى كثير من القلوب كالكرى فى عين الخائف المذعور : يُودى به مرّ الطيف وهبوب النسيم ! والذين يختلفون فى النظرة البريئة أحرام هى أم حلال ، لا يعقلون كيف يكون الهوى الٰها ، وكيف يكون له ملائكة مقربون ، من الشعور ، والعيون ، والخدود ، والثغور ، والنحور ، والصدور ، وهم إن عقلوا هذه الألوهية ، فلن يعقلوا كيف يكون لها من كتّاب الحب أنبياء مرسلون ، بل كل محب عندهم ماجن خليع ، قاتلهم الله أنّى يؤفكون ! !

ونعود فنبين أن الشريف أجاد تصوير العتاب بقوله

جاذبته طرف العتاب وبيننا * كبر الملول وذلة المملول

والمراد بكبر الملول عزة المعشوق ، الذى تحدثه عن هجره وصده ، فكأنما تسمعه هُجر القول ولغو الحديث ، فيتبرم ويتململ ، ويود لو أرحته من حديث الحب : إذ كان الحسن يسد أذن الجميل ، فلا يسمع الشكوى ولا يفقه العتاب ، وما أَبدع الغزل فى قوله

جذلان ينفض من فروج قميصه * أعطاف غصن البانة المطلول

ولا يكاد حضرة الشاعر الكبير حافظ بك ابراهيم يذكر الشريف الرضى الا ذكر له هذا البيت ، وله فيه تأويل عجيب !! ولعل أبرع ماقيل فى التطلع إلى الاستمتاع بالجمال ، قوله فى هذا البيت المختار :

من لى به والدار غير بعيدةٍ * من داره والمال غير قليل

ولعل صديقنا الشيخ عبد العزيز صقر يتسلى بأن الشريف الرضى على جاهه كان يشكو بعد الدار ، وقلة المال ! !

فدع ذكر سُعدى إن فيك تقيةً * ألا انما يبغى المها من يصيدها

وقد يصبح العتاب وهو لوم للنفس ، وعذل للقلب ، على الكلف بحبيب ليس للحب عنده جزاء ، فمن ذلك قول بعض الأعراب

أحبًّا على حبٍّ وأنت بخيلةٌ * وقد زعموا أن لايحَبّ بخيلُ

بلى والذى حج الملبّون بيته * ويشفى الهوى بالنيل وهو قليل

وإن بنا لو تعلمين لغلةً * اليكِ كما بالحائمات غليلُ

وقد يعكس هذا المعنى ، فيحب العاشق ظلم معشوقه ، ويحب من أجل ذلك أعداءه الظالمين ، كقول أبى الشيص الخزاعى

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى * متأخَّر عنه ولا متقدَّمُ
أجد الملامة فى هواك لذيذةً * حبًّا لذكرك فليلمنى اللوم
أشبهت أَعدائى فصرت أحبهم * اذ كان حظى منك حظى منهم
وأهنتنى فأهنت نفسى صاغراً * مامن يهون عليك ممن أُكرم

ومن العشاق من يمزج العتاب بذكر مالقى فى سبيل الحب من البلايا ، كقول ابن الدمينة

وأنتِ التى كلفتِني دَلَجَ السُّرى * وجُون القطا بالجلهتين جُثومُ
وأنت التى قطّعت قلبى حزازةً * وفرّقت قرح القلب فهو كليمُ
وأنت التى أحفظتِ قومى فكلهم * بعيد الرضادانى الصدود كظيم

وقد أجابته محبوبته أُمامة فذكرت مالقيت فى سبيل حبه من سفاهة الوشاة، وشماتة اللائمين ، حين تقول :

وأنت الذى أخلفتنى ماوعدتنى * وأشمتَّ بى من كان فيك يلومُ
وأبرزتني للناس ثم تركتني * لهم غرضاً أُرمى وأنت سليمُ
فلو ان قولا يكلْم الجسم قدبدا * بجسمىَ من قول الوشاة كلومُ

وقد ضعف ابن الدمينة عن مجاراتها فى قسوة العتاب ، فبعث اليها الابيات الآتية ، يسألها الصفح والغفران :

وإذا عتبتِ علىّ بتُّ كأننى * بالليل مختلَس الرقاد سليمُ
ولقدارذت الصبرعنك فعاقني * علقٌ بقلبى من هواك قديمُ

يبقى على حدث الزمان وريبهِ * وعلى جفائك إنه لكريمُ

ومن المحبين من تعجزه الحيلة ، فيذكّر أحبابه بأن الحياة قصيرة ، لا تتسع للصد ، ولا تحتمل الهجر ، كقول الطغرائى :

ويا رُفقةً مرّت بجرعاء مالك * تؤم الحمى أنضاؤها والمطاليا

نشدتكمُ بالله الا نشدتمُ * بها شعبةً أضللتها من فؤاديا

وقلتم لحىّ نازلين بقربها * أقاموا بها واستبدلوا بجواريا

رويدكمُ لا تسبقوا بقطيعتى * صروف الليالى إن فى الدهر كافيا

وأصل هذا المعنى لإياس ابن القائف إذ يقول :

اذا زرتُ أرضاً بعد طول اجتنابها * فقدت صديقى والبلاد كما هيا

فأكرم أخاك الدهر مادمتما معاً * كفى بالممات فرقة وتنائيا

وقد كاد سعيد بن حميد يضع لهذا المعنى صورة شعرية بقوله فى النهى عن العتاب :

أقلل عتابك فالبقاء قليلُ * والدهر يعدل تارةً ويميلُ

لم أبك من زمن ذممت صروفهُ * الا بكيت عليه حين يزول

ولكل نائبة ألمت مدةٌ * ولكل حال أقبلت تحويلُ

والمنتمون إلى الأخاء جماعةٌ * إن حُصّلوا أفناهم التحصيلُ

فلئن سبقت لتبكينّ بحسرةٍ * وليكثرنّ علىّ منك عويل

ولتفجعنّ بمخلص لك وامقٍ * حبل الوفاء بحبله موصولُ

ولئن سبقتَ ولا سبقت ليمضين * من لا يشاكله لدىّ خليلُ

وليذهبنّ بهاء كل مروءةٍ * وليفقدنّ جمالها المأهول

وأراك تكلف بالعتاب وودنا * باق عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرة * فعلام يكثر عتبنا ويطول

على أن الرفق الذى ألم بالطغرائى فجعله يرجو أحبابه أن لا يسبقوا صروف الليالى ، لم يمنعه من أن يصرخ شاكيا فى نفس القصيدة ، فيرمى أحبابه بالخيانة والنسيان ، وذلك قوله :

أفى الحق انى قد قضيت ديونكم * وأن ديونى باقيات كما هيا
فوا أسفى ، حتام أرعى مضيعا * وآمن خوانا وأذكر ناسيا
ومازال أحبابى يسيئون عشرتى * ويجفوننى حتى عذرت الأعاديا

والبيت الأخير يذكرنا بقول أبى تمام

أحبابه لم تفعلون بقلبه * ماليس يفعله به أعداؤه

وقد بسط الأرجانى هذا المعنى فقال :

أأحبابنا كم تجرحون بهجركم * فؤاداً يبيت الليل بالهم مكمداً
إذا رمتم قتلى وأنتم أحبة * فماذا الذى أخشى اذا كنتم عدا
سأضمر فى الاحشاء منكم تحرقاً * وأظهر للواشين عنكم تجلدا
وأمنع عينى اليوم أن تكثر البكا * لتسلم لى حتى أراكم بها غدا

ومن هؤلاء المساكين الذين لا يجدون حيلة غير تذكير أحبابهم بقصر الحياة أبو صخر الهذلى فى هذه الابيات الموجعة

بيد الذى شغف الفؤاد بكم * تفريج ما ألقى من الهم
قد كان صرم فى الممات لنا * فعجلت قبل الموت بالصرم
ولما بقيت ليبقين جوى * بين الجوانح مضرع جسمى

فتعلّمى أنْ قد كلِفت بكم * ثم افعلى ماشئت عن عِلم

وما ذكرت هذه المعانى المحزنة إلا تغنيت بهذا البيت الذى لاأراه إلا زفرةً تتصعّد ، أو عبرةً تتدفق

وأرى الأيام لاتدنى الذى * أرتجى منك وتدنى أجلى !!

ومن الشعر الممتع فى وصف الحيرة ، يرمى بها المحب العميد ، قول الشريف يعاتب حبيباً أغراه بالحب ، ثم أصلاه الصدود :

ياصاحب القلب الصحيح أما اشتفى * ألم الجوى من قلبىَ المصدوعِ
أأسأتَ بالمشتاق حين ملكتهُ * وجزيت فرط نزاعه بنزوعِ
هيهات لا تتكلّفنَّ لىَ الهوى * فضح التطبع شيمةَ المطبوعِ
كم قد نصبتُ لك الحبائل طامعاً * فنجوتَ بعد تعرّض لوقوعِ
وتركتنى ظمآن أشرب غلّتى * أسفاً على ذاك اللمى الممنوعِ
قلبى وطرفى منك هذا فى حمى * قيظٍ وهذا فى رياض ربيعِ
كم ليلةٍ جرّعتهُ فى طولها * غصص الملام ومؤلم التقريعِ
أبكى ويبسم والدجى ما بيننا * حتى أضاء بثغره ودموعى
تفلى أنامله التراب تعللاً * وأناملى فى سنىَ المقروع
قمرٌ اذا استخجلته بعتابه * لبس الغروب ولم يعد لطلوعِ
لو حيث يُستمع السِّرار وقفتما * لعجبتما من عزه وخضوعى
أبغى هواه بشافع من غيره * شر الهوى ما نلته بشفيعِ
أهونْ عليك اذا امتلأت من الكرى * أنى أبيت بليلة الملسوعِ
قد كنت أجزيك الصدود بمثله * لو أن قلبك كان بين ضلوعى

وقد ارتبت فى بيتين وردا فى خلال هذه القصيدة ، و بينهما و بين موضوعها بون شاسع ، وهما قوله :

ما كان الا قبلة التسليم أر * دفها الفراق بضمة التوديعِ

كمدى قديم فى هواك وانما * تاريخ وصلك كان مذ أسبوع

فان هذا الوصل الحديث خليق بمحو ذلك العتب القديم ، والتنافر بين هذين البيتين و بين موضوع القصيدة ظاهر على الأقل من مقابلتهما بهذا البيت الجميل :

أهونْ عليك اذا امتلأت من الكرى * انى أبيت بليلة الملسوع

فانه يدل على ان الحبيب غير بعيد ، وانه فى قربه نافر شرود ، مما يذكرنا بقوله من كلمة ثانية :

أبيتُ والليل مبثوثٌ حبائلهُ * والوجد يقنص منى كل مجلودِ

شوقاً اليك واشفاقاً عليك ولى * دمعان ما بين محلول ومعقودِ

ليس الغريب الذى تنأى الديار بهِ * ان القريب قريب غير مودود

وانما أوردنا هذه الملاحظة ليتنبه القارئ الى أن فى الدواوين أشياء كثيرة نسبت زوراً الى الشعراء ، وربما عدنا الى تحقيق ذلك فى مبحث خاص . والأدباء يعجبون بعينية الشريف هذه فى العتاب ، وقلّ منهم من لا يحفظ هذا البيت المختار:

لو حيث يستمع السرار وقفتما * لعجبتما من عزه وخضوعى

والعز والخضوع فى هذا البيت يذكرنا بالعز والذل فى قول عمارة اليمنى فى المجون :

ونافر الأعطاف عاملته * باللطف حتى سكن النافرُ
ولم أزل أمسحُ أعطافهُ * ورأيه فى قصتى حائرُ
حتى غدا من خجلٍ مطرقاً * وكل إعراض له آخرُ
عجبت من ذلى ومن عزهِ * فى موقفٍ عاذلهُ عاذرُ
فى ليلةٍ ساهرها نائمٌ * فما له سمعٌ ولا ناظرُ
مددت فيها الفخ لما خلا الـ * ـجوُّ إلى أن وقع الطائر
فبتُّ من فرط اغتباطى به * أظن أنى غائبٌ حاضرُ

وابن التعاويذى يجيد الشعر فى العتاب ، وهو صاحب هـذه الأبيات المختارة :

خذ فى أفانين الصدود فان لى * قلباً على العلاّت لا يتقلبُ
أتظنني أضمرت بعدك سلوةً * هيهات عطفك من سلوّى أقرب
قد كنت تنصفنى المودة راكباً * فى الحب من أخطاره ما أركبُ
فاليوم أقنع أن يمرّ بمضجعى * فى النوم طيف خيالك المتأوّبُ

وهو أيضاً صاحب هذه القطعة التى تمثل الوجد الدفين :

يا نازحاً ليس يدنو * وعاتباً ليس يرضى
يا واجداً وديونى * فى حبه ليس تقضى
أمرت عينى ففاضت * ومضجعى فأقضا
ارقد هنيئاً فانى * ما ذقت بعدك غمضا

ومن الظلم للعواطف أن لا نفصل مذهب العباس بن الاحنف فى العتاب ، فان شعره آية الآيات فى الشكوى من الهجر ، والتوجع

من الصدود ، وهو مع هذا يعد أيام الهجر أحسن أيامه ، ويقول :

وأحسن أيام الهوى يومك الذى * تروَّع بالهجران فيه وبالعتبِ
اذا لم يكن فى الحب سخطٌ ولا رضاً * فأين حلاوات الرسائل والكتب

ولكن هذا أمل بعيد ، فليس كل عتب تدور فيه رسائل الحب ، وصحف الهوى ، وكذلك رزئ ابن الأحنف بمن ينبذ كتبه ، ويمزق رسائله ، وفى هذا المعنى قرأنا له هذه القطعة الباكية :

وصالكِ مظلمٌ فيه التباسٌ * وعندكِ لو أردتِ له شهابُ
وقد حُمِّلتِ من حبيك مالو * تقسّم بين أهل الأرض شابوا
أفيقى من عتابك فى أُناسٍ * شهدتِ الحظ من قلبى وغابوا
يظن الناس بى وبهم وأنتم * لكم صفو المودة واللبابُ
وكنت إذا كتبت إليك أشكو * ظلمتِ وقلتِ ليس له جوابُ
فعشت أقوت نفسى بالأمانى * أقول لكل جامحةٍ إياب
وصرت إذا انتهى منى كتابٌ * إليك لتعطفى نُبِذ الكتابُ
وإن الود ليس يكاد يبقى * إذا كثر التجنى والعتابُ
خفضت لمن يلوذ بكم جناحى * وتلقونى كأنكمُ غضاب

وقد أكثر ابن الأحنف من التوجع لحرمانه من كتب من يهوى ، وهو صاحب هذا البيت الحزين :

ويقنعنى ممن أحب كتابهُ * ويمنعنيهِ ، إنه لبخيلُ !

وكثيراً ما يميل ابن الأحنف الى الصفح الجميل ، اذ يرى العتاب لا يعطف القلوب ، إن لم تضمر الحنان . وقد أفصح عن ذلك فى هذه الأبيات :

أنكر الناس ساطع المسك من دجـ * ـلة قد أوسع المشارع طيبا
فهمو يعجبون منـه وما يدرو * ن انْ قد حللت منه قريبا
قاسميني هذا البلاءَ والاّ * فاجعلي لي من التعزّي نصيبا
ان بعض العتاب يدعو الى العتـ * ـب ويؤذى به المحب الحبيبا
واذا ما القلوب لم تضمر العطـ * ـف فلن يعطف العتاب القلوبا

وما أجمل العزة في قوله :

خفضت لمن يلوذ بكم جناحي * وتلقوني كأنكمُ غضابُ

وقوله : —

خفضت طرفي لأدنى من يلوذ بكم * حتى احتُقرت وما مثلي بمحتَقرِ

وأي كريم لم يلق مثل هذه الذلة في سبيل الصبابة ؟ ومتى عرف الهوى قيمة العزة في نفوس الأعزاء ، فعصمها عن مدارة قوم يحيطون بالجمال، إحاطة الاشواك بالورود؟

وقد نرى ابن الأحنف يائسا من نفع العتاب ، فنقرأ له هذه الأبيات في التبرم بالسكوت :

سكوتي بلاءٌ لا أطيق احتمالهُ * وقلبي ألوفٌ للهوى غير نازعِ
فأقسم ما تركي عتابك عن قلىً * ولكن لعلمي أنهُ غير نافعِ
وأني اذا لم ألزم الصبر طائعاً * فلا بدّ منه مُكرهاً غير طائع
إذا أنت لم يعطفك الا شفاعةٌ * فلا خير في ودٍّ يكون بشافعِ

وربما رأيناه زاهداً في العتاب ، لأن محبوبته لاتصد صد العاتب، بل صد الملول : وذلك قوله

لو كنتِ عاتبةً لسكّن لوعتى * أملى رضاكِ وزرت غير مراقَبِ
لكن مللتِ فلم تكن لىَ حيلةٌ * صدُّ الملول خلاف صدّ العاتبِ
ما ضرّ من قطع الرجاء ببخلهِ * لوكان عللنى بوعدٍ كاذبِ

على أن ابن الاحنف لم يقض كل حياته فى هذا العذاب، بل رأيناه يعجب بنصره فى الحب ، وقهره لقلوب الحسان ، أليس سعيداً من يقول :

يارب جاريةٍ أسبلتُ عَبرتها * من رقّة ولغيرى قلبُها قاسى
كم من كواعبَ ما أبصرن خطيدى * إلاّ تمنين ان يأكلن قرطاسى

وكان البهازهير ، أحد وزراء مصر فى أيامها الخوالى ، من أرق الشعراء فى العتاب ، حتى لتحسب شعره نجوى بين المحب والحبيب ، أو رنين الحلى عند عناق الحسان ، أو خفوق الأمل فى قلب اليائس المحزونَ . انظر الى اعتذاره عن محبوبه ، ورضاه عما جنت يد الدلال يسكر به المعشوق الجميل :

مولاى من سكر الدلا * ل عبثتَ والسكرانُ عابثْ
ونكثتَ عهداً فى الهوى * ما خلتُ أنك فيه ناكثْ
لك لا أشكُّ قضيةٌ * أنا سائلٌ عنها وباحثْ

وقد يكثر فى شعر البهازهير وصف الدلال وماله من النشوة والسكر ، فتراه فى موطن آخر يقول :

أضنى الفؤاد فمن يريحُهْ * وحمى الرقاد فمن يبيحُهْ
ونضا من الأجفان سيـــفاً قلما يبقى جريحُهْ

نشوان من خمر الدلا * ل غَبوقُهُ وبها صَبُوحُهْ

والذى يعنينا الآن شرح مواقفه فى العتاب ، لانها تمثل الروح المصرية ، وما لها من السماحة المصحوبة بالشمَم والإباء . فحينا ينفى ماذاع من سلوه ، حتى هجره أحبابه ، فيقول

يا هاجرين وحقكم * هوّنتمُ مالا يهونُ
قلتم فلانٌ قد سلا * ما كان ذاك ولا يكونُ
وحياتكم وهى التى * مامثلها عندى يمينُ
ماخنت عهدكمُ كما * زعم الوشاةُ ولا أخونُ
يامن يظن بأننى * قد خنتهُ غيرى الخئونُ
لو صحّ ودك صح ظنّـ * ـكَ بى وبان لك اليقينُ
ياقلبَ بعض الناس كم * تقسو علىّ وكم ألين
يا ويلتاه لمن يُخا * طِبُ أولمن يشكو الحزينُ
قد ذلّ من كان المعيـ * ـن لهُ هو الدمع المعَين

وحينا يمزج العتاب بالشكوى فيقول :

يا أعز الناس عندي * كيف خنت اليوم عهدى
سوف أشكولك بعدى * فعسى شكواى تجدى
أين مولاىَ يرانى * ودموعى فوق خدى
أقطع الليل أقاسى * ما أقاسَى فيه وحدى
ليتنى عندك ياموﻻ * ى أو ليتك عندى

ثم يترفق فى شكواه وأمانيه ، فيقول

من لى بقلب أشتريـــه من القلوب القاسيه
إنى لأطلب حاجةً * ليست عليك بخافيه
أنعم علىّ بقبلةٍ * هبةً وإلاّ عاريه
وأُعيدها لك لاعدمـــتَ بعينها وكما هيه
واذا أردت زيادَةً * خذها ونفسى راضيه
فعسى يجود لنا الزما * ن بخلوةٍ فى زاويه
أوليتنى ألقاك وحـــدك فى طريق خاليه

وهـذه غاية الغايات فى رقة النجوى ولطف العتاب ، ولـكن البهازهير كما قلنا مصرى الروح : فهو فى رقته غضوب : ألم تر اليه وقد تبدّل من يهوى ، فرماهُ بهذه الصاعقة

يامن تبدّل فى الهوى * يَهْنيك صاحبك الجديدُ
إن كان أعجبك الصدو * د كذاك أعجبنى الصدودُ
واُعلم بأنى لا أريـــد إذا رأيتك لاتريدُ
وأنا القريب فان تغيّـــر صاحبى فأنا البعيدُ

وقد أوضح هذا المعنى ووفّاه ، فى الكلمة الآتية

سأُعرض عمن راح عنىَ معرضاً * وأُعلن سُلوانى له وأُشيعهُ
وأحجبُ طرفى عنه فهو رسولهُ * وأحجب قلبى عنه فهو شفيعهُ
وكيف ترى عينى لمن لايرى لها * ويحفظ قلبى فى الهوى من يضيعهُ
وأقسمت لاتجرى دموعى على امرىءٍ * اذا كان لاتجرى على دموعهُ
فلو خان طرفى ماحوته جفونه * ولوخان قلبى ماحوته ضلوعهُ

وأوضح من هذا قوله من كلمة ثانية :

هو حظى قد عرفتُهْ * لم يحل عما عهدتُهْ
فاذا قصّر من أهوا * هُ فى الحب عذرتُهْ
غير أنى لىَ فى الحـــب طريق قد سلكتُهْ
لو أراد البعد عنى * نور عينى ما تبعتُهْ
إن قلبى وهو قلبى * لو تجنّى ما صحبتهْ
كل شىء من حبيبى * ما خلا الغدرَ احتملتهْ
أنا فى الحب غيورٌ * ذاك خُلُق لا عدمتُهْ
أُبصر الموت اذا أبـــصر غيرى من عشقتهْ

نوح الحمام

لقد ألممنا إلمامةً قصيرة بنوح الحمام عند أسباب المدامع ، واليوم نفصل مذاهب الشعراء فى هذا الباب : فمنهم من يحن الى الحمائم الشادية ، ويتمنى لو عُدن إليه ، فاذا عدن أسامنه الى البكاء ، كما قال المجنون :

ألا يا حمامات ِاللِّوى عدن عودةً * فانى الى أصواتكن حزينُ
فعُدْن فلما عدن كدن يمتننى * وكدتُ بأشجانى لهنّ أُبينُ
فلم ترَ عينى مثلهنّ بواكيا * بكينَ ولم تذرف لهنّ عيونُ

ومن الشعراء من يذكر أن الحمائم الباكية تبعث الهوى فى قلب الخلىّ ، فكيف بالشجىّ ، وأن أنغامها ليست دموعا ولكنها أمضى من الدموع ، كما قال أبو تمام :

بعثن الهوى فى قلب من ليس هائماً * فقل فى فؤادٍ رُعنه وهو هائمُ
لها نغمٌ ليست دموعاً فان علت * مضت حيث لا تمضى الدموع السواجمُ

ومنهم من يستريح الى نوح الحمام ، ويراه تداويا من الداء بنفس الداء ، كقول ابن عبد ربه :

فكيف ولى قلبٌ اذا هبت الصبا * أهاب بشوقٍ فى الضلوع دفينِ
ويهتاج منه كلما كان ساكناً * دعاء حمام لم تبت بوكون
وان ارتياحى من بكاء حمامةٍ * كذى شجنٍ داويته بشجونِ
كأنّ حمام الأيك لما تجاوبت * حزينٌ بكى من رحمةٍ لحزينِ

ويسمون الحمامة « مطوقة » لطوقها المخضب الجميل ، كما قال ابن عبد ربه :

ونائح فى غصون الأيك أرّقنى * وما عُنيت بشئ ظلّ يعنيهِ
مطوّقٌ بخضابٍ ما يزايلهُ * حتى تزايله إحدى تراقيهِ
قد بات يشكو بشجو مادريت بهِ * وبتّ أشكو بشجوٍ ليس يدريهِ

ومن الشعراء من يقارن بينه و بين الحمامة الباكية ، فيذكر أنها تبكى بلا دمع ، وأن إلفها منها قريب ، كما قال أبو محلم الشيبانى من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين، وقد كبرت سنه ، وطالت غربته :

وأرقنى بالرىّ نوح حمامة * فنحت وذو الشجو الغريب يُنوح
على أنها ناحتْ ولم تذر دمعةً * ونحت وأسرابُ الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما * ومن دون أفراخى مهامه فيحُ
ألا يا حمام الأيك إلفكَ حاضرٌ * وغصنك ميّادٌ ففيمَ تنوحُ

أفق لا تنحْ من غير شيء فانني * بكيت زماناً والفؤاد صحيح
ولوعاً فشطت غُربةً دار زينبٍ * فهأنا أبكي والفؤاد جريح

ومما يجدر أن يكون « صورة شعرية » في وصف الحمامة الباكية قول الطغرائي :

أبكيةٌ صدحت شجواً على فننٍ * فأشعلت ماخبا من نار أشجاني
ناحت وما فقدت إلفاً ولا فُجعت * فذكرتنيَ أوطاري وأوطاني
طليقةٌ من إسار الهمّ ناعمةٌ * أضحت تجدد وجد الموثَق العاني
تشبّهت بيَ في وجدي وفي طربي * هيهات مانحن في الحالين سيّانِ
مافي حشاها ولا في جفنها أثرٌ * من نار قلبي ولا من ماء أجفاني
ياربّة البانة الغنّاء تحضنها * خضراء تلتفُّ أغصاناً بأغصان
إن كان نوحك إسعاداً لمغتربٍ * ناءٍ عن الأهل ممنوٍّ بهجران
فقارضيني إذا ما اُعتادني طربٌ * وجداً بوجدٍ وسلواناً بسلوانِ
أولا فقصرَكِ حتى أستعين بمن * يعنيه شأني ويأسو كَلْمَ أحزاني
ماأنت مني ولايعنيكِ ماأخذتْ * مني الهموم ولا تدرين ماشاني
كِلِي إلى الغيم إسعادي فانّ لهُ * دمعاً كدمعي وإرناناً كإرناني

وهذه القصيدة من أبدع ماقال الشعراء في الحمائم الشاديات . وهي أنموذج لملاحة التقسيم ، وبراعة التصوير ، وحلاوة التعبير ، ويقرب منها قول ديك الجن

حمائمُ وُرْقٌ في حمى وَرَق خُضرِ * لها مُقَلٌ تُجرى الدموع ولا تَجرى
تكلّفن إسعاد الغريبة أن بكت * وإن كن لايدرين كيف جوى الصّدر

لها حُرَقٌ لو أنّ خنساء أعولَتْ * بهن لأدّت حق صخرٍ إلى صخرِ
فقلت لنفسى هاهنا طلب الأسى * ومعدنه إن فاتنى طلب الصبر

وقد يحسن لفت النظر الى الخرافة القديمة فى نوح الحمام : فان العرب يذكرون أنه كان لهن ملك فى عهد نوح يسمى (الهديل) فهن يبكينه الى الآن ! ؟ وهو المعنيُّ بقول نصيب

لقد راعنى للبين نوح حمامةٍ * على غصن بانٍ جاوبتها حمائمُ
هواتفُ أمّا من بكين فعهدهُ * قديمٌ وأما شجوهنّ فدائمُ

وممن ذكر الهديل حُميد بن ثور فى هذه الأبيات الحسان :

إذا نادى قرينته حمامٌ * جرى لصبابتى دمعٌ سفوحُ
يُرَجِّع بالدعاء على غصونٍ * هتوفٌ بالضحى غردٌ فصيح
هفا لهديله منى إذا ما * تغرّد ساجعاً قلبٌ قريحُ
فقلت حمامة تدعو حماماً * وكل الحب نزّاعٌ طمُوحُ

قال أبو بكر بن دريد : خرجنا من عُمان فى سفر لنا ، فنزلنا فى أصل نخلة ، فنظرت فاذا فاختتان تزقوان فى فرعها ، فقلت :

أقول لوَرقاوَين فى فرع نخلةٍ * وقد طفّل الإمساء أو جنح العصرُ
وقد بسطت هاتي لتلك جناحها * ومال على هاتيك من هذه النحرُ
ليَهنِكيما أن لم تُراعا بفرقةٍ * ومادبّ فى تشتيت شملكما الدهر
فلم أر مثلى قطّعَ الشوق قلبهُ * على أنهُ يحكى قساوته الصخر

ومن جيد الشعر فى الموازنة بين العاشق وبين الحمامة الشادية قول ابن سنان الخفاجى

أتظن الورقُ فى الأيك تغنى * أنها تضمر حزناً مثل حزنى

لاأراكِ الله نجداً بعدها * أيها الحادى بها إن لم تجبنى

هل تباريني إلى بث الجوى * فى ديار الحى نشوى ذات غصن

هبْ لها السبقَ ولكن زادنا * أننا نبكى عليها وتغنى

يازمانَ الخَيْفِ هل من عودةٍ * يسمح الدهر بها من بعد ضنّ

أرضينا بثنيات اللوى * عن زرودٍ يالها صفقة غبْنِ

وقد ينكر الشاعر على الحمامة أن تشكو الفراق ، وهى كثيرة الألّاف ، وحالية بالطّوق والخضاب ، كقول ابن سنان صاحب الابيات السالفة :

وهاتفةٍ فى البان تُملى غرامها * علينا وتتلو من صبابتها صُحْفا

عجبت لها تشكو الفراق جهالةً * وقد جاوبَتْ من كل ناحيةٍ إلْفا

ويُشجى قلوبَ العاشقين حنينها * وما فهموا مما تغنَّتْ به حرفا

ولو صدقت فيما تقول من الأسى * لما لبِستْ طوقاً ولا خضبت كفّاً

ولكن الأرّجانى يصفها بصدق اللوعة ، فيذكر أنها مزقت أثواب الحِداد ، وأن صدورها ضاقت بأنفاسها ففضّت مجامع الأطواق وأنها نزفت دمعها وأفنته بطول البكاء ، وذلك فى قوله :

ومما شجانى وقد ودّعوا * بكاء الحمام على ساقها

تنوح على بُعد أُلّافها * وتظهر مكنون أشواقها

لبِسنَ حِداداً ومزّقنهُ * فلم تدّخر غير أزياقها

وضاقت صدوراً بأنفاسها * ففضّت مجامع أطواقها
وقد نزفت في الهوى دمعها * فلم يبق ماءٌ بآماقها

ولم يكثر الشعراء من الحديث عن غناء الكروان . ويظهر أنهم لم يتمتعوا بأغانيه الجميلة على ضفاف النيل فى سِنْتِريس ، والدهر كله فداء للحظة واحدة من الأصائل ، أو العشيّات ، أو الأسحار ، فى مغانى سنتريس

ويعجبنى فى وصف الكروان قول الأستاذ عباس العقاد :

يامُحيِيَ الليل البهيم تهجّداً * والطير آويةٌ الى الأوكانِ
يحدو الكواكب وهو أخفى موضعاً * من نابغٍ فى غَمرة النسيانِ
قلْ ياشبيه النابغين اذا دعوا * والجهل يضرب حولهم بجرانٍ
كم صيحةٍ لك فى الظلام كأنها * دقّات صدر للدُّجُنةِ حانِ
خفّاقة النغمات تطفر فى الدجى * فوق النسائم طفرةَ النشوانِ
هُنّ اللغاتُ ولا لغاتِ سوى التى * رُفِعتْ بهنّ عقيرة الوجدانِ
إن لم تقيّدها الحروف فانها * كالوحْى ناطقةٌ بكل لسانِ
أغنى الكلام عن المقاطع واللغى * بثّ الحزين وفرحةُ الجذلانِ
إنى لأسمع منكَ إذْ ناديتنى * معنًى يقصّر عنه كل بيان
أصغى إليك اذا هتفتَ وفى يدى * سِفرٌ يغرّد صامت الأوزانِ
شعر الطيور ولا رياء يشوبهُ * يذرى ببِدْع قصائد الانسانِ
ياسالياً يشكو ويصدحُ وحْدَهُ * علمٌ سميرَك راحةَ السُّلوانِ

ومن خير ما وُصفت به الحمامه من ناحية الخلقة الجميلة ، قول بعض الأعراب :

وقبلىَ أبكى كلَّ من كان ذاهوًى * هتوف البوا كى والديارُ البلاقعُ
وهنَّ على الأطلال من كل جانب * نوائح ماتخضلُّ منها المدامعُ [1]
مُزَبْرجة الأعناق غُرٌّ ظهورها * مُخَطَّمةٌ بالدُّرِّ خُضْرٌ روائعُ [2]
ترى طُرراً بين الخوافى كأنها * حواشى بُرْدٍ زيَّنتْها الوشائعُ [3]
ومن قِطَعِ الياقوت صِيغتْ عيونها * خواضبُ بالحِنَّاء منها الاصابع

ويعجبنى خطاب عبد البر بن فرسان الغسانى لطائر مغرِّد ضمَّ أفراخه اليه :

أَعِدْهنَّ ألحاناً على سمع مُغْربٍ * يطارحُ مرتاحاً على القُضْبِ مُعْجِما
وطر غير مقصوص الجناح مُرَفها * مُسَوَّغ أشتاتِ الحبوب منُعما
مُخَلًّى وأفراخاً بوكْرك نوَّماً * ألاليتَ أفراخى معى كُنَّ نُوما

وقد أبدع الرصافى شاعر الأندلس حين تغنّى يوماً من أيام شبابه وقد خلا فيه بمن يهوى فى روضة لم يشاركهم فى سكناها غير الهديل، وأبياته الآتية غاية من غايات الحسن فى وصف الشمس وهى تجنح للغروب :

وعشيٍّ رائق منظرُهُ * قدقطعناهُ على صِرْف الشَّمولْ
وكأن الشمسَ فى أثنائه * ألصقتْ بالأرض خدًّا للنزولْ
والصَّبا ترفع أذيال الرُّبا * ومُحَيَّا الجوِّ كالسيف الصقيل
حبذا منزلُنا مغْتَبَقاً * حيث لايطرقُنا غير الهديل

(١) المدامع هنا أماكن الدمع وهى العيون (٢) مزبرجة : من الزبرج وهو الزخرف والزينة . ومخطمة من الخطم بفتح فسكون وهو منقار الطائر (٣) الوشائع جمع وشيعة وهى الطرائق فى الثوب

طائرٌ شادٍ وغصنٌ منثنٍ * والدُّجى تشرب صهباءَ الأصيل

ومما يقرب من هـذا الباب وليس منه قول القاضى ابى حفص القرطبى :

همُ نظروا لواحظها فهاموا * وتشربُ لبَّ شاربها المدامُ

يخاف الناس مقلتها سواها * أيذعر قلب حامله الحسامُ

سما طرفى اليها وهو باكٍ * وتحت الشمس ينسكب الغمامُ

وأذكر قدّها فأنوح وجداً * على الأغصان ينتحبُ الحمامُ

وأعقب بينُها فى الصدر غماً * اذا غربَت ذكاءُ أتى الظلامُ

التقرب بالدموع

خير ماتقرّب به المحب الى حبيبه دمع مسفوح ، وقلب مجروح ووجد مشبوب ، وصبر مغلوب !! والتقرب بالدمع نوع من الاستعطاف تغزى به قلوب الحسان ، ومن طريفه قول الابيوردى :

أشكو الهوى لترقِّى يا أميمةُ لى * فطالما رفقَ المشكوُّ بالشاكى

يشقى ببعضى بعضى فى هواك فما * للعين باكيةً والقلب يهواك

وهذا المعنى غير معروف عند العرب : فهم يرون بكاء العين من فضل حزن الفؤاد ، حتى ليقولون : نعمت العين ، وشقى القلب ، ولكن الابيوردى عكس المعنى ، فجعل نعيم القلب فى الهوى ، وعذاب العين فى البكاء ، ثم قال :

إن يحكُ ثغرَك دمعى حين أسفحهُ * فإننى جدت للمحكىِّ بالحاكى

ما كنت أحسب أن الدرّ مسكنهُ * يكون جيدَك أو عينيَّ أو فاكِ

وأوضح من هذا وأجمل قول الشريف :

أهوِنْ بما حمّلتنيه من الضنى * لو أن طيفك كان من عُوّادي

ولقلّما زار الخيال بمقلةٍ * روعاءَ نافرةٍ بغير رُقادِ

ما تلتقي الأجفان منها ساعةً * وإذا التقت فلغضِّ دمعٍ بادِ

لا يَبعَدَنْ قلبي الذي خلّفتهُ * وقفاً على الإتهام والإنجاد

إن الذي غمر الرقاد وسادَهُ * لم يدرِ كيف نبا عليّ وسادي

ولقد بعثت من الدموع اليكمُ * بركائبٍ ومن الزفير بحادي

لولا هواك لما ذللت وانما * عزّي يعيّرني بذل فؤادي

وهكذا يجمع الشريف الرضى بين العزة القرشية ، والذلة العذرية : فهو عزيز ذليل ! ! وللبحترى حِوار لطيف فى هذا الباب ، فمن ذلك قوله :

صِلي مغرماً قد واتَرَ الشوقُ دمعَهُ * سجاماً على الخدّين بعد سجامِ

فليس الذى حلّلتهِ بمحلّلٍ * وليس الذى حرّمتهِ بحرامِ

وقد ردد هذا المعنى فى موطن آخر فقال :

أُلامُ على هواكِ وليس عدلاً * إذا أحببتُ مثلك أن أُلاما

فقد حرّمت من وصلى حلالاً * وقد حلّلت من هجرى حراما

ولا يسعنى وقد أسرف البحترى فى ذكر الحرام والحلال ، إلا الرجاء فى أن ينصف هذا المظلوم يوم يقوم الحساب ! ! وقد رق شعر العباس ابن الأحنف حين يقول :

أما استوجبت عيني فديتك نظرةً * اليك وقد أبكيتها حججاً عشرا
لعمري لئن أقررتِ عيني بنظرةٍ * اليك لقد عذبتها بالبكا دهرا

ويقرب من هذا قوله من كلمة ثانية

جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى * وفاضت له من مقلتيّ غروبُ
وما ذاك إلاّ حين أيقنت أنهُ * يمر بوادٍ أنت منه قريب
يكون أُجاجاً دونكم فاذا انتهى * اليكم تلقّى طيبكم فيطيب
أيا ساكني أكناف دجلة كلكم * إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

وقد تلطف ابن التعاويذي في شكوى حاله إلى من يهوى بقوله :

يا موحش العين التي * أنست بطول بكائها
غادرت بين جوانحي * نفسا تموت بدائها
تشتاق عيني أن ترا * ك وأنت في سودائها
فإذا بخلت بنظرةٍ * سمحت بجُمّة مائها

ومن مبتدعات المتأخرين في هذا المعنى قول بعض الشعراء

وقلتُ شهودي في هواك كثيرةٌ * وأصدقها قلبي ودمعيَ مسفوحُ
فقال شهودٌ ليس يقبل قولها * فدمعك مقذوف وقلبك مجروح

وهو كلام قد يطمئن له الفقهاء والمحدّثون ، لطول ما يبحثون في القذف والتجريح ، وما أغنى الشعر عن تفسير أولئك وتأويل هؤلاء !!

*
* *

وقد يتوسل المحب بفنائه فى الوجد ، ومن شعراء العصر من أجاد هذا المعنى ، كصاحب البدائع حين يقول :

يا أهل أسيوطَ لازلتم بعافيةٍ * وإن تمرّدَ فى وجدى بكم دائى
أسلمتونى لدهرى بعد ما بَليَتْ * من قسوة الصدّ والتبريح أحشائى
فلو أتتْ ظبيةُ الحمراء غازيةً * قلبى لمَا وجدَتْهُ غير أشلاء [1]
ياوَيْحَ نفسى ، أتنسَوْنى وأذكركم * مُقرّحَ الجفن فى صبح وإمساء

* * *

إن الذين بأمر الحب قد ملكوا * لم يتّقوا الحب فى ضُرّى وإيذائى
لم يُدْننى الشوقُ يوماً من منازلهمْ * إلاّ تولّوا مع الايام إقصائى
كم رُحْتُ أحمل آمالى لحبّهمُ * وعدْتُ أحمل آلامى وأرزائى
يالوعةَ القلب لاشكوايَ نافعةٌ * ولا بكايَ بشافٍ مسّ ضرّائى
أبيتُ أندب عهدًا مرّ طيّبهُ * كلمحة البرق فى أعطاف ظلماء
وأُرسل الزفْرة الحرّاء لافحةً * كوقْدة الجمر فى آجامِ قصباء

* * *

يامن يعزُّ علينا أن نجازيَهمْ * صدًّا بصدٍّ وإغْضاءً بإغضاءِ
لو ترحمون وَصلتم شيِّقاً كلِفاً * ألقى جفاكم عليه ألفَ بأساءِ

---

(١) الحمراء حى جميل من أحياء أسيوط

ثورة الوجد

نذكرهنا طرفاً من الشعر الموجع ، الذى يمثل ثورة الوجد ، ولوعة الأسى ، فمن ذلك قول أبى تمام

سقيمٌ لا يموتُ ولا يفيقُ * قد اقرحَ جفنَهُ الدمعُ الطليقُ
شديد الحزن يحزن من يراهُ * أسير الصبر ناظرهُ أريقُ
ضجيع صبابةٍ وحليفُ شوقٍ * تحمّل قلبهُ مالا يطيقُ
يظلُّ كأنه مما احتواهُ * يُسعَّر فى جوانبه الحريقُ

وأى حال أدعى للرحمة ، وأوجب للإشفاق ، من حال هذا المحب السقيم ، الذى لا يموت ولا يفيق . والذى يحزن من يراه : لصبره الأسير ، وناظره الأريق ، والذى حالفَ فى ضعفه الشوق ، وضاجعَ الصبابة ، حتى لكأنّه مما به ، تُسعَّر النار فى ضلوعه ! ؟

ويقرب من هذا قول ابن الرومى فى فراق اثنين من خُلاّنه

لم يَسترح مَن لهُ عينٌ مؤرَّقةٌ * وكيف يعرف طعمَ الراحةِ الأرِقُ
محمدٌ وعلىٌّ فتّتا كبدِى * إذا ذكرتهما والعيسُ تنطلقُ
خلاّنِ حل بقلبى من فراقهما * ما كنت أحذر منه قبل نفترقُ
قلبٌ رقيقٌ تلظت فى جوانبه * نار الصبابة حتى كاد يحترقُ
ودِدْتُ لو تم لى حجى بقربهما * ما كلُّ ماتشتهيه النفس يتفقُ

ومما يمثّل ثورة الوجد فى الصدر ، مع الغيظ مما جنتْ يد الليالى ، قول المتنبى :

أكيداً لنا يا بينُ واصلتَ وصلنا * فلادارنا تدنو ولا عيشنا يصفو
أُردِّد ويلي ، لوقضى الويل حاجةً * وأُكثر لهفى ، لوشفاغُلةً لَهْفُ
ضنًى في الهوى كالسم في الشهد كامناً * لَذَذْتُ به جهلاً وفي اللذة الحتْف

وكان الأبيوردي يمثل وجده بوجد الظبية تترك ولدها في طلب الكلأ ثم تعود سريعةً الى لقائه فتجده مات ! وإليك من شعره هذه اللؤلؤة الفتانة :

وماأمُّ ساجي الطرفِ مال به الكرى * على عذَبات الجزْع تحسبه قَلْبا
تُراعي باحدى مُقْلتَيها كِناسَها * وترمى بأُخرى نحوهُ نظراً غَرْبا
فلاحَ لهامن جانب الرمل مَرْتعٌ * كأن الربيعَ الطلقَ ألبَسه عُصبا
فمالت اليه والحريصُ اذا غدت * به سَوْرةُ الأطماع لم يحمَدالعقْبى
وآنسهاالمَرْعى الخصيب فصادفتْ * مدَى العيْن في أرجائه بلداً خصبا
فلما قضت منه اللُّبانةَ راجعتْ * طَلاَها فألْفَتْه قضى بعدها نَحْبا
أُتيحَ له عاري السواعد لم يزل * يخوض الى أوطاره مطلباً صَعْبا
فولّتْ على ذُعْرٍ وبالنفس مابها * من الكرب لالقِّيتَ في حادثٍ كربا
بأوْجَدَ مني يوم عجّتْ ركابها * لبيْنٍ فلم تترك لذي صَبْوَةٍ لُبا

وهذه الصورة الشعرية كثيرة الأمثال في الآداب القديمة ، وانما نسبناها الى الأبيوردي لانه يرددها في شعره ، فمن ذلك قوله في كلمة ثانية :

ومامُغْزِلٌ تعطو الأراكَ يَهُزُّهُ * نسيمٌ تناجيه الخمائلُ وانِ (١)

(١) المغزل : أم الغزال : الخمائل جمع خميلة وهى ألفاف الشجر

وتُزْجى بِرَوْقَيْها أغنَّ كأنهُ * من الضعف يطوى الأرض بالرَّسفَانِ (١)
فمال الى الظلّ الأراكىّ دُونها * وكانا به من قبلُ يرتديانِ
وضُبِّت عليه الطُّلْسُ وهى سواغبٌ * تجوبُ اليه البيدَ بالنسلانِ (٢)
فعادت اليه أُمّهُ وفؤادُها * هفاً كجناح الصقر فى الخفقَانِ
وظَلّتْ على الجرعاء وَلْهَى كئيبةً * وقد سال واديها بأحمَرقانِ
تَسُوف الثري طوراً ويعبث تارةً * بها أولقٌ من شدة الولَهَانِ (٣)
بأوجدَ منى يومَ سرْتُ الى الحِمى * وقد نزلتْ سمراءُ سَفْحَ أبانِ (٤)

ونحب أن نلفت القارئ الى ما فى أمثال هذه الصُّوَر الشعرية من الكلف بتصوير الطبيعة، وما فيها من حياة الحيوان، فقد أُغْرِمَ شعراء الغرب بهذا الأسلوب، فزاد شعرهم جمالاً الى جمال. ولولا الرغبة فى الايجاز لنقلت قطعة من شعر (ألفريد دى ميسّيه) تماثل شعر الأبيوردى فى هذا الجانب من البيان. والناس هم الناس، فى كل قُطْر، وفى كل جيل، والتبايُن قليل فى المُيُول، وفى تذوُّق ألوان الحياة، وإن عظُم الفرق حيناً فى التعبير عن نزَعات النفوس، وشهَوات العقول

ومن خالد الشعر فى ثورة الوجد نونيَّة الوزير ابن زيدون، وقد رأينا أن نُثبتها هنا كاملة — كما فعل المَقَّرِى صاحب نفح الطيب — لأنها ذكرت مفرقة فى أكثر المؤلفات.

أضحى التنائى بديلاً من تدانينا * وناب عن طِيب لُقيانا تجافينا

(١) الرسفان : المشي فى القيد (٢) الطلس : الذئاب . والسواغب : الجياع . والنسلان : مشى الذئب اذا اسرع (٣) تسوف : تشم . الاولق : الجنون (٤) أبان : جبل شرقى الحاجر فيه نخل

من مُبلغ المُلبسينا بانتزاحهمُ * حزْناً مع الدهر لايَبلى ويُبلينا
أن الزمان الذى قد كان يضحكنا * أُنْساً بقربهمُ قد عاد يُبكينا
غيظ العِدا من تَساقينا الهوى فدعَوْا * بأن نَغَصّ فقال الدهر آمينا
فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا * وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا
بالأمس كنّا وما يُخشى تفرُّقنا * فاليومَ نحن وما يُرْجى تلاقينا
ياليت شعرى ولم نُعتب أعاديكمْ * هل نال حظّاً من العُتْبى أعادينا[1]
لم نعتقدْ بعدكم إلا الوفاء لكم * رأياً ولم نتقلد غيره دينا
كنا نرى اليأس تُسْلينا عوارضهُ * وقد يئسنا ، فما لليأس يُغرينا
بنتمْ وبِنّا فما ابتلّت جوانحُنا * شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
نكاد حين تُناجيكم ضمائرُنا * يقضى علينا الأسى لولا تأسّينا[2]
حالَتْ لبُعدكمُ أيامنا فغَدَت * سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانبُ العيش طلْقٌ من تألّفنا * ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هَصَرْنا فنون الوصل دانيةً * قطوفها فجنينا منه ماشينا
ليُسقَ عهدكمُ عَهْدُ السرور فما * كنتم لأرواحنا إلاّ رياحينا
لاتحسبوا نأيكم عنّا يُغَيّرُنا * إذ طالما غيّر النأىُ المحبينا
والله ما طلبت أهواؤُنا بدلا * منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

*
* *

ياساريَ البرق غادِ القصرَ فاسق بهِ * من كان صِرْفَ الهوى والود يسقينا
واسأل هنالكَ هل عنّى تذكُّرنا * إلفاً تذكُّرُه أمسى يعنّينا[3]

(١) أعتبه : أرضاه • والعتبى : الترضية • (٢) التأسّى : التعزى (٣) عناه: أشقاه

ويانسيم الصبا بلغ تحيتنا * من لو على البعد حياً كان يحيينا
وبيت ملك كأن الله أنشأه * مسكاً وقد أنشأ الله الورى طينا
أوصاغه ورقاً محضاً وتوجه * من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا[١]
إذا تأود آدته رفاهية * تدمى العقول وأدمته البرى لينا[٢]
كانت له الشمس ظئراً في تكلله * بل ما تجلى بها إلا أحايينا[٣]
كأنما نبتت في صحن وجنته * زهر الكواكب تعويذاً وتزيينا
ماضر أن لم نكن أكفاءه شرفاً * وفي المودة كاف من تكافينا[٤]
ياروضة طالما أجنت لواحظنا * ورداً جناه الصبا غضاً ونسرينا
وياحياة تملانا بزهرتها * منى ضروباً ولذات أفانينا[٥]
ويا نعيماً خطرنا من نضارته * في وشي نعمى سحبنا ذيله حينا
لسنا نسميك إجلالاً وتكرمة * فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
اذا انفردت وما شوركت في صفة * فحسبنا الوصف ايضاحاً وتبيينا

*
* *

ياجنة الخلد أبدلنا بسلسلها * والكوثر العذب زقوماً وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا * والسعد قد غض من أجفان واشينا
سران في خاطر الظلماء تكتمنا * حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
لاغرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت * عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً * مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

(١) ورق ككتف : الفضة . (٢) تأود : تثنى . آدته : أثقلته . البرى : الخلاخيل
(٣) الظئر من معانيه جانب القصر (٤) التكافى : التكافؤ والتماثل (٥) تملانا : تمتعنا

أمَّا هواكَ فلم نَعْدِلْ بمشربهِ * شِرباً وإن كان يُرْوينا فيُظمينا[1]

لم نَجفُ أُفقَ جمالٍ أنتِ كوكبُهُ * سالينَ عنهُ ولم نهجره قالينا

ولا اختياراً تجنَّبناكِ عن كثبٍ * لكن عدَتْنا على كُرْهٍ عوادينا[2]

نأسى عليك إذا حُثَّت مشعشعة * فينا الشمول وغنَّانا مُغنينا

لا أكْؤُس الراح تبدى من شمائلنا * سِيما ارتياحٍ ولا الأوتار تلهينا

دومى على العهد مادمنا محافظةً * فالحر من دانَ إنصافاً كما دِينا

فما استعضْنا خليلا عنك يحبسنا * ولا استفدنا حبيباً منك يُغنينا

ولو صبَا نحونا من أُفقِ مَطْلَعِهِ * بدرالدجى لم يكن حاشاكِ يصبينا

أَوْلِى وفاءً وإن لم تبذلى صلةً * فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا

وفى الجواب شفاءٌ لو شفَعْتِ به * بيضَ الأيادى التى مازلت تولينا

وقد أُغرِمَ الشعراء بتخميس هذه القصيدة ، وتسديسها ، وتشطيرها ، وكذلك شغلت الأذهان زمناً غير قليل . وقد أرسل ابن زيدون هذه القصيدة الى معشوقته ولادة ، وهى سيدة أندلسية ظريفة من بنات الخلفاء الأمويين ، وقد كانت فى جمالها شاعرة مجيدة ومن شعرها هذان البيتان تدعو بهما ابن زَيْدُون :

ترَقَّبْ إذا جَنَّ الظلام زيارتى * فأنى رأيتُ الليلَ أكْتَمَ للسرِّ

وبى منك مالو كان بالفجر لم يَلُحْ * وبالليل لم يُظلم وبالنجم لم يَسْرِ

ولابن زيدون فى ولادة مقطعات حِسَان ، كقوله :

واهاً لعَطفك والزمان كأنما * صُبِغَت نضارتهُ ببرد صباكِ

(١) الشرب بكسر الشين كالمشرب وهو المورد (٢) عن كثب : عن قرب

والليل مهما طال قصَّر طوله * هاتي، وقدغفل الرقيب، وهاكِ
أمَّا مُنَى نفسى فأنت جميعُها * ياليتنى أصبحتُ بعض مُناكِ
يُدْنى مثالكِ حين شطَّ به النوى * وهمٌ أكادُ به أقبِّل فاكِ

ومن موجع الشعر قوله

بينى وبينك مالو شئت لم يضعِ * سرٌّ اذا ذاعت الاسرار لم يَذعِ
يابائعاً حظهُ منى ولو بُذلتْ * لىَ الحياةُ بحظى فيه لم أبعِ

ولصديقنا الأستاذ أنيس ميخائيل وَلَعٌ غريب بانشاد قول ابن زيدون :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا * والأفق طلقٌ ووجه الروْض قدراقا
وللنسيم اعتلالٌ فى أصائله * كأنما رقّ لى فاعتلّ إشفاقا
والنهر عن مائه الفِضىِّ مبتسمٌ * كما حللْتَ عن اللبّات أطوقا
يومٌ كأيام لذاتٍ لنا انصرمت * بتنا لها حين نام الدهر سُرّاقا
نلهو بما يستميل العين من زَهَرٍ * جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأنّ أعينهُ إذ عاينتْ أرقى * بكت لما بى فجال الدمع رقراقا
وردٌ تألّق فى ضاحى منابتهِ * فازداد منه الضحى فى العين إشراقا
سرى ينافحهُ نَيْلوفرٌ عبِقٌ * وَسْنان نبّه منه الصبح أحداقا
كلٌ يهيج لنا ذكرى تشوقنا * إليك لم يعدُ عنها الصدر أنْ ضاقا
لو كان وفّى المُنى فى جمعنا بكمُ * لكان من أكرم الأيام أخلاقا
لا سكّن الله قلباً عنّ ذكركمُ * فلم يَطر بجناحِ الشوق خفّاقا
لو شاء حملى نسيم الريح حين هفا * وافاكمُ بفتىً أضناه ما لاقى

كان التجازى بمحض الود مُذْ زمن * ميدان أُنْسٍ جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحمد ما كنا لعهدكمُ * سلوتمُ وبقينا نحن عُشاقا

وانى لمفتون بهذا الشطر الحزين :

سلوتمُ وبقينا نحن عُشاقا

فانه يمثل المحب ، وقد سلا أحبابه ، وبقى وحده يعانى آلام الوجد ، وأهوال الصدود

الارق والسهاد

شكا الشعراء قديماً وحديثاً طول الليل بعد الفراق ، وعند الهجر والصدود . فنهم من يستنجد محبوبه ، ويستعديه على وحشة الليل ، ومضاضة الأرق ، كقول الأبيوردى :

أأُمَيْمَ إن خَفِيَتْ عليك صبابتى * فَسَلِى ظلامَ الليل كيف أكونُ
واستخبرى عنى النجومَ فقد رأتْ * سَهَرى وأَزْوِقة الغياهب جُون
ولئن أذَلْتُ مَصونَ دمعى فى الهوى * فعلى البكاءِ يُعوِّلُ المحزونُ

وهذه الابيات من خير ما قال المحبون فى شكوى الوجد ، وعبثه بكرائم النفوس . ومنهم من يستعين من حوله ، ويرجوهم أن يحدثوه عن النهار ، أو يصفوه له ، فقد طال ليله ، حتى نسى النهار ، وأوصاف النهار ، كما قال ابن الاحنف :

أيها الراقدون حولى أعينو * نى على الليل حِسبةً وائتجارا
حدثونى عن النهار قليلا * أوصفوهُ فقد نسيت النهارا

وابن الأحنف يجيد شكوى الليل الطويل ، والسهاد المملول ، فمن ذلك قوله :

نامَ من أهدى لىَ الأرَقا * مُستريحاً سامنى قلقاً
لو يبيت النـاس كلهمُ * بسُهادى بيّض الحدَقا
أنا لم أُرْزق مودتكم * إنمـا للعبـد ما رُزِقا
كان لى قلب أعيش به * فاصطلى بالحب فاحترقا

وتوجعنى شكواه فى قوله :

أنا لم أُرزَق مودتكم * انما للعبد مارزقا

فقد تكلَفُ النفس بفتنة من فِتن الحسن فى هـذا الوجود ، ثم لاتجد إليها السبيل ، على أن هـذا الحسن قد يكون زمامه بيد من لا يشعر بروعة الجمال !

ومن الشعراء من يظعن أحبابه بالليل ، فيظعن بذلك الكرى عن جفونه . كالبحترى حين يقول

أمولَعةً بالبين ربَّ تفرّقٍ * جرحْتِ به قلبا بحبّكِ مولعا
ولى لوعةٌ تستغرق الهجر والنوىَ * جميعاً وحبٌ ينفِدُ الدمعَ أجمعا
على أن قلبى قد تصدع شملهُ * فنُونًا اشمل البيض حين تصدعا
ظعائنُ أظعَنَّ الكرى عن جفوننا * وعوّضْنَنَا منه سُهاداً وأدْمُعاً
نوينَ النوى ثم استجبْن لهاتفٍ * من البين نادى بالفراق فأسمعا
وحاولْن كتمان الترحل بالدجى * فنمَّ بهن المسك حين تضوّعا

وقد يفزع المحب الى تحكيم العدل والحق ، حين تطول لياليه .

كقول ابن الرومى

أيا شمسَ النهار سناً وعِزًّا * يُقصِّر عنهما نظَرٌ ولَمْسُ

أحِلٌّ أن تنامى عن سُهادى * ولى مذ بان عنى النومُ خَمْسُ

أُميِّز كل شئ من أمورى * سوى أمرى لديكِ ففيه لبْسُ

غرستْ هوًى فربِّيه بحفظٍ * فليس يُرَبُّ بالتضييع غَرْسُ

ومن الشعراء من يتفنن فى وصف الليل فيذكر أن نجومه أقسمت لاتزول . كقول أحدهم :

ألا هلْ على الليل الطويل مُعينُ * إذا نَزَحتْ دارٌ وحنَّ حزينُ

أُكابد هـذا الليل حتى كأنما * على نجمه أن لا يغورَ يمينُ

ووالله ما فارقتكم قالياً لكم * ولكنّ مايُقْضى فسوف يكون

ومنهم من يزيد على ذلك شوقه إلى تمزيق سرابيل الليل ، وظهور تباشير الصبح ، كقول خُنْدج بن خنْدج :

فى ليل صول تناهى العَرضُ والطولُ * كأنما ليلهُ بالليل موصولُ

لافارقَ الصبحَ كفّى إنْ ظفرتُ به * وإن بدت غُرّةٌ منهُ وتحجيل

لساهرٍ طال فى صولٍ تململهُ * كأنه حيةٌ بالسّوْطِ مقتولُ

متى أرى الصبحَ قد لاحت مخائلهُ * والليل قد مزِّقت عنه السرابيلُ

ليلٌ تحيّر ما ينحطُّ فى جهةٍ * كأنه فوق متن الأرض مشكول

نجومهُ رُكّدٌ ليست بزائلةٍ * كأنما هُنَّ فى الجوِّ القناديلُ

ما أَقدرَ اللهَ أن يُدْنى على شحَط * من دارهُ الحَزْن ممن دارهُ صول

الله يطوى بساط الأرض بينهما * حتى يُرَى الربع منهوهو مأهول

نعم وما أَقدرَ الله أن يُدْنى على النوى من دارُهُ سِنْتَرِيس ممن دارُهُ أسيوط

لَوَدِدْتُ إذْسكنوا هنالكَ دارَهم * وعَدَتْهُمُ عَنَّا أُمورٌ تَشْغَلُ

أنَّا نُطاعُ إذنْ فتُنْقَلُ أرضنا * أو انَّ أرضَهُمُ إلينا تُنْقَلُ

وقد شبه ابن الرومى نجوم الليل بنجوم الشيب حين قال :

رُبَّ ليلٍ كأنَّهُ الدهر طولاً * قد تناهى فليس فيه مزيدُ

ذى نجومٍ كأنهنَّ نجوم الشيـــــب ليست تزول لكن تزيدُ

قال أبو بكر الوليد بن البزاز : كان على بن الجهمْ يستنشدنى كثيرا شعر خالد الكاتب فأنشده فيقول : ماصنع شيئاً . ثم أنشدته يوما قوله :

رقَدْتَ ولم ترثِ للساهرِ * وليلُ المحبِّ بلا آخرِ

ولم تدر بعد ذَهاب الرُّقا * دِ ماصنع الدمع بالناظرِ

فقال : قاتلَهُ الله ! لقد أدْمَنَ الرَّمْية حتى أصاب الغرَّة ! وجال هـذا الشعر يرجع الى شكوى المحب ماصنع الدمع بناظره بعد جفوة النوم .

ومثله قول أبى العتاهية :

أمسى ببغداد ظبيٌ لست أذكرهُ * إلا بكيتُ اذا ماذكره خَطَرا

إن المحب اذا شطّتْ منازلهُ * عن الحبيب بكى أو حنّ أو ذكرا

يارُبَّ ليلٍ طويلٍ بتُّ أَرقبهُ * حتى أضاءَ عمود الصبح فانفجرا

ما كنت أَحْسبُ إلاَّ مُذْعرفتكمُ * أن المضاجع مما يُنبتُ الإِبَرَا

والليل أطول من يوم الحساب على * عين الشجىّ إذا مانومُهُ نَفَرا

ومن المحبين من يخاطب الليل . فيذكر فى خطابه أن بعض مابه كافٍ لمحو الليل لو عَرَض له . كقول سعيد بن حُميد :

ياليل بل يا أَبَدُ * أنائمٌ عنك غَدُ

ياليلُ لو تلقى الذى * ألقى بها أو نجدُ

قصَّر من طولك أوْ * ضُعِّفَ منك الجَلَدُ

أشكو الى ظالمةٍ * تشكو الذى لاتجدُ

وَقفْتُ عليها ناظرى * وقفتُ عليها السُّهُدُ

وأودُّ لو تنبه القارئ إلى حسن هذا البيت :

أشكوا إلى ظالمةٍ * تشكو الذى لاتَجِدُ

وقد ذكر الفرَزْدَق العلة فى طول الليل فقال :

يقولون طال الليلُ والليل لم يطل * ولكنَّ من يبكى من الشوق يَسْهرُ

وقد تابعه بشار فى هذا المعنى فقال :

لم يَطُلْ ليلى ولكن لم أنَمْ * ونفى عنى الكرى طيفٌ أَلَمّْ

وإذا قلت لها جودى لنا * خرجَتْ بالصمْت عن لاونعم

نفِّسى ياعبْدَ عني واْعلمى * أننى ياعبْدَ من لحمٍ ودَم

إنّ فى بُردَىَّ جسمًا ناحلاً * لو توكّأْتِ عليه لانْهدم

وقد ردَّد هذا المعنى فى كلمة ثانية فقال :

طال هذا الليل بل طال السهر * ولقد أعرف ليلى بالقِصَر

لم يطل حتى جفانى شادنٌ * ناعم الأطراف فتّان النظر

لىَ في قلبىَ منــهُ لوعةٌ * ملــكتْ قلبي وسمعي والبصر
وكان الهم شخصٌ ماثلٌ * كلما أبصره النومُ نَفَر

على أن بشارا يتخطى هذا الحد ، فيجارى الشعراء ، ويحسب أن ليس لليله نهار ، وذلك فى قوله :

أقول وليلتى تزداد طولاً * أما لليــل بعدهمُ نهارُ
جفت عيني عن التغميض حتى * كأنّ جُفونَها عنها قِصارُ

وليس للبيت الثاني قيمة من الوجهة الأدبية ، لأن الغمض لا يجفو العيون ، لقِصَر الجفون ، كما يقول . وانما يجفوها لثورة الوجد ، وهجمة الأَشجان !

ويقول فى كلمة ثانية :

خليلىّ ما بال الدجى لا تَزَحزحُ * وما لعمود الصبح لا يتوضَّحُ
أضلّ النهار المستنير طريقَهُ * أم الدهر ليل كله ليس يبرحُ
وطال علىّ الليل حتى كأَنهُ * بليلين موصول فما يتزحزح

والبيت الاخير يذكرنى بقول صاحب البدائع :

وجنَّ علىّ الليل حتى حسبتُهُ * جفاءَ كريمٍ أو رجاءَ لئيمِ

وإن كان هذا فى الحديث عن ظلام الليل ، لا عن طوله
وتروقنى البساطة فى قول سويد ابن أبى كاهل

وإذا ماقلت ليلٌ قد مضى * عطف الاول منــه فرجعْ
يسحب الليل نجوماً ظُلَّعًا * فتواليها بطيئات التبَعْ

والخيال هنا خيال بادية . ولـكنه فى بداوته بديع . وقول الآخر

سلوا مضجعي هل قرّ من بعد بُعدكم * وهل عرفتْ طعم الرقاد جفوني

سهرنا بنعمانٍ ونمتم ببابلٍ * فيا لَعيونٍ ماوفتْ لعيونِ

وهو يذكرني بقول بعض الأعراب :

لعمري لئن كنتم على النأى والغنى * بكم مثل مابي إنكم لصديقُ

فما ذقت طعم النوم منذ هجرتكم * ولا ساغ لي بين الجوانح ريق

إذا زفرات الحب صعّدن في الحشا * كررْن فلم يُعلم لهنّ طريقُ

ومما جمع بين الشكوى من ليل الفراق ، وذكرى ليل الوصال قول عبد الرحمن بن هشام

طال عمر الليل عندي * مذ تولعتَ بصدي

ياغزالا نقض العهـــدَ ولم يوفِ بوعد

أنسيت العهد اذبتـــنا على مفرَش وردِ

واجتمعنا في وشاحٍ * وانتظمنا نظم عِقدِ

ونجوم الليل تحكي * ذهبا في لازوَرْدِ

ومن الشعراء من لايبالي طول الليل في غيبة الحبيب ، كقول ابن زيدون

ياليل طُلْ لا أشتهي * إلاّ لعهدي قِصَرَكْ

لو بات عندي قمري * مابتُّ أرعى قمركْ

وليالي القمر في سنتريس عذبة المذاق ، شهيّة الورود ، وما أحسب المصريين عبدوا النيل إلاّ حين رأوه يداعب القمر في ضواحي سنتريس ، ذات الظِّلال والأفنان

ليالىَ النيل واللذاتُ ذاهبةٌ * وجدى عليكنّ أشجانى فأضنانى

لو يرجع الدهر لى منكنّ واحدةً * فى سنتريس ويُدني بعض خُلاّنى

إذن تبينّ دهرى كيف يرحمنى * من ظلم همّى ومن عدوان أحزانى

وقد أجاد شعراء العصر وصف الأرق فى الليل الطويل . فمن ذلك قول شوقى

بدأ الطيف بالجميل وزارا * يارسول الرضا وقيت العثارا

خُذ من الجفن والفؤاد سبيلا * وتيمّمْ من السويداء دارا

أنت إن بتّ فى الجفون فأهل * عادة النور ينزل الابصارا

زار والحرب بين جفنى ونومى * قد أعدّ الدُّجى لها أوزارا

سألتنى عن النهار جفونى * رحم الله ياجفونى النهارا

قلنَ نبكيهِ قلت هاتى دموعاً * قلْنَ صبراً فقلت هاتى اصطبارا

ياليالىَّ لم أجدكِ طوالاً * بعد ليلى ولم أجدكِ قِصارا

إن من يحمل الخطوب كباراً * لايبالى بحملهنّ صغارا

لم نفقْ منك يازمان فنشكو * مُدْمن الخمر ليس يشكو الخُمارا

وقال حافظ :

سكن الظلامُ وبات قلبك يخفقُ * وسطا على جنبيك همٌّ مُقلِقُ

حارَ الفراش وحِرْت فيه فأنتما * تحت الظلام معذَّبٌ ومؤرّقُ

دَرجَ الزمان وأنت مفقود المنى * ومضى الشباب وأنت ساهٍ مطرِق

وقال القاياتى :

جنّ الظلام فما يزاح * ياويلتا أين الصباحْ

ليلٌ كأن نجومهُ * يطلعن فى كَبِدى جراح
يامن أتاح لىَ الاسى * بَرْدُ الفؤاد منّى يتاح
قلبٌ أساه لاعجٌ * لولا تحجّبهُ لفاحْ
مابال دمعى يُستبا * حُ وحاجنى ليست تباح

وقال العقاد يخاطب الليل

طويتَ أزمّةَ الأجساد منّا * فدانت وانطوت عنك القلوبُ
فما تدرى أتسكن حين مالت * إلى تلك المضاجع أم تجوب
وما تدرى أباتت فى جحيم * أم الجنات مرتعها الخصيبُ
وما تدرى أيسمع فى دجاها * هتافٌ للبلابل أم نعيب
عقدت من الكرى وطنا رفيقاً * وكل مسهّدٍ فيه غريب
تضيق به الوسائد والحشايا * وتلفظه المسالكُ والدروب
وحيدٌ لا يقاربهُ بعيدٌ * ولا يدرى بلوعته القريبُ
فيا وطن النيام بكل فجٍّ * أمن حَرَجٍ بك السُّهْدُ المريب
وياسكَن الأحبةِ والأعادى * أليس بساحلَيْك لنا نصيب
ويادار السلام بأى سَدٍّ * يصدُّ الطرفَ مربعك الرحيب
لئن هجعت بساحتك المآقى * لماهجعَتْ بساحتك الخطوب
كأن جموعهنّ سباع ليلٍ * تبيت على فرائسها تلوب
فهل عند الظلام لنا حديث * يحاذر أن يُلمَّ به رقيبُ
أم ادّخر الظلامُ لنا متاعاً * يضن بمنحِهِ الحلمُ الكذوب
سهرْنا ياظلام فلم يصبنا * على طول المدى الا الشحوب

وإلاّ حُلكةً فيها تلاقى * سوادالقلب والطرف الكئيبُ

والعقاد يكثرفى شعره من شكوى الليل الطويل ، وقد يُشجيك حين ينظر إلى نفسه فيحسبها من اليأس أمستْ وهى خراب ينعب على اطلالها البوم . وانظر كيف يقول :

وناعبةٍ صاحتْ والليل هجعةٌ * فقال علامَ البُومُ ينعَبُهُ ناعيا

لَقُبِّحْتِ من عمياءَ تقرأُ فى الدجى * اذا اسودَّ أسطارالخراب الخوافيا

فقلتُ على النفس التى سوف تغتدى * طُلولاً بأحناء الضلوع حوانيا

تجوسُ أفاعى الحزن فى جنباتها * ويا ربما تُؤوى الضلوعُ الأفاعيا

فلا تحسبنَّ البومَ تنعى المغانيا * فقد تندب البوم النفوس البواليا

وكم وحشةٍ للنفس يخشى اقتحامها * أخو غمراتٍ ليس يخشى الفيافيا

وما أجمل قوله فى هذه القصيدة

ولما تقضَّى الليل إلا أقلَّهُ * وحان التنائى جِشْتُ بالدمع باكيا

فأقبل يرعانى ويبكى وربما * بكى الطفل للباكى وان كان لاهيا

وزحزحنى عنه بكف رفيقةٍ * وأسْبل أهداب الجفون السواجيا

يقول لقد ران الكرى و تفرقت * نجوم الدجى والديك أصبح داعيا

فقلت وكم من ليلةٍ إثْر ليلةٍ * سهرتُ وقد أمسيتَ وحدكَ غافيا

فهبْ لوداعى من رقادك ليلةً * تمرُّ فانى قد وهبتُ حياتيا

وأسلَمْتُ كفى كفهُ فأعادها * وقلبى ! فهلا أرجعَ القلب ثانيا ؟

الطبيعة فى أنفس الشعراء

لقد أكثر شعراء الغرب من الحديث عن الطبيعة ، حتى لتحسب أن ذلك سمة من سماتهم ، لا يشاركهم فيها أحد من العالمين

ونريد أن نبين فى هـذه الكلمة أن شعراء العرب وردوا هـذا المنهل ، ونقعوا صداهم بمائه العذب الفرات ، فان الطبيعة مِلْك لجميع العيون ، فى جميع الأقطار . والشعور بها ، والجنوح إليها ، من حاجات الفِطرة ، التى تسوّى بين مختلف الشعوب ، والتى تجمع حولها شتّى العواطف والاهواء

ونحن نعلم أن شعراء الغرب أكثروا من وصف السحاب : إذْ كانت بلادهم غزيرة المطر ، واذ كانت آذانهم ، وأبصارهم ، أليفة لدوىّ الرعد . ولمع البرق . على أن شعراء العرب لم يقصروا فى هـذا الباب . ويكفى أن نذكر قول البحترى يصف سحابة :

ذات ارتجازٍ بحنين الرّعْدِ * مَجْرورَةُ الذيل صدوق الوعْدِ
مسفوحة الدمع لغير وجْدِ * لهـا نسيمٌ كنسيم الورْدِ
ورنّةٌ مثل زئير الأُسْدِ * ولَمْع برقٍ كسيوفِ الهِندِ
جاءت بها ريح الصَّبا من نجدِ * فانتثرتْ مثل انتثار العِقدِ
فراحتِ الأرض بعيش رغْدِ * من وَشْى أنوار الرُّبى فى بُرْدِ
كأنمـا غُدْرانها فى الوهْدِ * يلعبن من حَبَابها بالنرْدِ

ومن أظهر الدلائل على سكون العرب الى الطبيعة ، وإخلادهم

الى مواردها الشهية أنهم يقرنون الحنين الى معاهدهم بالدعاء لها بالسقيا وتروُّاح النسمات . واليك قول الشريف :

أمعاهدَ الأحباب هل عَوْدٌ الى * مغدًى نَبُلُّ به الجوى ومَرَاحِ
يكفيك من أنفاسنا ودموعنا * أن تُمطري من بعدنا وتراحِي
فلربّ عيش فيك رقّ نسيمهُ * كالماء رقَّ على جنوب بطاحِ
وتغزّل كصبا الأصائل أيقظت * ريّا خُزامى باللوى وأقاحِ
كم فيك من صاحي الشمائل مُنتش * بالدّل أو مرضى العيون صِحاحِ
فسقى اللوى صَوْب الغمام ودرّهُ * وسقى النوازلَ فيه صوْب الراحِ

وقد يقوى شعورهم «بشخصية» الطبيعة ، حتى ليخاطبون الفلَكَ الدائر ، وينذرونه بالفناء ! انظر قول البحترى :

أناةً أيها الفَلَكَ المُدارُ * أنهب ماتصرّف أم جُبارُ
ستفنى مثل ماتُفنى وتبلى * كما تُبلى فيدرك منك ثارُ
تُناب النائبات اذا تناهت * ويدمر فى تصرفه الدمارُ
وما أهل المنازل غير ركبٍ * مطاياهم رواحٌ وابتكارُ

وانظر قول أبى القاسم ابن هانىءٍ .

تفنى النجوم الزُّهرُ طالعةً * والنيّرانِ الشمسُ والقمرُ
ولئن تبدّت فى مطالعها * منظومةً فلسوف تنتثر
ولئن سعى الفلكُ المُدار بها * فلسوف يُسلمها وينفطرُ

وانظر قول العتّابى فى وَداع جارية له :

ماغَناءُ الحِذار والاءشفاق * وشآبيب دمعك المُهْراقِ

ليس يقوي الفؤاد منك على الوجـــد ولا مقلتا طليح المآقي
غدرات الأيام منتزعاتٌ * ماجنينا من طول هذا العناق
إن قضى الله أن يكون تلاقٍ * بعد ما تنظرين كان تلاقِ
هونى ماعليك واقنى حياءً * لستِ تبقين لى ولست بباقِ
أينا قدمتْ صروف المنايا * فالذى أخرت سريع اللحاقِ
غرٌ من ظن أن تفوت المنايا * وعراها قلائد الأعناقِ
كم صفيينْ متعا باتفاقٍ * ثم صارا لغربةٍ وافتراق
قلت للفرقدين والليل ملقٍ * سودَ أكنافه على الآفاق
ابقيا مابقيتما سوف يرمى * بين شخصيكما بسهم الفراق

وانما قلت « شخصية الطبيعة » لأدل القارئ على مبلغ ماسما اليه العرب حين كلفوا بالنظر الى الوجود ... وانظر قول الحسن بن وهب فى وصف النار وقد نفرت منها إحدى الجوارى الحسان :

بأبى . كرهت النار حتى أبعدَت * فعلمت مامعناك فى إبعادها
هى ضَرةٌ لكِ فى التماع ضيائها * وهبوب نفحتها لدى إيقادها
وأرى صنيعك فى القلوب صنيعها * بسيالها وأراكها وعدادها
شَرَكتكِ فى كل الأمور بفعلها * وضيائها وصلاحها وفسادها

ولينظر القارئ نظرة خاصة الى قول على بن شعيب

انزعى الوشىَ فهو يستر حسناً * لم تحزْهُ برقمهنَّ الثيابُ
ودعينى عسى أقبل ثغراً * لذَّ فيه اللمى وطاب الرضابُ
وعجيبٌ أن تهجرينىَ ظلماً * وشفيعى الى صباك الشبابُ

فانّا نجده تخطّى كل الأسوار الصناعية التى يحيط بها الشعراء أغراضهم ، ثم هجم على المعنى وأخذ بنواصيه ، حين قال « وشفيعى الى صباك الشباب » ولم يقل : وشفيعى الى صباك حبى وهيامى ، ووجدى وغرامى ، وخشوعى وخضوعى . الى آخر مايقول المتيمون !

وانظر قول محمد البطليوسى :

غصبوا الصباح فقسموه خدودا * واستنهبوا قُضُبَ الأراك قدودا

ورأوا حصا الياقوت دون محلهم * فاستبدلوا منه النجوم عقودا

واستودعوا حدق المها أجفانهم * فسبوا بهنّ ضراغماً واسودا

لم يكفهم حمل الأسنّة والظُّبا * حتى استعانوا أعينا ونهودا

وتضافروا بضفائرٍ أبدت لنا * ضوء النهار بليلها معقودا

صاغوا الثغور من الأقاحى بينها * ماء الحياء لواغتدى مورودا

ويكاد هـذا الشعر يكون عبادة للطبيعة ، ولن يغيب على أحد مافيه من سُموّ الخيال

وانظر كيف يكون كمون الحتف فى الجفون ، وكمون الموت فى السيوف . فى قول السّرىّ الرّفاء :

بنفسى من أجود له بنفسى * ويبخل بالتحية والسلامِ

ويلقانى بعزّةِ مستطيلٍ * وألقاه بذلة مستهامِ

وحتفى كامنٌ فى مُقْلتيهِ * كُمُون الموت فى حد الحسام

ويجيد شعراء العرب حين يمزجون وصف الطبيعة بالمعانى الوجدانية

فكأنما يريدون أن يشركوا الوجود فى نعيمهم وبؤسهم . وهذا فى ذاته ملحَظ بديع . ولننظر قول صرّدر :

يقول خليلى والظباء سوانحٌ * أهذى التى تهوى؟ فقلت نظيرها
لئن أشبهت أجيادها وعيونها * لقد خالفت أعجازها وصدورها
فياعجباً منها يَصُدّ أنيسها * ويدنو على ذُعْر الينا نَفُورُها
وماذاك إلاّ أنّ غِزْلان عامرٍ * تَيقَّن بأن الزائرين صُقُورُها
ووالله ماأدرى غداةَ نظرْنَنا * أتلك سهامٌ أم كؤوسٌ تديرها
فان كنّ من نبلٍ فأين حفيفها * وإن كنّ من خمرٍ فأين سرورها
أيا صاحبىّ استأذنا لى خُمْرها * فقد أذِنت لى فى الوصال خدورها
هباها تجافتْ عن خليلٍ يروعها * فهل أنا الا كالخيال يزورها
وقد قلتما لى ليس فى الأرض جنةٌ * أما هذه فوق الركائب حُورها
فلا تحسبى قلبى طليقاً فانما * له الصدر سجنٌ وهو فيه أسيرها
أراكَ الحمى قل لى بأى وسيلةٍ * وصلت الى أن صادفتك ثغورها
وان فروع البان من أرض بيشةٍ * حبيبٌ إلىّ ظِلها وحَرُورُها
ألذّ من الورد الجنىّ عَرارُها * وأحلى من الشهد المصفّى بريرها
على رِسلكم فى الحب إنا عِصابةٌ * إذا ظفرتْ فى الحب عفّ ضميرها

ولسنا بصدَد الموازنة بين شعراء الغرب والشرق فى النظر الى الطبيعة ، فان هذا باب طويل . وانما نشير فقط الى أن الناس سواء فى الاحساس بمظاهر الوجود . وانما يختلفون فى طرائق التعبير ، وأساليب البيان :

مداراة الرقباء

للعشاق أساليب مختلفة فى معاملة الرقباء والوشاة . فمنهم من يداريهم ويرصد غفلتهم . كقول ابن المعتز :

أردُّ الطرف من حَذَرى عليه * وأمنحه التجنُّبَ والصدودا
وأرصد غفلة الرقباء عنهُ * لتسرقَ مقلتى نظراً جديداً

وكقول السرى الرفّاء :

ونواظرٍ وجد المحب فتورها * لما استقلّ الحىُّ فى أَعضائه
ما كان هذا البين أول جمرةٍ * أذكت لهيب الشوق فى أحشائه
لولا مساعدة الدموع ودفعها * خوف الفراق أتى على حوبائهِ [1]
وأنا الفداء لمن مَخيلةُ برقِهِ * حظى وحظ سوایَ من أنوائه
قمرٌ إذا ما الوشْى صِينَ أذالهُ * كيما يصون بهاءه بدهائه [2]
خَفِرُ الشمائل لو ملكت عِناقهُ * يومَ الوداع وهبته لحيائهِ
ضَعُفَتْ معاقد خَصرهِ وعهودُه * فكأن عَقْد الخصر عَقد وفائهِ
أدنو الى الرقباء لا من حبهم * وأصد عنه وليس من بغضائهِ

وفى هذا المعنى يقول عبد الله بن كعب العُميْرى :

أيا نخلتَىْ مَرّانَ هل لى اليكما * على غَفلات الكاشحين سبيلُ
أُمنيكما نفسى اذا كنت خالياً * ونَفعكما إلاّ العناءَ قليل
ومالىَ شىءٌ منكما غير أننى * أُمنِّى الصدى ظِلّيكما فأُطيل

(١) الحوباء : النفس (٢) أذاله : أهانه

ومن المتيمين من يرجو من محبيه مقارعة الوشاة . كقول أحد الشعراء :

تبدّل هذا السِّدر أهــلا وليتنى * أرى السِّدر بعدى كيف كان بدائله
وعهدى به عذْبَ الجنى ناعَم الذُّرى * تطيب وتَنْدى بالعشىِّ أصائله
فما لك من سدْرٍ ونحن نحبهُ * اذا ما وشى الواشى بنا لا تجادله
كما لو وشى بالسدر واش رددتُه * كئيباً ولم تَصلُحْ لدينا شمائله

وكقول كُثيِّر :

فياعزّ إنْ واشٍ وشى بِيَ عندكم * فلا تكرميه أن تقولى له أهلا
كما لو وشى واشٍ بعزةَ عندنا * لقلنا : تزحزحْ لا قريباً ولا سهلا

وقد يُعنى المحب بتكذيب الوشاة ، فيما ادَّعوا من سلوانه ، كقول أبى حية النميرى

وخبّركِ الواشون أن لن أُحبكم * بلى وستور الله ذات المحارم
وإن دماً لو تعلمين جنيتِهِ * على الحىِّ جانى مثلهِ غيرُ سالِم
أصدّ وما الصد الذى تعلمينه * عزاءً بنا إلا ابتلاع العلاقم
حياءً وتقْيا أن تشيع نميمةٌ * بنا وبكم ، أُفٍّ لأهل النمائم

ومن المعذبين من يشجيه أن لا ينفع العذل عنده ، فى حين أن من يهواه يأتمر بأمر الوشاة . ويسمع نُصح اللائمين

فمن ذلك قول الأبيوردى :

رمتنى بسهم راشه الكحل بالردى * وأقتل ألحاظ المِلاح كحيلُها
مريضة أرجاء الجفون وانما * أصحُّ عيون الغانيات عليلها

فولت وقد أبقت بقلبى علاقة * تمر بها الايام وهى مقيلها
وقلت لأدنى صاحبىّ وقد وشى * بسرّىَ دمعى إذ تراءت حمولها
ذَر اللوم إنى لست أُرعيك مسمعى * فتلك هوى نفسى وأنت خليلها
وليت لسانا أرهف العذل غربهُ * على الصبّ مفلول الشباة كليلها
أردّ عذولى وهو يمحضنى الهوى * بغيظٍ ، ويحظى بالقبول عذولها
ويعتادنى ذكر العقيق وأهله * بحيث الحمام الوُرْقُ شادٍ هديلها
تنوح وتبكى فوق أفنان أيكةٍ * فِدَاهنّ من أرض العراق نخيلُها
ولولا تباريح الصبابة لم أُبَلْ * بكاها ولا أذرى دموعى عويلها

ومن بديع الشعر فى مدافعة الوشاة ، قول الرصافى الاندلسى فى غلام حائك :

قالوا وقد أكثروا فى حبه عذَلى * لو لم تهم بمُذال القدر مبتذلِ
فقلت لو كان أمرى فى الصبابة لى * لاُخترت ذاك ولكن ليس ذلك لى
علقتهُ حَبَبِىَّ الثغر عاطِرَهُ * حلو اللمى ساحرَ الاجفان والمقَلِ
غُزَيِّلٌ لم تزل فى الغزل جائلةً * بنانُهُ جوَلان الفكر فى الغزَلِ
جزلان تلعبُ بالمحوَاك أنملهُ * على السَّدى لعب الأيام بالأجَلِ
ضمًّا بكفيهِ أو فحصاً بأخمصهِ * تَخبُّط الظبى فى أشراكِ مُحْتبِلِ

وأحب لو تأمل القارىء هذه (الصورة الشعرية) التى تمثل هذا الحائك الجميل . بالظبى يتخبط فى الأشراك . وإنها لوثبة من وثبات الخيال :

بخل الحسان

نذكر هنا طرفاً مما قال الشعراء فى بُخْل الحِسان : وكل حسناء بخيلة ، وكل جميلٍ ضنين ! وأشهر الشعر فى هذا المعنى قول مهيار :

يا لُواة الدَّيْن عن ميسرةٍ * والبخيلاتُ وما كُنّ لئاما
حَمِّلوا ريح الصبا نَشْرَكُمُ * قبل أنْ تحملَ شيحاً وخُزامى
وابعثوا لى فى الكرى طيفكمُ * إن أذِنْتم لجفونى أن تناما

ويجمل بنا أن نذكر قصيدة كُثيِّر التائية ، ففيها صورة شعرية لصدق اللوعة ، عند بخل الحبيب . وهى فوق ذلك غُرة من غُرَر الآداب العربية . قال :

خليلىَّ هــذا ربع عَزّةَ فاعقلا * قَلُوصَيكما ثم ابكيا حيث حلّتِ
وما كنت أدرى قبل عزة ما البكا * ولا موجعات القلب حتى تولتِ
فقد حلفت جَهْدا بما نحرت لهُ * قُرَيْشٌ غداةَ المأزِمَيْن وصلتِ
أناديك ما حج الحجيجُ وكبرت * بفيفا غزالٍ رُفقةٌ وأهلتِ
وكانت لقطع الحبل بينى وبينها * كناذرة نذراً فأوفت وحلتِ
فقلت لهــا ياعز كل مصيبةٍ * اذا وُطِّنت يوماً لها النفس ذلت[1]
ولم يلق إنسانٌ من الحب ميعةً * تعمّ ولا غمّاءَ الا تجلتِ[2]
كأنى أنادى صخرةً حين أعرضت * من الصُّمّ لو تمشى بها العُصْمُ زلتِ[3]

---

(١) ذلت : هانت (٢) الميعة والغماء . الشدة . وتجلت : انصرفت (٣) العصم : جمع أعصم وهو من الظباء والوعول ما فى ذراعيه أو إحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر . وزلت : زلقت

صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلةً * فمن مل منها ذلك الوصل ملتِ (١)
أباحت حِمًى لم يرْعَهُ الناس قبلها * وحلت تلاعاً لم تكن قبلُ حُلتِ (٢)
فليت قلوصى عند عزة قُيِّدت * بحبل ضعيف غُرَّ منها فضلتِ
وغودر فى الحىّ المقيمين رحلُها * وكان لها باغٍ سوايَ فبلت (٣)
وكنت كذى رجلين رجل صحيحةٍ * ورجل رمى فيها الزمان فشلّتِ
وكنت كذات الظلع لما تحاملت * على ظلعها بعد العثار استقلتِ (٤)
أريد الثواءَ عندها وأظنها * اذا ما أطلنا عندها المكث ملت
فما أنصفت أما النساء فبغضت * إلىّ وأمّا بالنوال فضنتِ
يكلفها الغيرانُ شتمى وما بها * هوانى ولكن للمليك استذلتِ
هنيئاً مريئاً غير داءٍ مُخامرٍ * لعزةَ من أعراضنا ما استحلتِ
فو الله ماقاربت إلا تباعدتْ * بصرمٍ ولا أكثرتُ إلا أقلتِ
فان تكن العتْبى فأهلاً ومرحباً * وحقتْ لها العتْبى لدينا وقلتِ (٥)
وإن تكن الأخرى فانّ وراءنا * منادحَ لو سارتْ بها العيس كلتِ (٦)
فلا يبعدنْ وصلٌ لعزة أصبحتْ * بعافيةٍ أسبابُهُ قد تولتِ
أسيئى بنا أو أحسنى لاملومةً * لدينا ولا مقليّةً إن تقلتِ (٧)
ولكن أنيلى واذكرى من مودةٍ * لنا خُلّةً كانت لديكم فطُلتِ
فانى وإن صدّتْ لمُثنٍ وصادقٌ * عليها بما كانت إلينا أزلتِ (٨)

---

(١) صفوح : معرضة (٢) التلاع : جمع تلعة وهى ماارتفع من الارض (٣) بلت المطية : ضلت (٤) ظلع البعير : غمز فى مشيه . واستقل : نهض من عثرته (٥) العتبى والاعتاب : الترضية (٦) المنادح : جمع مندوحة وهى مااتسع من الارض (٧) تقلت : ظهرت بالقلى وهو البغض . ومقلية : مبغوضة (٨) أزلت : أسدت

فما أنا بالداعى لعزة بالجوى * ولاشامتٌ إن نعلُ عزة زلَّتِ

فلا يحسب الواشون أن صبابتى * بعزة كانت غمرة فتجلَّتِ

فأصبحت قد أبلَلْت من دَنَفٍ بها * كما أُدْنِفت هيماءُ ثم استبلتِ (١)

فوالله ثم الله ماحَلّ قبلها * ولا بعدها من خُلةٍ حيث حلتِ

وما مرّ من يومٍ علىّ كيومِها * وإن عَظُمت أيام أخرى وجلّتِ

وأضحتْ بأعلى شاهقٍ من فؤادهِ * فلا القلب يسلوها ولا العين ملّتِ

فياعجباً للقلب كيف اعترافهُ * وللنفس لمّاوُطِّنت كيف ذلتِ (٢)

وانى وتَهيامى بعزة بعدما * تخليتُ مما بيننا وتخلتِ

لكالمرتجى ظل الغمامة كلما * تبوأ منها للمقيل اضمحلت

كأنى واياها سحابة ممحل * رجاها فلما جاوزته استهلت (٣)

فان سأل الواشون فيمَ هجرتَها * فقل نفسُ حرٍّ سُلِّيتْ فتسلت (٤)

ومن الشعراء من ينص على أن شحّ الحِسان سماحة ، كالتهامى حين يقول :

ماتت لفقد الظاعنين ديارهم * فكأنهم كانوا بها أرواحاً

ولقد عهدت بها فهل أرينهُ * مغدًى لمنتجع الصبى ومراحا

بالنافثات النافذات نواظراً * والنافذين أسنّة وصِفاحا

(١) أبلّ من مرضه برئ منه . والدنف المرض . والهيماء : المريضة بالهيام وهو داء يصيب الابل فلا تصبر عن الماء (٢) الاعتراف : الاصطبار . وذلت : رضيت (٣) ممحل : أصابه المحل وهو القحط (٤) تلك هي تائية كثير . ولقد كان بها جدّ مفتون . حتى أنه سئل : أنت أشعر أم جميل ؟ فقال : بل أنا . فقيل له : أتقول هذا وأنت راويته ؟ فقال : جميل يقول :

رمي الله فى عينى بثينة بالقذى * وفى الغر من أنيابها بالقوادح

وأنا أقول :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر * لعزة من أعراضنا ما استحلت

وأرى العيون ولا كأعين عامرٍ * قدراً مع القدَر المُتاح مُتاحا
متوارثي مرض الجفون وانما * مرَض الجفون بأن يكنَّ صحاحا
من كان يكلف بالأهلة فايزر * ولدىَّ هلال رغبة وبراحا
لا عيب فيهم غير شحّ نسائهم * ومن السماحة أن يكن شحاحا
طرقَتْه في أترابها فجلتْ له * وهنا من الغُرَرِ الصِّباح صباحا
أبرزن من تلك العيون أسنةً * وهززن من تلك القدود رماحا
ياحبذا ذاك السلاح وحبذا * وقت يكون الحسن فيه سلاحا

ويأسى ابن التعاويذى على أن يرجو عطف البخيلة ، وهو جواد الكف . وذلك قوله :

نأيت فحرمت الجفون على الكرى * وأغريت دمع العين بالهملان
وأعهد قبل البين قلبي يطيعني * ولكنه يوم الوداع عصاني
وما زال مطبوعاً على الصبر قُلَّبًا * سواءٌ بعادٌ عنده وتدانِ
فما باله يوم النوى سار منجداً * مع الركب في أسْر الصبابة عانِ
فليت طبيباً أمرضتني جفونهُ * وفي يده منها الشفاء شفاني
وليت غريمي في الهوى وهو واجد * تحرّج من ليّانه فقضاني[1]
ولولا الهوى يا آل خنساء لم يكنْ * ليملكني منكم خضيب بنانِ
ولا بتُّ في أبياتكم سائلا قرًى * بغير قنًا أو طالباً لأمانِ
أُرجيّ جواد الكف عطف بخيلةٍ * وأخشى حديد القلب فتك جبانِ
وقبلك ما أنهضتُ عزمي لحاجةٍ * فأدركتها إلا بحدّ سنانِ

(١) الليان : مصدر لوى . يقال : لوى غريمه اذا مطله

وأولى بمثلى أن يكون مهادهُ * سرير حصانٍ لاسرير حصانِ
وبى أنفٌ أن أقتضى بسوى الظُّبى * ديونى إذا غير الحبيب لوانى

الامر للحب

ومن الشعراء من يتحدث عن صبره المغلوب ، ثم يجعل الأمر كلّه للحب . كما أنشد احمد بن يحيى

من كان يزعمُ أن سيكتم حبّهُ * حتى يُشككَ فيه فهو كذوبُ
ألحبُّ أغلب للفؤاد بقهرهِ * من أن يُرَى للستر فيه نصيبُ
وإذا بدا سر اللبيب فانه * لم يبدُ إلا والفتى مغلوب
إنى لأُبغض عاشقاً متستراً * لم تتهمهُ أعينٌ وقلوبُ

وفى هذا المعنى يقول الاقرع بن معاذ القشيرى فى حبيبةٍ غلبته على قلبه ، واستأثرت به من بين النساء

يقر بعينى أن أرى ضوءَ مُزنةٍ * يمانيةٍ أو أن تَهُبَّ جنوبُ
لقدشغفتنى أُمُّ بكرٍ وبغّضتْ * إلىّ نساءً مالهنّ ذنوبُ
أراكِ من الضرب الذى يجمع الهوى * ودونك نسوانٌ لهنّ ضروب
وقدكنت قبل اليوم أحسب أننى * ذلولٌ بأيام الفراق أديب

وقد وضح هذا المعنى كل الوضوح فى قول الضحاك

يقولون مجنونٌ بسمراءَ مُولعٌ * ألا حبّذا جنٌّ بنا وولوعُ
وانى لأُخفى حبّ سمراءَ منهم * ويعلم قلبى أنه سيشيعُ

ولا خير فى حبٍّ يُكنّ كأنّهُ * شغافٌ أجنّتهُ حشاً وضلوعُ

ومن العشاق من يخلع العذار ، لروعة الحسن فى محبوبه ، وصولة الحب فى قلبه ، كقول عمارة اليمنى :

ظبىٌ أعار الليل طُرّة شعرهِ * وأمدّ ضوء الصبح بالإشراق

وسنان ذاب السحر فى آماقه * وأذاب ماء الروح من آماقى

كتب الجمال على صحيفة خدّهِ * عذرَ المحبّ وحجة المشتاقِ

ما كنت أدرى يوم رؤيةِ وجههِ * ان الخدود مصارع العشاقِ

وأحب أن يتأمل القارئ جمال التصوير فى قوله

وسنانُ ذاب السحر فى آماقهِ * وأذاب ماء الروح من آماقى

فقد جعل الدمع ذَوْب الروح ، وهو خيال بديع[1] . وعذر المحب الذى كتبه الجمال على خد المحبوب يذكرنا بقول بعض الظرفاء

يامليح الدّلّ والغَنَجِ * لك سلطانٌ على المهجِ

إن بيتاً أنت ساكنهُ * غير محتاجٍ الى السُّرُجِ

وجهك المعشوق حجتنا * يوم يأتى الناس بالحُجَجِ

(١) فى كتاب البدائع رسالة ممتعة عن دولة الحسن وعالم الجمال ، كتبها المؤلف فى وصف ليلة من ليالى الرقص فى مصر الجديدة ، فليراجعها القارئ إن شاء

حمل السلام

للشعراء فنون مختلفة فى نجوى الحبيب البعيد . فمنهم من يقصد الى غرس الرفق فى قلوب أحبابه ، بوصف ما هو عليه من الخطر ، كقول الطغرائى :

ويا أيها الغادى تحمّلْ رسالةً * على ما بها إن الحديثَ طويلُ
وقلْ للأولى حلّوا الحمى سُقِيَ الحمى * عزاءَ كمُ فالعامرىُّ قتيلُ

ومنهم من يوصى الرسول بملاطفة المحبوب واستدراجه . وأظرف ما قيل من الشعر فى هذا المعنى قول الوأواء الدمشقى :

بالله ربكما عُوجا على سَكَنى * وعاتباه لعلّ العتْبَ يعطفهُ
وحدّثاه وقولا فى حديثكما * مابال عبدك بالهجران تُتلفهُ
فان تبسّمَ قولا فى ملاطفةٍ * ماضرّ لو بوصالٍ منك تسعفه
وان بدا لكما فى وجهه غضبٌ * فغالطاهُ وقولا ليس نعرفهُ

وهو مأخوذ من قول عمر بن أبى ربيعة فى وصف قوادة :

فأتتهـا طبة عالمةٌ * تمزج الجدّ مراراً باللعبْ
تُغلظ القول اذا لانت لها * وتراخى عند سورات الغضبْ

قيل ان ابن أبى عتيق قال لعمر لما سمع هذا الشعر : ما أحوج المسلمين الى خليفة يدبر أمورهم مثل قوادتك هذه[1] . ولعله تذكر قول معاوية : لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . قيل وكيف ذاك ؟

---

(١) فى كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) تفاصيل ممتعة لعبث هذا الشاعر بالنساء

فقال اذا شدوا تراخيت ، وان تراخوا شددت !

وقد تلطف اليها زهير فى وصية الرسول بقوله :

فيارسولى الى من لا أبوح بهِ * إنّ المهمات فيها يعرف الرجلُ
بلّغ سلامى وبالغْ فى الخطاب لهُ * وقبّل الأرض عنى حينما تصل
بالله عرّفهُ حالى إن خلوت بهِ * ولا تُطل فحبيبى عندهُ مللُ

وإنك لتضحك بملء فيك حين تتأمل قوله :

إن المهماتِ فيها يُعرف الرجلُ

فكأنما هى قيادة حربية ، لا قيادة غرامية !

ومنهم من يحمّل النسيم تحياته الى من يهوى . كما قال بعض الظرفاء :

فيانسيمَ الصبّا أنت الرسول له * والله يعلم أنى منك غيرانُ
بلغ سلامى الى من لا أكلمهُ * انى على ذلك الغضبان غضبانُ
لا يارسولىَ لا تذكر لهُ غضبى * فذاك منّيَ تمويهٌ وبهتانُ
وكيف أغضبُ لاوالله لاغضبٌ * انى لما رام من قتلى لفرحان
أكلّ يومٍ لنا رُسلٌ مرددةٌ * وكلّ يوم لنا فى العَتْب ألوان
أستخدم الريح فى حمل السلام لكم * كأنما أنا فى عصرى سليمان

وقد ذكر أمين الدين بن عطايا السبب فى اختيار النسيم لحمل الرسالة حين قال :

أناأهوى غصن النقا وهو لاهٍ * وفؤادى بحبهِ فى التّيهِ
يانسيم الصبا ترفّقْ عليه * وتلطفْ بهِ ولا تؤْذيه

وتحمَّل رسالة ليس إلا * كَ أميناً فى حملها أرتضيه
واذا لم يكن رسولى نسيماً * نحو غصن النقا فمن يثنيه

وأظهر من ذلك ما حُكى أن ابن سعيد المغربى مشى مع جماعة من أدباء المصريين وفيهم أبو الحسين الجزار . فمروا فى طريقهم بمليح نائم تحت شجرة ، فهبّت الريح فكشفت ثيابه عنه . فقال الجزار : قفوا ! لينظم كل منا شيئاً فى هذا ! فقال ابن سعيد :

الريح أقودُ ما تكونُ لأنها * تُبدى خفايا الرّدف والاعكان
وتميل بالأغصان عند هبوبها * حتى تقبِّل أوجه الغُدران
ولذاك الأحباب يتخذونها * رسلا الى الأحباب والاوطان

وهو شعر حسن . غير أنه لا وجه لذكر الاوطان فى هذا الموطن اذ لا علاقة لها بالقيادة . ولو قال الخلان أو الأخدان لكان أنسب وأقرب الى المراد . وقال ابن الخياط :

يانسيم الصبا الولوع بوجدى * حبذا أنت لو مررْت بهندِ
ولقد رابنى شذاك فبالله * متى عهدهُ بأظلال نجدِ

ومنهم من يوصى الركبان بحمل سلامه ، وتبليغ شكواه ، كقول الشريف :

دعا بالوِحافِ السُّودمن جانب الحمى * لديغ هوًى لبَّيتُ حين دعانى
تعجّب صحبى من بُكائى وأنكروا * جوابى لِما لم تسمع الأُذنانِ
فقلت نعم لم تسمع الأُذْن دعوةً * بلى إن قلبى سامعٌ وجَنانى
ويا أيها الركب اليمانون خبّروا * طليقاً بأعلى الخيف أنىَ عانى

عِدُوه لقائى أو عِدونى لقاءهُ * ألا ربما دانيت غير مدانِ

وهذا شعر موجع ، يغرى القلب بالحزن ، والعين بالدمع ، وأشجى منه قول مهيار :

تحرّشْ بأحقاف اللوى عمر ساعةٍ * ولولا مكان الريب قلت لك ازددِ
وقل صاحبٌ لى ضل بالرمل قلبهُ * لعلك أن يلقاك هادٍ فتهتدى
وسلّم على ماءٍ به برد غُلّتى * وظلّ أراكٍ كان للوصل موعدى
وقُلْ لحمام البانتينِ مهنئاً * تغنَّ خليًّا من غرامى وغرِّدِ
أعندكمُ ياقاتلين بقيةٌ * على مهجةٍ إن لم تمتْ فكأن قد
ويا أهل نجدٍ كيف بالغور بعدكم * بقاء تهامىٍّ يهيمُ بِنُجدِ
ملكتم عزيزاً رِقهُ فتعطفُوا * على منكرٍ للذل لم يتعوّدِ

وحدث أبو العباس محمد بن يزيد قال : خرجت مع الحسن بن رجاء إلى فارس . فلما صرنا إلى موضع يعرف بشعب بوّان رأيت على حائط مكتوباً بخط جليل

إذا أشرف المكروب من رأس تلعةٍ * على شعب بوّانٍ أفاق من الكربِ
وألهاه بطنٌ كالحريرة مسهُ * ومطّرد يجرى من البارد العذْب
وطيب ثمار فى رياض أريضةٍ * وأغصان أشجار جناها على قرب
فبالله ياريح الجنوبِ تحملى * الى شعب بوانٍ سلام فتى صبِّ

وإذا تحت ذلك الخط الجليل بخط أدق منه

ليت شعرى عن الذين تركنا * خلفنا بالعراق هل يذكرونا
أم لعل المدى تطاول حتى * قدُم العهد بيننا فنسونا

ولا يفوتنا أن نمتع القارئ بقول الشريف

حيِّ بين النقا وبين المصلَّى * وقفات الركائب الأنضاء

ورواح الحجيج ليلة جمع * وبجمع مجامعُ الأهواء [1]

وتعهّد ذِكْري إذا كنت بالخيـ * ـف لظبي من بعض تلك الظّباء

قل له هل تراك تذكر ما كا * ن بباب القبيبة الحمراء

قال لي صاحبي غداة التقينا * نتشاكى حرّ القلوب الظماء

كنت خبّرتني بأنك في الوجـ * ـد عقيدي وأن داءك دائي

ماترى النفر والترحّل للبيـ * ـن فماذا انتظارنا بالبكاء

لم يقلها حتى انثنيت لما بي * أتلقّى دمعي بفضل ردائي

دموع الغانيات

لانريد هنا الدمع يسفحه الندم ، بل الدمع يرسله الوفاء . لأن عبرة النادم رفق بنفسه التي أفسدها الإسراف . أما عبرة المودّع فهي رفق بصحبه الذي أشجاه الفراق !

قال جرير في بكاء الحسان عند الوداع :

إن الذين غدوا بلبك غادروا * وشلاً بعينك مايزال مَعينا

غيّضن من عبراتهن وقلن لي * ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا

وهو كلام فطري لا كلفة فيه . وما أبدع قول الظاعنات :

ماذا لقيت من الهوى ولقينا !

(١) ترد كلمة (جمع) كثيراً في شعر الشريف . وهي من مناسك الحج . ويوم جمع يوم عرفة . وأيام جمع أيام منى.

ومثله قول ابن التعاويذى ،

لما وقفنا للودا * ع وقدعا داعى الرحيل

وتخاذلت أنصار دمعـــــى فى هوى الظبى الخذول

قالت وأدمعها تسيـــــل أسًى على الخد الأسيل

يابين كم أجليت يو * م نوى الأحبة عن قتيل

وهـذا شعر خفيف الروح ، لطيف النسيم . ويشبهه قول بعض الأعراب .

ومما شجانى أنها يوم ودَّعت * تولّت وماء العين فى الجفن حائرُ

فلما أعادت من بعيدٍ بنظرةٍ * الىّ التفاتاً أسلمته المحاجرُ

وقد أنصف الأبيوردى معشوقته إذ يقول :

وما أنس لا أنس الوَداع وقد بدتْ * تُغيِّض دمعاً فاض وابلُهُ سكبا

مهفهفة لم ترض أترابها لهـا * ببدر الدجى شبْهاً وشمس الضحى تربا

تَنَفَّسُ حتى يُسلم العقدَ سلكُهُ * وأكظم وجداً كاد ينتزع القلبا

وتذرى شآبيب الدموع كأنما * أذابت بعينيها النوى لؤلؤاً رطبا

ولو سلمت هذه الابيات من مثل هـذا الغزل الطريف لكان انسب بموقف التوديع . ومثلها فى ذلك قول السرى الرفاء :

تنادَوْا لتفريق الفريق فأصبحت * مدامعنا تَنْدَى لفُرقتهم دما

سلامٌ على من سار قلب محبه * اليه فلم يرجع صحيحاً مسلّما

يحلُّ عقود الدرّ دمعاً ومنطقاً * وينظمها حلياً عليه ومَبسما

أماط عن العذب اللثاةِ لثامهُ * فماد بديباج الحياء ملثّما

وكلمنى جفناه بالدمع خِفْيةً * فهمّ غليل الشوق أن يتكلما

ومن العشاق من ينسب إلى حبيبه التباكى ، وإلى نفسه مر البكاء ، ثم يفرق بين العبرتين ، ويميز بين الزفرتين . كالأرجانى إذ يقول :

سفرتْ كى تزوِّد الحِبَّ منها * نظرةً حين آذنت بالتنائى

ورأت أنها من الوجد مثلى * ولها للفراق مثل بكائى

فتباكتْ ودمعها كسقيط الطـــلّ فى الجلّنارة الحمراء

فترى الدمعتين فى حمرة اللو * نِ سواءً وما هما بسواء

خدها يصبغ الدموع ودمعى * يصبغ الخدّ قانياً بالدماء

خضّب الدمع خدها باحمرارٍ * كاختضاب الزجاج بالصهباء

وما أدرى بأى قلب يلح هذا الشاعر ليحوّل دموع محبوبته إلى دماء !!

وما أرفق المتنبى اذ يقول :

وجلا الوداع من الحبيب محاسناً * حُسْن العزاء وقد جُلينَ قبيحُ

فيدٌ مسلمةٌ وطرفٌ شاخصٌ * وحشاً يذوبُ ومدمعٌ مسفوحُ

ألم تر اليه وقد انخلع قلبه ، حين رأى حبيبته باكية ، فلم يذكر الا أنها جميلة ، وأن الصبر على فراقها أعز منالا من نجوم السماء !

وتعجبنى هذه النجوى فى قول ابن الرومى يصف عِتاب حسناء

زارتْ على غفلةٍ من الحرَسِ * تُهدى إلىّ السلام فى الغلَس

أنّى تجشّمتِ نحو أرحُلِنا الهو * لَ ولم ترهبى أذى العسَس

قالت ترامى بنا إليك من الشو * قِ مُغِصٌ بالبارد السلِسِ

كم زفرة لى تبيت تنهض أحشا * ئِى ودمعٍ عليك مُنبَجِس

وأنت لاهٍ بغيرنا ولنا * منك هوًى مُمْسِكٌ على النفَس
عجبت من ذِلتى ومن قلبك القا * سى علينا وخُلْقك الشكِسِ
لا تأمننَّ الهوى وسطوتَهُ * واُخش رداهُ ومنه فاحترس

وهذا الشعر جميل فى معناه ، ولكن يظهر أن أُسلوبه لا يمثل الرقة فى نجوى الحسناء ، وقد مسّها الحب بناره ، وأحرقها بجواه ! ولو تناول ابن أبى ربيعة أو الابن الأحنف هذا المعنى لرأيت له ثياباً أرق من هذه الثياب ، وأُسلوباً غير هذا الاسلوب !

ومن بارع الشعر فى دموع الحسان قول جميل

لما دنا البين بين الحىّ واقتسموا * حبل النوى فهو فى أيديهم قِطَعُ
جادتْ بأدمعها ليلى وأعجلنى * وشْك الفراق فما أُبقى وما أدعَ
ياقلبُ ويحك ماعيشى بذى سلمٍ * ولا الزمان الذى قد مرَّ مُرْتجع
أ كلّما بان حىٌّ لاتلائمهم * ولا يبالون أن يشتاق من فجعوا
علقتنى بهوى منهم فقد جعلت * من الفراق حصاة القلب تنصدع

وهذا الشعر يمثل الطبيعة فى مواقف الوداع ، فالشاعر هنا شائق ومشوق . ولا كذلك أبيات الرومى التى حصر دمعها فى عيون زائرته الحسناء . ومن هذه الناحية يعجبنى ما أنشده صاحب الأمالى

ولما رأتْ أن النوى أجنبيةٌ * وأنّ خليلا من غدٍ سيبينُ
بكت فبكى من لاعج الشوق والأسى * وكلٌّ بكلٍّ أن يبين ضنين
فقلت ولم أملك سوابق عَبرةٍ * على الخد منى فالدموع هتونُ
لقد كنت أبكى قبل أن تشحط النوى * فكيف اذا ماغبت عنك أكون

وانظر كيف يصف العَرْجى خوف محبوبته من فراقه :

وما أنسَ مِلْأشياء لاأنس موقفاً * لنا ولها بالسفح دون ثبيرِ
ولا قولها وهناً وقد بلَّ جيبَها * سوابق دمعٍ لا يجفُّ غزيرِ
أأنت الذى خُبِّرتُ أنك باكرٌ * غداةَ غدٍ أو راحلٌ بهجيرِ
فقلت يسيرٌ بعض شهرٍ أغيبُهُ * وما بعض يوم غبته بيسيرِ
وقلت لها قول امرىءٍ شفّه الهوى * اليها ولو طال الزمان فقيرِ
فما أنا إن شطتْ بك الدار أو نأت * بىَ الدار عنكم فاعلمى بصبورِ

وكنا نحب أن نعلم بقية العتاب فى قوله :

أحين عصيت العاذلين اليكمُ * ونازعتُ حبلى فى هواك أميرى
وباعدنى فيك الأقارب كلهم * وباح بما يخفى اللسان ضميرى

ولكن الرواة لم يذكروا هذه القصيدة كاملة :

والشعر الذى تقدم لا يمثل عواطف النساء تمام التمثيل ، لأنه من أحاديث الرجال . ولو أن المرأة تكلمت لعرفنا منها كيف تشعر بلوعة الفراق . وإليك ما قالته امرأة من بنى أسد فى حبيب ينقض العهود :

بنفسىَ من أهوى وأرعى وصالهُ * وتنقُضُ منى بالمغيب وثائقهْ
حبيبٌ أبى إلا اطِّراحى وبغضتى * وفَضّلهُ عندى على الناس خالقهْ

وانظر قول ابنة الحُباب .

محا حبُّ يحيى حبَّ يعلى فأصبحت * ليحيى توالى حبنا وأوائلهْ
ألا بأبى يحيى ومَشْى ردائه * وحيث التقت من متن يحيى حمائلهْ

فان هذا الشعر يمثل إحساس النساء بجمال الرجال . وما أوجع الشوق فى قول هذه الشاعرة :

أأُضرب فى يحيى وبينى وبينهُ * تنائفُ لو تسرى بها الريح كلَّتِ

ألا ليت يحيى يوم عَيْهمَ زارنا * وإن نَهِلَت منى السياطُ وعلَّتِ

وفى الآداب العربية قطع منثورة تمثل ما تشتهى المرأة من الرجل ، ولكنها من القلة بحيث لا تصور تماما نفوس النساء ، ولا تزال المرأة لغزاً من الالغاز ، ولو أنها تحدثت عن عواطفها كما تحدث الرجل عن عواطفه ، لعرفنا بعض ما ستره هذا الصمت البليغ !

ندامة المفارق

أشهر الشعر فى ندم المحب ، على فراق من يحب ، ما قاله قيس بن ذريح وقد طلق لبنى . قال محمد بن زياد الاعرابى : لما ألحَّ ذُرَيْح على ابنه قيس فى طلاق لبنى ، فأبى ذلك قيس ، طرح ذريح نفسه فى الرمضاء وقال : لا والله . لا أريم هذا الموضع حتى أموت . أو يخلِّيها . فجاءه قومه من كل ناحية ، فعظموا عليه الأمر . وذكروه بالله . وقالوا : أتفعل هذا بأبيك وأمك ، إن مات شيخك على هذه الحال كنت معيناً عليه وشريكا فى قتله ، ففارق لبنى على رغم أنفه وقلة صبره . وبكى حتى بكى لهما من حضرهما . وأنشأ يقول :

أقول لُخلتى فى غير جُرْمٍ * ألا بِينى بنفسك أنتِ بِينى

فوالله العظيم لنزع نفسى * وقطع الرجل منى واليمينِ

أحبُّ إليَّ يا لبنى فِرَاقاً * فبكِّى للفراق وأسعدينى
ظلمتك بالطلاق بغير جرم * لقد أذهبت آخرتى ودينى

قال : فلما سمعت بذلك لبنى بكت بكاءً شديداً وأنشأت تقول :

رَحَلْتُ إليه من بلدى وأهلى * فجازانى جزاء الخائنينا
فمن يَرَنى فلا يغترَّ بعدى * بحُلو القول أو يبلو الدفينا

فلما انقضت عِدَّتها وأرادت الشخوص إلى أهلها أُتيت براحلة لتُحمل عليها . فلما رأى ذلك قيس داخله منه أمر عظيم ، واشتد لهفه ، وأنشأ يقول :

بانت لبينى فأنت اليوم متبول * وإنك اليوم بعد الحزم مخبولُ
فأصبحت عنك لبنى اليوم نازحةً * ودَلُّ لبنى ، لها الخيرات ، معسولُ
هل ترجعنَّ نوى لبنى بعافيةٍ * كما عهدت ليالى العشقُ مقبولُ
وقد أرانى بلبنى حق مقتنعٍ * والشمل مجتمعٌ والحبل موصول
فصرت من حب لبنى حين أذكرها * ألقلب مرتهنٌ والعقل مدخولُ
أصبحت من حب لبنى بل تذكرها * فى كربةٍ ففؤادى اليوم مشغولٌ
والجسم منِّىَ منهوكٌ لفرقتها * أخو هُيام مصاب القلب مسلولُ
أستودع الله لبنى إذ تفارقنى * عن غير طوعٍ وأمر الشيخ مفعول

ثم ارتحلت لبنى فجعل قيس يقبِّل موضع رجليها من الارض وحول خبائها . فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعذل واللوم . فقال ذريح لما رأى حاله : قد جنيت عليك يا بُنىَّ ! فقال له قيس : قد

كنت أخبرك أنى مجنون بها فلم ترض إلا بقتلى . فالله حسبك وحسب أمي !! وأقبل قومه يعذلونه فى تقبيله التراب ، فأنشأ يقول :

فما حبي لطيب تراب أرض * ولكن حب من وطئ الترابا
فهـذا فعل شيخينا جميعاً * أرادا لى البليّة والعذابا

ولقيس بن ذريح شعر أجود مما تقدم ، وأدلّ على لوعته وأسفه لفراق لبنى كقوله :

تُبكّي على لبنى وأنت تركتها * وكنت كآتٍ غيّهُ وهو طائع
فلا تبكيَنْ فى إثْرِ شىءٍ ندامةً * إذا نزعتهُ من يديك النوازعُ
فليس لأمرٍ حاول الله جمعهُ * مُشتٌ ولا مافرّق الله جامعُ
كأنك لم تقنع إذا لم تلاقها * وإن تلقها فالقلب راضٍ وقانعُ
فياقلب خبّرني إذا شطّت النوى * بلبنى وصدّت عنك ما أنت صانع
أتصبر للبين المشتّ مع الجوى * أم أنت امروٌ ناسى الحياء فجازع
فما أنت إن بانت لُبَيْنى بهاجع * إذا ما اُستقلّت بالنيام المضاجع
وكيف ينام المرء مُستشعِرَ الجوى * ضجيع الأسى فيه نِكاسٌ روادع
ولا خير فى الدنيا إذا لم تُواتنا * لبينى ولم يجمع لنا الشمل جامعُ
ولولا رجاء القلب أن تعطف النوى * لما حَمَلَتْهُ بينهن الاضالعُ
لهُ وَجَبَاتٌ إثْرَ لبنى كأنها * شقائق برقٍ فى السحاب لوامعُ
نهاري نهار الناس حتى إذا دجا * لىَ الليل هزتنى اليك المضاجع
أقضّى نهارى بالحديث وبالمنى * ويجمعنى بالليل والهمّ جامعُ
ألا إنما أبكى لما هو واقع * وهل جزعٌ من وشك بينك نافع

ومن جيد شعره أيضاً هذه القصيدة

سأصرِمُ لبنى حبل وصلك مُجمِلاً * وان كان صرم الحبل منك يروعُ
وسوف أسلّي النفس عنك كما سلا * عن البلد النائى البعيد نزيعُ
وإن مسنى للضرّ منك كآبةٌ * وان نال جسمى للفراق خشوعُ
سقى طلَلَ الدار التى أنتمُ بها * بشرقيّ لبنى صيّفٌ وربيعُ
يقولون صبٌّ بالنساء مُوَكَّلٌ * وما ذاك من فعل الرجال بديعُ
مضى زمنٌ والناس يستشفعوننى * فهل لى إلى لبنى الغداة شفيعُ
أيا حَرَجَات الحىّ حيث تحمّلوا * بذى سَلَمٍ لاجادكنّ ربيع
وخيماتك اللاّتى بمُنعَرج اللوى * بَلين بلًى لم تبلهنّ ربوعُ
إلى الله أشكو نِيّةً شقّت العصا * هى اليوم شتّى وهى أمس جميع
وإنّ انهمال العين بالدمع كلما * ذكرتك وحدى خالياً لسريعُ
فلو لم يهجنى الظاعنون لهاجنى * حمائمُ ورْقٌ فى الديار وُقوعُ
تجاوبن فاستبكين من كان ذاهوًى * نوائحَ ماتجرى لهنّ دمُوع
لعمرك إنى يوم جرعاء مالكٍ * لعاصٍ لأمر المرشدين مُضيعُ
ندمت على ما كان منى ، فقدتنى * كما يندم المغبون حين يبيعُ
إذا مالحاني العاذلات بحبهـا * أبت كبدٌ مما أُجنّ صديع
وكيف أطيع العاذلات وحبها * يؤرّقنى والعاذلات هُجُوع
عَدِمتكِ من نفس شَعاعٍ فاننى * نهيتك عن هذا وأنت جميعُ
فقرّبتِ لى غير القريب وأشرقت * هناك ثنايا مالهنّ طلوعُ
وضعّفنى حبّيكِ حتى كأنني * من الأهل والمـال التلادِ خليعٌ

وحتّى دعانى الناس أحمق مائقاً * وقالوا مطيعٌ للضلال تَبُوع

ويعجبنى قوله :

ندمتُ على ما كان منى، فقدتُني! * كما يندمُ المغبونُ حين يبيعُ

وهو فى شعره يمثل الفِطرةَ الخالصة من شوائب التكلُّف ، فانه فُجع بفراق حليلته ، والحليلة المعشوقة متاعٌ عزيز .

وفى وصف أثر الطلاق يقول أحد الأعراب :

ندمتُ وما تغنى الندامة بعد ما * جرجنَ ثلاثٌ ما لهنّ رُجوعُ

ثلاثٌ يُحرّمن الحلال على الفتى * ويصدعْن شعب الدار وهو جميع

والتعبير بشعب الدار تعبير دقيق ، ما كان يغنى عنه أن يقول : (ويصدعن شعب القلب)لأن فراق الحليلة هدم للبيت من أساسه

ومن شجىّ الشعر فى ندامة المفارق عينية ابن زريق ، وقد ترك ابنة عمه فى بغداد ورحل الى الأندلس فى سبيل الرزق ، ثم حيل بينه وبين ما يريد ، فأرسل هذه الزفرة الباقية :

أستودع الله فى بغداد لى قمراً * بالكرخ من فلكِ الأزرار مطلعُهُ

ودّعتهُ وبودى لو يودعنى * صفو الحياة وأنى لا أُودّعهُ

وكم تشفّع بى أن لا أفارقهُ * وللضرورات حالٌ لا تشفّعه

وكم تشبّث بى يوم الرحيل ضُحًى * وأدمعى مستهلّاتٌ وأدمعهُ

لا أكذب الله ثوب العذر منخرقٌ * منى بفرقتهِ لكن أُرقّعهُ

إنّى أوسّع عذرى فى جنايتهِ * بالبين عنه وقلبى لا يوسعهُ

أُعطيت مُلكاً فلم أُحسن سياستهُ * كذلك من لا يسوس الملك يُخلعه

ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا * شكر عليه فعنه الله ينزعه
اعتضت من وجه خلى بعدفرقته * كأساً يُجرَّعُ منها ما أُجرَّعُه
كم قائلٍ لىَ ذنب البين قلت لهُ * الذنب والله ذنبي لست أدفعه
هلاَّ أقمت فكان الرشد أجمعهُ * لو أننى حين بات الرشد أتبعهُ
لو أنني لم تقع عيني على بلدٍ * فى سَفْرتى هذه إلا وأقطعهُ
يامن أقطع أيامى وأُنفدها * حزناً عليه وليلى لست أهجعه
لا يطمئن بقلبي مضجعٌ وكذا * لا يطمئن به مذ بنت مضجعه
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعنى * به ولا أن بى الايام تفجعه
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيدٍ * عسراء تمنعنى حقى وتمنعه
وكنت من ريب دهرى جازعاً فرِقاً * فلم أُوَقَّ الذى قد كنت أجزعه
بالله يامنزل القصف الذى درست * آثاره وعفَتْ مُذ بعتُ أربعه
هل الزمانُ معيدٌ فيك لذتنا * أم الليالى التى أمضتْه ترجعه
فى ذمة الله من أصبحت منزلهُ * وجاد غيثٌ على مغناك يُمرْعه
من عنده لىَ عهدٌ لا يضيعُ كما * عندى له عهد صدقٍ لا أضيّعه
ومن يصدّع قلبي ذكره وإذا * جرى على قلبه ذكرى يصدّعه
لأصبرنّ لدهرٍ لا يمتّعنى * به ولا بىَ فى حال يمتّعه
علماً بأن اصطبارى مُعقبٌ فرجاً * فأضيقُ الامر لو فكّرتَ أوسعه
علّ الليالي التى أضنتْ بفرقتنا * جسمى ستجمعنى يوما وتجمعهُ
وانْ تغُلْ أحداً منّا منيتهُ * لابدَّ فى غده الثانى سيتبعه
وإن يدمْ أبداً هذا الفراق لنا * فما الذى بقضاء الله نصنَعه

ومما يتصل بندامة المفارق ما قاله ابن الرومى فى فرصة ضاعت منه فعضّ من بعدها البنان . فلنذ كرها على سبيل الفكاهة ، لما فيها من ظَرْف المجون :

أستغفر الله من تركى علانيةً * ذنباً هممْتَ به فى شادنٍ خَنِث (١)
ظبيٌ دعتنىَ عيناهُ ومنطقهُ * بنيّةٍ صدقَتْ عن ظاهرٍ عَبِثِ
فلم أجبهُ وحظى فى إجابتهِ * لكن سكتُّ كأنى غير مكترث
لا بل فررْتُ وظل الصيد يطلبنى * والله ما كنت فيها بالفتى الدَّمِثِ
أقسمت بالله لما كنت محتجزاً * أنى انبعثت بقلب غير مُنبعثِ

غربة المحب

نتكلم قليلا عن غربة المحب ، وكل مهجور غريب ، لأن الامر كما قال الشريف :

ليس الغريب الذى تنأى الديار بهِ * إن الغريب قريبٌ غير مودودِ

فمن الشعراء من يغترب فى سبيل حبه . كما قال حذيفة الغنوي :

يقولون من هذا الغريبُ بأرضنا * أما والهدايا إننى والغريبُ
غريبٌ دعاه الشوق واقتاده الهوى * كما قِيدَ عَوْدٌ بالزمام أديب (٢)
وماذا عليكم أن أطاف بأرضكم * مُطالب دينٍ أو نَفَتْهُ حروبُ
أُمشِّى بأعطانِ المياهِ وأبتغى * قلائصَ منها صعبةٌ ورَكوبُ

ومن شجىّ الشعر فى غربة المحب قول بعض الأعراب :

---

(١) الشادن : الغزال . والخنث : المتثنى (٢) العود الجمل . وأديب ذلول

وفى الجيرة الغادين من بطن وجرةٍ * غزالٌ كحيل المقلتين ربيبُ
فلا تحسبى أن الغريب الذى نأى * ولكنّ من تنأينَ عنهُ غريبُ

ومما يتصل بهذا المعنى قول بعض الأعراب يذكر اختصاصه بالبلوي فى اغتراب محبوبته :

أرى كل أرض دمّنتْهاوإن مضتْ * لها حِجَجٌ يزداد طيباً ترابُها[1]
ألم تعلمنْ يا ربِّ أنْ رُبّ دعوةٍ * دعوتك فيها مخلصاً لو أُجابُها
وأقسم لو أنى أرى نسباً لها * ذئاب الفلا حُبّتْ الىّ ذئابُها
لعَمْرُ أبى ليلى لئن هى أصبحت * بوادى القُرى ماضرّ غيرى اغترابها

وغربة المحب تتمثل فى حرمانه . وكيف لا يكون غريباً من يقول :

أيا مُنشر الموتى أقِدنى من التى * بها نَهِلَتْ نفسى سَقاماً وعلّتِ
لقد بخلت حتى لو انى سألتها * قذى العين من سافى التراب لضنّتِ
وما أمّ بوٍّ هالك بتنوفةٍ * اذا ذكرته آخر الليل حنّتِ
بأكثرَ منى لوعةً غير أننى * أُطامنُ أحشائى على ما أجنّتِ

ويظهر أن قذى العين كان فى أنفس العرب مثلا لما لا يُضنُّ به ، فقد رددوا ذكره فى أشعارهم ، كما قال بعض بنى أسد :

وكيف طِلابى وصل من لو سألتهُ * قذى العين لم يُطلبْ وذاك زهيدُ[2]
ومن لو رأى نفسى تسيل لقال لى * أراك صحيحاً والفؤاد جليدُ

---

(١) دمنتها : مشت عليها (٢) أطلبه : أعطاه ما طلب

الامل الضائع

نذكر في مقدمة هذا الباب رسالة كتبها صاحب البدائع، ونقلها الى الفرنسية حضرة الأديب عبد المجيد عيسى البيه . وهي تمثل الوجد يضطرم في الصدر، بعد قسوة الإخفاق :

*
* *

تأيمتُ حتى لامني كل صاحبٍ * رجاءَ سُلَيْمى أن تئيمَ كما إمْتُ
لئن بعت حظى منك يوماً بغيرهِ * لَبئسَ إذاً يوم التغابن ما بعتُ

كنت أصبر على بأساء الحياة، وأحتمل ما فيها من همٍّ وغمٍّ، لو أن عندي بقيةً من الأمل، أرفِّه بها أحزاني، وأدفن فيها آلامي ! ولكن حال القنوط دون الرجاء، وأتى اليأس دون الطمع، فلم يبق غير الجزع من مُسْعِد، ولا سوى النوح من شفاء !

فياجيرةً ما كان أهنأ وِردهم، وأطيب عيشهم، ويا أحباباً ذقت الفرح بقربهم، وعرفت الهمَّ لبعدهم، ويامن أفنانى فراقهم، وكان أحيانى لقاؤهم، بربكم ما الذى لقيتم بعدى، فقد لقيت بعدكم ذلا وهواناً، وظلماً وعدواناً، ومن عسى أن يكون قد ظفر بودكم، ونَعِمَ بحسنكم، فأصفاكم من الحب أجمله، ومن الأنس أكمله، فقد صحبت بعدكم من جحد نعمتى، وأنكر خلُقى، ومن سقيته الشهد فسقانى الصاب، وأوليته القرب فأولانى القطيعة ؟ !

فياليت شعرى من ألوم ؟

أألوم نفسى على أن لم أعقّ فى بركم أهلى وإخوانى ، فأسير حيث سرتم ، وأُقيم حيث أقمتم

تفرّق أهلى من مقيم وظاعنٍ * فياليت شعرى أىّ أهلىّ أتبعُ
أقام الذين لا أبالى فراقهم * وشطّ الذين بينهم أتوقّعُ

أم ألومكم على أن تركتمونى وحيداً وآثرتم وطنكم ، وأهلكم ، ولم تبالوا بمن خلّفتموه طريح حزنه ، وأسير همه ؟

أم ألوم قوماً جعلتهم منكم بدلاً فكانوا شر بدل ، واتخذتهم من بعدكم ذخراً فكانوا كالهباء ، ورجوتهم حصناً أتقى به الدهر الخائن ، والزمن الجائر ، فاذا هم أذل من قُرادٍ بمَنْسِمٍ ، وإذا المتفيء ظلهم ، والراجى برهم ، يطمع فى غير مطمع ، ويلجأ إلى شر وزَر ؟!

أم أَلُوم دهراً اضطرّكم إلى الرحلة فرحلتم ، وحكم علىّ بالمقام فأقمت ، ثم أمدّنا من اليأس لبعد الدار ، وشطّ المزار ، ماجعل الأمل فى التلاقى خائباً ، ورجاء التدانى كاذباً

وقلّما أبقى على ماأرى * يوشك أن ينعانىَ الناعى
ما أقتل اليأس لأهل الهوى * لاسيّما من بعد إطماعِ

ماهذا الذى صنعتم ؟ أخضعتم لليأس ، وأذعنتم للقنوط ، ولم ترهبوا العتاب ، إذ لم تأملوا اللقاء ، فزففتم تلك الشمس إلى غيرى ، وآثرتم بها سواىْ ؟!

ياعزّ إن ضاعت عهودىَ عندكم * فانا الذى استودعت غير أمينِ

أو عُدت مغبوناً فما أنا فى الهوى * لـكمُ بأول عاشقٍ مغبونِ

غلب اليأس عليكم فللتم — ولا وفاء لملول — فـكان منكم ما أقضّ المضجع ، وأورث الجفن السهاد ، فهل تعلمون ماصنع اليأس بنا ، ونال القنوط منّا ؟ ولـكن هيهات بعد اليوم أن ينفع العزاء !

هى الغايةالقُصْوى فان فات نيلُها * فـكل مُنَى الدنيا علىّ حرامُ

* * *

وقد نظرت ماقال الشعراء فى الأمل الضائع ، ووجدت لهم فيه أفانين ، فمنهم من يأسف على أن لم يؤهله وجهه للعشق ، كالذى يقول :

جاريةٌ أعجبها حسنها * فمثلها فى الناس لم يُخْلَقِ

خبّرتُها أنى محبٌ لها * فأقبلت تضحك من منطق

والتفتت نحو فتاةٍ لها * كالرشأ الوسْنان فى قُرْطق

قالت لها قولى لهذا الفتى * انظر إلى وجهك ثم اعشقِ [1]

ومن جيد الشعر فى ضياع الأمل قول عمر بن أبى ربيعة فى سُكَيْنَة بنت الحسين

قالت سُكَيْنَة والدموع ذوارفٌ * تجرى على الخدّين والجلْبابِ

ليت المغيرىَّ الذى لم أَجزهِ * فيما أطال تصيُّدى وطِلابى

كانت تردُّ لنا المنى أيامنا * إذ لانلام على هوىً وتصابى

خبِّرْتُ ماقالت فبتُّ كأنما * يُرمى الحشا بنوافذ النُّشَّاب

(١) رواية صديقنا الدكتور ابراهيم زكى الساعي لهذا البيت هكذا (انظر لأسنانك ثم اعشق) لأن بريق الثنايا هو شارة الحسن والقوة عند أطباء الاسنان

أُسكِنُ ما ماء الفرات وبردُهُ * منى على ظمأٍ وفقد شرابِ
بألذّ منكِ وإن نأيت وقلّما * يرعى النساء أمانة الغُيّابِ
إن تبذلى لى نائلاً أشفى بهِ * سقَم الفؤاد فقد أطلتِ عذابى
وعصيت فيك أقاربى فتقطّعت * بينى وبينهمُ عُرَى الأسبابِ
فتركتنى لابالوصال مُمَسَّكاً * منهم ولا أسعفتنى بثوابِ
فقعدت كالمُهَريقِ فضلة مائِهِ * فى حرِّ هاجرةٍ لِلَمْعِ سرابِ

ولم أر من الشعراء من بكى الامل الضائع كما بكاه كُثير فى قوله :

وأدنيتِنى حتى إذا ما استبيتنى * بقولٍ يُحلُّ العُصمَ سهلَ الاباطحِ
تولّيْتِ عنى حين لالىَ مذهبٌ * وغادرتِ ماغادرت بين الجوانحِ

وهى صورة شعرية تمثل المحب، وقد استدرجه محبوبه، حتى أخذ الطمع بنواصى آماله، ثم تركه فى اللحظة الأخيرة، يتعثر فى أذيال الخيبة والقنوط !

وفى هذا المعنى يقول الشريف :

كم قد نصبتُ لك الحبائل طامعاً * فنجوتَ بعد تعرُّضٍ لوقوعِ
وتركتنى ظمآن أشرب غُلّتى * أسفاً على ذاك اللمى الممنوعِ

ومن الأمل الذاهب أن يكون من تحبه، من بلد غير بلدك، وقوم غير قومك، كما قال نصَيْب

أرق المحبُّ وعادهُ سُهُدُهْ * لطوارق الهمِّ التى تردهْ
وذكرت من رقّت له كبدى * وقسا فليس ترقُّ لى كبدُهْ
لاقومهُ قومى، ولا بلدى * فنكون حيناً جيرةً بلَدُهْ

ووجدت وجداً لم يكن أحدٌ * من أجله بصبابةٍ يجِدُه

ونُصيب يتحدث كثيراً عن عقم الأماني ، حتى ليقول :

ألا هل على البين المفرِّق من بدٍّ * وهل مثل أيامٍ بمنقطَع السدِّ

تمنيت أيامي أولئك والمنى * على عهد عادٍ ما تعيد وما تبدي

الكتمان

من الشعراء من لا يهمه من الكتمان غير ستر تفاصيل الود . وأسرار القرب ، ولا يرى بعد ذلك حَرَجاً في ذكر اسم من يحب ، كما قال جميل

لا لا أبوح بحب بثنة إنها * أخذت عليّ مواثقاً وعهودا

فانه لو كان يذهب إلى نكران الاسم وجحوده ، تضليلا للوشاة ، لكان هذا البيت من سُخْف القول ، وهذَره . واليك مايقول من كلمة ثانية :

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا * سوى أن يقولوا انني لك عاشقُ

نعم صدق الواشون أنتِ حبيبةٌ * إليّ وإن لم تصفُ منكِ الخلائق

فانه يدل على أنه لا يبالي أن يُعرف بحبها . حتى قال الناس : جميل بثينة كما قالوا مجنون ليلى . ويذكر أبو علي القالي أن البيت السالف لكثيِّر ، وأنه ذكر بثنة تورية عن حبيبته ، وهذا فيما أرى غير حَتْم ، لأن كثيِّر ما كان يعدل عن عزة إلا لضرورة الشعر . كقوله :

كفى حَزَناً للعين أَن ردّ طرفها * لعِزة عِيرٌ آذنتْ برحيل

وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا * فقلت البكا أشفى إذن لغليلى
تولّيت محزوناً وقلت لصاحبى * أقاتلتى ليلى بغير قتيلِ

فقد ذكر عزة عند مواتاة الشعر ، وليلى عند مُعاصاته ، وهو نوع من التلاعب بالاسماء الذى كثر فى شعر العرب . وقال كثير من قصيدة أخرى :

سيهلك فى الدنيا شفيقٌ عليكمُ * إذا غالهُ من حادث الدهر غائلُهْ
ويخفى لكم حباً شديداً ورهبةً * وللناس أشغالٌ وحبك شاغِلهْ
كريمٌ يُميت السرَّ حتى كأنّهُ * إذا حدثوه عن حديثك جاهلهْ
يودّ بأن يمسى سقيما لعلها * اذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويجهَدُ للمعروف فى طلب العُلا * لتُحْمَدَ يوماً عنـد عَزّ شمائلُهْ

وهو فى هذا الشعر لايكتم اسم من يهوى ، وانما يكتم أحاديث الحب ، وأسرار الصبابة ، كما قال جابر بن ثعلب الجَرمى

ومستخبرٍ عن سرِّ ريَّا رددتهُ * بعمياءَ من ريّا بغير يقينِ
فقال أتنصحنى إننى لكَ ناصحٌ * وما أنا إن خبَّرتُهُ بأمينِ

وهذا العباس ابن الأحنف كان من أكثر المحبين كتماناً ، ولكنه صرح باسم محبوبته فوز ، ولقد بلغ من حسد احدى جارته له أن سمت جاريتها « فوز » وقد قال فى ذلك

ماينقضى عجبى من جهل حاسدةٍ * كانت بذى الأثل من خِدنى وأنصارى
سمّت وليدتها فوزاً مغايظةً * عذرت لو لطمتنى ذات أسوار
وما يزال نساءٌ من قرابتها * فى كل ناحيةٍ يهتكنَ أستارى

ومسلم ابن الوليد يتغنى بكتم تباريح الصبابة فى قوله :

وما نلت منها نائلاً غير أننى * بشجو المحبين الالى سلفوا قبلى

بلى ربما وكّلت عينى بنظرةٍ * اليها تزيد القلب خبلاً على خَبَلِ

كتمت تباريح الصبابة عاذلى * فلم يدر ما بى فاسترحت من العذل

وقد عارضه ابن عبد ربه بقوله :

بنفسى التى ضنّتْ علىَّ بوصلها * ولو سألتْ قتلى وهبت لها قتلى

وإن حكمت جارت علىَّ بحكمها * ولكنّ ذاك الجور أحلى من العدل

وأحببت فيها العذل حبا لذكرها * فلاشئ أحلى فى فؤادى من العذل

وهو يذكرنا بقول أبى الشيص الخزاعى :

أجد الملامة فى هواكِ لذيذةً * حبًّا لذكرك فليلمنى اللُّوَّمُ

أشبهتِ أعدائى فصرت أحبهم * اذ كان حظى منكِ حظى منهم

وقول ابن نُباتة المصرى :

لثمتُ ثغر عذولى حين سمّاكِ * فلذّ حتى كأنى لاثمٌ فاكِ

ومن العشاق من يكتم الهوى جملةً واحدة ، كقول ابن قلاقس :

كتمت الهوى عند العواذل ضنةً * عليهم بمن أصبو إليه وأهواه

ولو قلت انى عاشق فطنوا لهُ * لعلمهمُ أنْ ليس يُعشق إلا هُو

وهو مذهب غريب ، وأغرب منه مذهب من يقول :

وقائلةٍ مابال جسمك لا يُرى * سقيما وأجسام المحبين تسقَمُ

فقلت لها قلبى بحبك لم يَبُحْ * لجسمى فجسمى بالهوى ليس يعلم

وللعباس بن الأحنف شجون من الحديث عن الكتمان ، فتارة

يذكر أنه باح بحبه حين طال بلاؤه . كقوله :

هذا كتابٌ بدمع عيني * أملاهُ قلبي على لساني
الى حبيبٍ كنيت عنهُ * أجَلَّ ذكرَ اسمهِ لساني
قدكنت أطوي هواه عنهُ * مذ كنت في سالف الزمانِ
فَبُحت إذْ طال بي بلائي * ولم يكن لي به يدانِ

وهو هنا يكتم حبه عن محبوبه ، فضلا عن الناس . وتارة يذكر أنه سيموت مكتوم السرّ الا عمن يحب . فيقول:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم * حتى اذا أيقظوني في الهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتصباً * بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا
جاروا عليَّ ولم يوفوا بعهدهمُ * قدكنت أحسبهم يوفون إن وعدوا
لأخرجنَّ من الدنيا وحبكمُ * بين الجوانح لم يشعر بهِ أحدُ
حسبي بأن تعلموا أن قد أحبكمُ * قلبي وأن تسمعوا صوت الذي أجدُ

وحينا يذكر أنه سلا ، لينصرف الناس عن التحدث بحبه ، رفقاً بمحبوبته . فيقول :

كذبت على نفسي فحدَّثت أنني * سلوت لكما ينكروا حين أصدقُ
وما من قِلًى مني ولا عن ملالةٍ * ولكنني أُبقي عليك وأشفق
عطفت على أسراركم فكسوتها * قميصاً من الكتمان لا يتخرَّق

وقد يعتذر عن هجره فيقول:

الله يعلم ماأردت بهجركم * إلا مصانعة العدوّ الكاشحِ
وعلمت أن تباعدي وتستري * أدنى لوصلكِ من دُنوٍّ فاضح

وأحلى من هذا قوله فى تعيين الغرض من الصدود :

سأهجر إلفى وهجرانها * اذا ما التقينا صدود الخدودْ
كلانا محبٌّ ولكننا * ندافع عن حبنا بالصدود

وتأمل قوله « صدود الخدود » يريد بذلك أن كلاًّ منهما يصدف بخده عن صاحبه ، أما القلوب فهى فى ائتلاف . وطوراً يكتفى بحديث العيون . كقوله :

كلانا مُظهرٌ للناس بغضاً * وكلٌّ عند صاحبه مكينُ
تخبرنا العيون بما أردنا * وفى القلبين ثَمَّ هوًى دفينُ

وقد يُسرُّ الحزن ، ويبدى السرور ، مبالغة فى التستر ، كقوله :

عيون العائدات تراكِ دونى * فياحسدى لعينىْ من يراكِ
أريدك بالكلام فأتقيهم * وأعمد بالكلام الى سواكِ
وأُكثر فيهمُ ضحكى ليخفى * فسِنِّى ضاحكٌ والقلبُ باكِ

وقد أفصح عن ضرورة الكتمان بقوله :

سأستر والستر من شيمتى * هوى من أُحبُّ بمن لا أُحبّ
ولا بد من كذبٍ فى الهوى * اذا كان دفع الأذى بالكذب

وربما تمنى لو استطاع أن يكاتم قلبه الحب . فيقول :

اذا لم يكن للمرء بدٌّ من الردى * فأكرم أسباب الردى سبب الحبّ
ولو أن خَلقاً كاتَمَ الحب قلبهُ * لمتُّ ولم يعلم بحبكمُ قلبى
اذا قيل تُقْرِيك السلام تماسكتْ * حُشاشةُ قلبى وانجلت غمرة الكرب

وقد ييأس من كتم الحب فيقول:

أما الهوى فهو شيءٌ لا خفاءَ بهِ * شتان بين سبيل الغيّ والرّشَدِ
إن المحبين قومٌ بين أعينهم * وَسْمٌ من الحب لا يخفى على أحدِ

وقد يبالغ في الكتمان حتى يضل الناس من أجل حبه في بيداء من الظنون ، ليس لليل نهار ، كما يقول :

قد سَحَّبَ الناسُ أذيالَ الظنون بنا * وفرَّق الناس فينا قولهم فِرَقا
فجاهلٌ قد رمى بالظن غيركمُ * وصادق ليس يدرى أنه صدقا

وقد ذكروا أن العباس ابن الأحنف مات هو وابرهيم الموصلي والكسائي في يوم واحد . فرفع ذلك إلى الرشيد . فأمر المأمون أن يصلي عليهم . فصُفُّوا بين يديه . ثم سأل عنهم واحداً واحداً وأمر بتقديم ابن الأحنف فصلى عليه . فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم ابن عبدالله ابن مالك الخزاعي فقال : ياسيدي ! كيف آثرت العباس بالتقدمة على من حضر ؟ فأنشده المأمون هذين البيتين :

سمّاكِ لي ناسٌ وقالوا إنها * لَهِيَ التي تَشقى بها وتكابدُ
فجحدتهم ليكون غيركِ ظنَّهم * انى ليعجبنى المحب الجاحدُ

ثم قال : أتحفظهما ؟ فقال نعم . فقال : أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة ؟ فقال : بلى ياسيدى ! [1]

ومن جيّد ماقيل في كتمان السر قول قيس بن ذُرَيح

(١) وضع صاحب البدائع كتابا خاصا سماه « صبابة ابن الأحنف » تناول فيه بالتفصيل حياة هذا الشاعر الوجدانية ، ووازن بينه وبين ابن أبي ربيعة وأبي نواس . وسيظهر هذا الكتاب بعد قليل

لو أنَّ امرأً أخفى الهوى عن ضميرهِ * لمتُّ ولم يعلم بذاكَ ضمير
ولكن سألقى الله والنفس لم تبُحْ * بسرِّكِ والمستخبرون كثير

ومن الشعر الموجع فى الكتمان قول جماهر بن عبد الحكيم الكلبى

قضى كلُّ ذى دينٍ فوفَّى غريمهُ * ودَينُكَ عند الزاهريَّة مايُقضَى
أكاتم فى حبى ظريفة بالى * اذا استبصر الواشون ظنوا به بُغضا
صدوداً عن الحيِّ الذين أودهم * كأنى عدوٌّ لايزور لهم أرضا
ولم يدعُ بأسم الزاهريَّة ذاكرٌ * على آلةٍ إلا ظلِلْنا لها مَرْضى
وما نقَع الهيمان بالشرب بعدهم * ولا ذاقت العينان مذ فارقوا غَمْضا

وقد يُتَّهم المرء بحب من لايحب ، فيتمنى لو تصدق التهمة ، كما قال صاحب البدائع

عجبت لهم أنَّى رمونى بحبِّها * ولا مُهجتى رهنٌ لديها ولا قلبى
فيارِبِّ صدِّقْ فى هواها عواذلى * فانَّ عناءً أن أُلامَ بلا ذنبِ
وإلاَّ فلا تقطع علىَّ ملامهم * فان ملام المرء فاتحة الحب

طرفة أدبية

قال بعضهم لمحبوبته

سِرِّى وَسِرُّكِ لم يعلم به أحدٌ * إلاَّ الإلَهُ وإلاَّ أنْتِ ثم أنا

فقالت له : لاتنس القوّادة ، فعندها الخبر اليقين !

قسوة التجنى

أكثر الشعراء من شكوى الهجر والصدود . وأكثروا القول كذلك عن قسوة التجنِّى ، فمن ذلك قول ابن نُباتة السعدى

يادهر لا غفَلَاتُ العيش عائدةٌ * ولا الشباب الذى أبليته فيها
ان كنت تمنع سُعدى من مطالبها * فلست تمنع سُعدى من تمنيها
لله نغمة أوتارٍ ومسمعةٌ * باتت تدل على شوقى أغانيها
وقهوةٌ كشعاع الشمس طالعةً * أفنيت بالمزج فيها ريق ساقيها
لو كنت أخضع فى الدنيا لنائبةٍ * خضعت من هجرها أو من تجنيها
تستعذب الدمعَ عينى فى محبتها * كأن ماتعتريه العين من فيها

وما أجمل قولَ ابن الرومى

ياعليلاً جعل العلّـــةَ مِفتاحاً لظُلمى
ليس فى الأرض عليلٌ * غير جفنيك وجسمى

وقد كتبت الآنسة حياة فهمى كلمة عنوانها (لعن الله الحب) ونشرتها فى الصباح : فأجابها الشاعر المبدع السيد حسن القاياتى بقوله

تلوم حياةٌ على العاشقينْ * رُويداً ورفقاً بنا ياحياتى
جهلت الغرام فلمتِ المحبَّ * هنيئاً لعينيْكِ فى الناعساتِ

ثم سأل صاحب البدائع عن رأيه فى تجنِّي هذه الفتاة . فأجابه بما نصه :

« يرى سيدى الشاعر أن الآنسة حياة جهلت الحب ، فلامت المحبين . ولو قال غير ذلك لأصاب شاكلة الصواب . لأن المرأة

كالسياسى سواء بسواء . يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون . فاذا قال السياسى (لا) فاعلم انه يريد (نعم) وإذا قال (نعم) فاعلم أنه يريد (لا) واذا قالت المرأة (لا أحب) فاعلم أنها (تحب) واذا زعمت أنها (كارهة) فاعلم أنها (راضية) فان كنت فى ريب من ذلك ياصديقى الأديب فانى أذكرك بقولك من قصيدة نشرتها لك فى جريدة الافكار سنة ١٩١٩

عهد السياسة كاذبٌ * لله درُّكِ ياسَجاح !

وقد قال (تاسو) أحد شعراء ايطاليا : إن المرأة تفر ، وتود أن تُلحَق وهى فارَّة : وتأبي ، وتود فى إبائها أن تُسْرق . وتناضل ، وترغب أن يُظفَر بها فى النضال ! !

فقول الآنسة حياة « لست ممن تغلّب الحب على قلوبهم » معناه أن الحب صيَّرَهَا باكية العين ، دامية الفؤاد ! وقولها « الحب عدوّ لدود للإنسان ، فيجب أن يُبعد عن القلوب » معناه أن الحب مادَّة الحياة . فيجب أن تزوّد به القلوب !

وقولها « تباعدوا عن الحب » معناه : أقبلوا على الحب بسمعكم وبصركم ، أيها الشباب !

هذا ياصديقى ماتريده الآنسة حياة فهمى ! فهى حين تقول « لعن الله الحب » انما تريد « حيّا الله الحب » وأنت بما تريد عليم !

ولا يفوتنى قبل ختام هـذه الكلمة أن أوجّه للآنسة حياة هذا السؤال :

إنك تأمريننا بأن لانحب (سمعاً وطاعه !) ولو أنى سمعت هذه النصيحة قبل خمسة عشر عاماً لنجوت من الحب. ولاسترحت الآن من تسطير مدامع العشاق، ولكنى يامولاتى لسوء الحظ قد أحببت، وقد ضُرِبت بمحبتى الأمثال، وأريد أن أسلم من الحب على يدك الطاهرة، جعل الله فى يُمناك الشفاء، من كل داء، فهل لك أن تصفى لى طريق الخلاص من هذا الضلال القديم، ومن أسماء الحب الضلال؟

أنا فى انتظار الجواب!

ملحوظة — أرجو أن تحترس الآنسه حياة، وهى تكتب أنواع العقاقير، من أن تنهانى عن التطلّع إلى العيون، والخدود، والثغور، والنحور، والنهود، فانه لاسبيل إلى مثل هذا المتاب!! وانما أريد أن أسلو وأنا أعبث بأفنان الجمال، كما يردُّ الشارب الكأس وهى تتوهّج بين أنامل الساقى الجميل!!

وقد ردّ السيد حسن القاياتى على هذه الكلمة بخطاب شائق ولولا الرغبة فى الايجاز لأمتعنا به القارئ، ومن السهل الرجوع اليه فى كتاب البدائع

وقد حَسُن التجنى فى قول أحد الشعراء

صدّ عنى محمد بن سعيدِ * أجمل العالمين ثانىَ جيدِ
ليس من بِغضةٍ يصدّ ولكن * يتجنّى لحسنهِ فى الصدودِ

ظلم الحبيب

وفى الحب وحده يحلو الظلم ، حتى لتحكم عُليّة بنت المهدى بأن الحب بُنى عليه . وتقول

وُضِعَ الحبُّ على الجَوْرِ فلو * أنصف المعشوق فيهِ لسمُجْ
ليس يستحسن فى شرع الهوى * عاشقٌ يُحْسن تأليف الحجَج

وقال النميرى

راحتى فى مقالة العُذّالِ * وشفائى فى قِيلهم بعد قالِ
لا يطيب الهوى ولا يحسن الحـــبُّ لصبٍّ إلا بخمس خِصالِ
بسماع الأذى وعذل نصيحٍ * وعِتابٍ وهِجْرَةٍ وتَقالِ

ويعلّل بعضهم جمال الظلم فى الحب بقوله :

لولا اطِّراد الصيد لم تكُ لذةٌ * فتطاردى لى فى الوصال قليلا
هذا الشراب أخو الحياة وماله ُ * من لذةٍ حتى يصيبَ غليلا

ومثله قول الآخر

دع الصبّ يصلى بالأذى من حبيبهِ * فان الأذى ممن تُحب سرورُ
غُبار قطيع الشاء فى عين ذئبها * إذا ما تلا آثارهنّ ذرورُ

وأنشد الأصمعى

لاخير فى الحب وقفاً لاتحركهُ * عوامل اليأس أو يقتاده الطمعُ
لو كان لى صبرها أو عندها جزعى * لكنت أملك ما آتي وما أدَعُ
اذا دعا بأسمها داعٍ ليحزننى * كادتْ لهُ شُعبةٌ من مهجتى تقعُ

لا أحمل اللوم فيها والغرام بها * ما كلَّف الله نفساً فوق ماتسع

ومن جيِّد الشعر فى ظلم الحبيب قول أبى حية النميرى

رمتنى وسِتر الله بينى وبينها * ونحن بأكناف الحجاز رميم

رميمُ التى قالت لجارات بيتها * ضمنت لكم أن لايزال يهيمُ

ألا رُبَّ يومٍ لو رمتنى رميتها * ولكنَّ عهدى بالنضال قديمُ

فياعجباً من قاتلٍ لى أودُّهُ * أشاطدمى شخصٌ علىَّ كريم

يرى الناس أنى قدسلوت واننى * لمدنف أحشاء الضلوع سقيمُ

وهذا الشعر غاية فى رقة المعنى وجزالة الألفاظ

وما أجمل الرفق فى قول ابن الرومى

أصبحت مملوكا لأحسن مالك * لو كان كمّل حسنَه إسجاحهُ

لم يَعنِهِ أرَقى وفيه لقيتهُ * حتى أضرَّ بمقلتى إلحاحه

كلا ولا دمعى وفيه سفحتُهُ * حتى أضرَّ بوجنتى تَسفْاحهُ

لامسّهُ بعقوبةٍ من ربِّهِ * إقلاقه قلبى ولا إتراحهُ

ياليت شعرى هل يبيت مُعانقى * ويداىَ من دون الوشاحِ وشاحه

هل أنتَ مُنصف عاشقٍ متظلِّمٍ * طول النحيب شكاتُه وصياحهُ

قَسَماً لقد خيَّمْت منك بمنزل * لى حزْنُهُ ولمن سِواىَ بِطَاحهُ

مابال ثغرك مشرَباً لى سُكْرُهُ * ولمن سواى فدتْك نفسى راحهُ

نفسى معذَّبةٌ به من دونهِ * ويُباحهُ دونى ولست أُباحهُ

وأحب لو تأمل القارئ قول الشريف

ولى ناظرٌ بعد بين الخليـــط مات من الدمع إنسانهُ

روائحُ من الماء آماقُهُ * ظِماءٌ من النوم أجفانُهُ
فأين من الداء إفراقه[(1)] * وأين من القلب سُلوانُهُ
فياظالماً طيباً ظلمُهُ * كثيراً على القلب أعوانُهُ
يباع بسومك حَبُّ القلوب * وتغلق عندك أثمانُهُ[(2)]
وشرّ الإساءة من مالكٍ * أساء وما نيلَ إحسانُهُ

وقال نُوَيب

أيا ثارات من قتلته سُعدى * دمى لاتطلبوه لها حلالُ
أرقّ لها وأُشفق بعد قتلى * على سُعدى وإن قلّ النوالُ
وما جادتْ لنا يوماً ببذل * يمينٌ من سعادَ ولا شِمال

ونوَيب هذا هو الذى يقول

ألا فى سبيل الله نفسٌ تقسّمتْ * شَعاعاً وقلب للحسان صديقُ
أفاقت قلوبٌ كُنَّ عذّبن بالهوى * زماناً وقلبى ما أراهُ يُفيق
عصيت بك الناهين حتى لو انني * أموت لما أرعى علىَّ شفيقُ

قساة القلوب

والعشاق يرمون أهل الحسن بقسوة القلب ، وغِلَظ الكبِدِ ، ويحسب ابن الأحنف أن قلوب الحِسان قُدَّت من الصخر . فيقول :

أظن وما جرّبت مثلك أنما * قلوب نساء العالمينَ صُخُور
ذريني أنم إن لم أنل منك زَوْرةً * لعلّ خيالاً فى المنام يزورُ

(١) أفرق من دائه برئ منه (٢) غلق الثمن ضاع

بكيت إلى سِربِ القطا حين مرّ بي * فقلت ومثلى بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من يعير جناحه * لعلى إلى من قد هويت أطيرُ

وقد نظر المرحوم اسماعيل باشا صبرى إلى استعارة الجناح فقال:

ياسرحةً بجوار الماء ناضرةً * سقاكِ دمعىَ ان لم يوفِ ساقيكِ
عارٌ عليك وهذا الظل منتشرٌ * فتك الهجير بمثلى فى نواحيكِ
هل من مُعيرى جناحَىْ طائرٍ غردٍ * كى أقطع العمر شدواً فى أعاليك
فلا أُنفَّر عن أرض غُرِستِ بها * ولا يرنُّ بسمعى غير واديكِ

ومن المحبين من يصف قلب محبوبته بالطمأنينة والهدوء، فى حين أن قلبه يتلظى على جمر الصدود . كما قال بشار [1]

أيها الساقيان صُبّا شرابى * واسقيانى من ريق بيضاء رُودِ
إن دائى الصدى وإن دوائى * شربةٌ من رُضاب ثغرٍ برودِ
ولها مَبْسَمٌ كغُرِّ الأقاحى * وحديثٌ كالوشْىِ وشْىِ البرودِ
نزلت فى السواد من حبة القلـــــب ونالت زيادة المستزيدِ
ثم قالت نلقاك بعد ليالٍ * والليالى يبلين كل جديدِ
عندها الصبر عن لقاىَ وعندى * زفَراتٌ يأكلن قلب الحديد

وما أظرف قول أبي نواس فى معشوقته جنان

جنان تسبنى . ذكرَتْ بخير * وتزعم أننى رجلٌ خبيث
وأن مودتى كذبٌ ومينٌ * وأني للذى أهوى نثوثُ

(١) فى كتاب البدائع بحث شائق عن ظلم العواطف ، فارجع اليه لترى ماصنع الدهر بشعر بشار

وليس كذا ولا ردٌّ عليها * ولكن الملولَ هو النكوثُ
ولى قلبٌ ينازعنى اليها * وشوق بين أضلاعى حثيثُ
رأت كلفى بها ودوام عهدى * فملّتنى كذا كان الحديثُ

وأبدع ماقيل فى قسوة قلب الجميل قول خالد الكاتب

ليت ما أصبح مِنْ * رقّة خدّيْك بقلبِكْ

ولقُساة القلوب يقول صاحب البدائع

لقد صَددْنا كما صَددتُمْ * فهل ندمتم كما ندمنا
وشفّنا الوجدُ مُذْ جفوتم * فأظهر الدمع ما كتمنا
وهبت روحى وقلت عطفاً * فما عطفتم وما رجعنا
ملكتموها وما وصلتمْ * لقد غنِمتم وما غَنِمْنا
وما ازدَدْت خوفاً على فؤادى * إلاّ وزدتمْ رضًى وأمْنا
وما رجائى وقد قويتم * على جفائى وزدت وهْنَا
قتلت نفسى على جفاكم * وما قرعتم علىّ سنّا
لهْفى على السالف المُفدّى * لو كان يُجدى الفدا لجُدْنا
فما ذكرنا الذى تقضّى * الا على حسنه انتحبنا

*
* *

لوكنت أشكو الهوى لصخرٍ * لحنّ وجداً وأنّ حزْناً
وذاب من هول ما أراه * فقد برانا الهوى وذُبْناَ
إن كان ذنبٌ فسامحونا * ويشهد الله ما أسأْنا

وصاحب البدائع هو الذى يقول :

أيها الظالمُ الجميلُ سلامٌ * من أسيرٍ قيَّدتهُ بجفاكا

كيف أصليتنى من الهجر ناراً * وحرمت العيون من أن تراكا

ليت من شاء أن يطول أسانا * فى سبيل الهوى أطال أساكا

سوف أنجو من الغرام وأغدو * مُطلَق النفس من قيود هواكا

فاسقِنى المرَّ من صدودك واحكم * جائر الحكم فى ظلال صباكا

وقد حسب بعض الناقدين أن فى هذا الشعر نذيراً بنقض العهد ، وجحود الود ، وليس الأمر كما يحسبون ، وانما هى صورة لحالة من حالات النفس ، حين يثور الوجد ، ويتمنى المحب ليأسه لو أفلت من أشراك هواه ، وهيهات هيهات !!

سيف الفراق

نتكلم فى هذا الحديث عن وصف الشعراء لفتك الفراق بالنفوس وقتله للقلوب ، فنهم من يذكر تعثُّره فى الطريق ، وضلاله عن القصد ، بعد فراق من يحب ، كما قال بعض الأعراب

وما وجد مغلوبٍ بصنعاءَ مُوثَقٍ * بساقيْهِ من ثِقْل الحديد كبُولُ

ضعيفُ الموالى مُسلَمٌ بجريرةٍ * لهُ بعد نومات العيون عويل

يقول له الجلّاد أنت مُعَذَّبٌ * غداةَ غدٍ أو مُسلَمٌ فقتيل

بأوجعَ منى لوعةً يوم راعنى * فراق حبيبٍ ما إليه سبيلُ

غداةَ أسيرُ القصد ثم تردُّنى * عن القصد لوعات الهوى فأميل

وهذه القطعة من غُرَر الشعر ، وهى آية فى وصف الحيرة يُرمى بها المحب المشوق ، بعد فراق لا يُرْجى أن يعقبه لقاء . وتأمل كيف شبه حاله بحال مغلوب كُبِّل بالحديد ، فى جريرة لا يغنى فى دفعها ضعف مواليه ، وقد أصبح موضع النذير من الجلّاد فى كل صباح ومساء ، وحسبُ الفراق أن يرمى المحب فى مثل هذه الحال !

وأنشد الجاحظ

أزف البين المبينُ * قطع الشكّ اليقينُ

حنَّت العيش فأبكا * نى من العيش الحنينُ

لم أكن لا كنت أدرى * أن ذا البين يكون

علمونى كيف أشتا * قُ إذا خفّ القطين

وكان أستاذنا الشيخ سيد المرصفى يسخر ممن يقول :

وأنا بكيت من الفرا * ق فهل بكيت كما بكيتُ

ولطمت خدى خالياً * ومرَسْتُهُ حتى اشتفيتُ

وعواذلى ينهيننى * عمّن هويت فما انتهيتُ

وأنا أحسب أن البكاء ولطم الخدود أهون ما يجرى بعد الفراق ، ويا ويلتاه من الفراق !

وما أصدق من يقول :

أَمُزْمِعةٌ ليلى ببين ولم تَمُتْ * كأنك عمّا قد أظلكَ غافل

ستعلم إن شطّت بهم غُربة النوى * وزالوا بليلى أن قلبك زائلُ

ومن المتيمين من يشجيه أن يقاسى أحبابه متاعب السفر ،

ومشاق السُّرى ، ومصاعب الادلاج . ثم يرجع إلى نفسه فيتوجّع لحاله بعد الفراق . كقول أبى تمام

لو كان فى البين إذ بانوا لهم دعةٌ * لكان بينهمُ من أعظم الضرَرِ
فكيف والبين موصولٌ به تعبٌ * تكلُّفِ البيد فى الادلاج والبُكَرِ
لو أن ما يبتليني الحادثات بهِ * يكون بالماء لم يُشرب من الكَدَرِ
أو كان بالعِيسِ ما بى يوم رحلتهم * أعيتْ على السائق الحادى فلم تسرِ
كأن أيدى مطاياهم إذا وخدَتْ * يقعن فى حُرّ وجهى أو على بصرى

وهذا شعر يُذيب لفائف القلوب... وقال بعض المعذبين

قد قلت والعبرات تسـ ـفحها على الخد المآقى
حين انحدرت الى الجزيـ ـرة وانقطعت عن العراقِ
يابؤس من سلّ الزما * نُ عليه سيفاً للفراقِ

إى والله

يا بُؤسَ من سلّ الزما * نُ عليه سيفاً للفراقِ

إنه لا محالة مقتول!

وقد يلوم المحب نفسه على فراق أحبابه ، كالذى يقول :

أتظعن عن حبيبك ثم تبكى * عليه فمن دعاك الى الفراقِ
كأنك لم تذق للبين طعما * فتعلم أنه مر المذاقِ
أقم وانعم بطول القرب منه * ولا تظعن فتكبتَ باشتياق
فما اعتاض المفارق من حبيبٍ * ولو يعطى الشآم مع العراق

ومثله من يقول

تطوى المراحل عن حبيبك دائباً * وتظل تبكيه بدمع ساجم
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى * تشكو الفراق وأنت عين الظالم
هلاّ أقمت ولو على جمر الغضى * قُلّبتَ أو حدّ الحُسام الصارم

وما أوجع ماقالته إحدى النساء

كنا كغصنَىْ بانةٍ وَسْطَ روضةٍ * نشم شذا الأزهار فى عيشةٍ رغْدِ
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطعٌ * فيافردةً بانت تحنُّ إلى فَرْدِ

ولهذين البيتين قصة محزنة يضيق عن ذكرها المجال

الهرب من الفراق

وإذا كان ما تقدم هو حال المحبين يوم الفراق ، فليس ببدع أن يهرب البحترى من منظر الوداع ، وأن يظرف حين يقول :

الله جارك فى انطلاقِكْ * تلقاء شامِكَ أو عِراقِكْ
لا تعذُلَنِّى فى مسيـــرِكَ يوم سِرْتَ ولم أُلاقِكْ
إنى خشيت مواقفاً * للبين تسفح غَرْبَ ماقِكْ
وعلمت ما يلقى المتيّـــمُ عند ضمِّك واعتناقك
وعلمت أن لقاءنا * سبب اشتياقى واشتياقك
فتركت ذاك تعمُّدًا * وخرجتُ أهرب من فراقِكْ

وفى مقابل هذا المعنى يقول العباس ابن الأحنف وقد حُرِم توديع من يحب

كفى حزناً أنى بقيت وليس لى * سبيل إلى توديعكم فأودّع
تلفّتُ خلفى حيث لم تبق حيلة * وذوّدت عينى نظرة وهى تدمع

غراب البين

أكثر العرب من ذكر الغراب ، والتشاؤم من منظره ، حتى ليقولون : غراب البين . فمن ذلك قول كثيِّر :

رأيت غراباً ساقطاً فوق بانةٍ * ينتِّفُ أعلى ريشه ويطايرُهْ
فقلت ولو أنى أشاء زجرتهُ * بنفسىَ للنهدىِّ هل أنت زاجرُهْ
فقال غرابٌ لاغترابٍ من النوى * وفى البان بينٌ من حبيب تجاورهْ
فما أعْيَف النهدىّ لادرّ درُّهُ * وأزجره للطير لاعزَّ ناصرُهْ

ومن الشعراء من استخف بهذه الخرافة ، وسخر من المتطيرين ورأى أن الإبل هى التى تفرق الأحباب . كقول أبى الشيص :

مافرّق الأحباب بعـــد الله إلا الإبلُ
والناس يلحون غرا ب البين لمّا جهلوا
وما على ظهر غرا ب البين تُطوى الرّحلُ
ولا إذا صاح غرا بٌ فى الديار احتملوا
وما غراب البين الا ناقةٌ أو جمل

ومنهم من لا يجيز ذم المطىّ ، لأن لها صلة بمن يحب . كالذى يقول :

زعموا بأن مطيهم عون النوى * والمؤذنات بفرقةِ الاحبابِ
ولو انها حتفى لما أبغضتها * ولها بهم سببٌ من الاسباب

فقد العزاء

وقد يعنفُ الهوى ويقسو ، حتى يذهب بجميل الصبر ، وحميد العزاء ، فمن العشاق من يفقد اصطباره عند الوداع . كقول ابن نُباتة السعدى :

كيف العزاء وأين بابه * والحىُّ قد خفّت ركابه
بأغرَّ منتقبٍ يتمُّ * على محاسنه نقابه
متأوِّدٌ حلو الشمائل * من أساوره حِقابه[1]
زعم المخبِّر أنه * ضُرِبتْ على سلعٍ قِبابه
فطلبته كالأيم أو * كالسيل فى الليل انسيابه
فاذا أحمُّ المقلتيـــن يشين أنمله خضابه
يهتزُّ مثل السمهرىِّ * تدافعت فيه كِعابه
وقف الولائد دونهُ * كالقلب يستره حجابه
أقبلت أسأله وأعـــلم أن حرمانى جوابه
ويلى على متلوِّن الـــــأخلاق يعجبه شبابه
لا رُسله تترى اليـــنا بالسلام ولا كتابه

وأحب أن يتأمل القارئ هذه القصيدة البديعة ، وأن يتنبه إلى دقة الوصف فى جميع ماعَرَض الشاعر له . وعلى الأخص تلون الاخلاق ، والزهو بالشباب ، فى أرباب الجمال !! وقال الشريف :

---

(١) الحقاب ماتشده المرأة فى وسطها وتعلق به الحلى

ورامين وهناً بالجمار وانما * رموا بين أحشاء المحبين بالجمر
رموا لا يبالون الحشا وتروحوا * خليين والرامى يصيب ولا يدرى
وقالوا غداً ميعادنا النفر عن منى * وماسرنى أن اللقاء مع النفر
ويا بؤس للقرب الذى لا نذوقه * سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر
فياصاحبى إن تعط صبراً فاننى * نزعت يدى اليوم من طاعة الصبر
وان كنت لم تدر البكا قبل هذه * فيعاد دمع العين منقلب السفر

وقد يستولى الحزن على القلب ، ويتغلغل فى سويدائه ، حتى ييأس المحب من صلاحية فؤاده للسرور ، لو رجعت أسبابه ، كما قال بعض الشعراء :

كم استراح الى صبر فلم يرح * صب اليكم من الأشواق فى ترح
تركتم قلبه من حزن فرقتكم * لو يرزق الوصل لم يقدر على الفرح

وقال خالد الكاتب يفضل اللوعة على العزاء :

عاتبت نفسى فى هوا * ك فلم أجدها تقبل
وأطعت داعيها اليـ * ـك فلم أطع من يعذل
لا والذى جعل الوجـ * ـوه لحسن وجهك تمثل
لا قلت إن الصبر عنـ * ـك من التصابى أجمل

وقال اسحق الموصلى فى ذهاب الوداع بالصبر الجميل :

تقضت لبانات وجد رحيل * ولم يشف من أهل الصفاء غليل
ومدت أكف للوداع فصافحت * وفاضت عيون للفراق تسيل

ولابدّ للألّاف من فيض عَبْرَةٍ * اذا ما خليلٌ بان عنهُ خليلُ
فكم من دمٍ قد طُلَّ يوم تحمّلتْ * أوانسُ لا يودَى لهنّ قتيلُ
غداة جعلت الصبر شيئاً نسيتهُ * وأعولتُ لو أجدى عليّ عويلُ
ولم أنس منها نظرةً هاج لى بها * هوًى منه بادٍ ظاهرٌ ودخيلُ
كما نظرت حوراء فى ظلّ سِدْرةٍ * دعاها إلى ظلّ الكِناس مقيلُ

وابن زيدون يجعل صبره عن حبيبه كصبر الظمآء عن الماء ، فيقول :

اليك من الأنام غدا ارتياحى * وأنت من الزمان مدى اقتراحى
وما اعترضت هموم النفس إلا * ومن ذكراك ريحانى وراحى
فديتك ان صبرى عنك صبرى * لدى عَطَشي عن الماء القَراحِ
ولى أملٌ لو الواشون كفُّوا * لأطلع غرسهُ ثمر النجاح
وأعجبُ كيف يغلبنى عدوٌّ * رضاك عليه من أمضى سلاحى
فؤادى من أسًى بكَ غير خالٍ * وقلبى من هوًى لك غير صاحى
فلو أسْطيعُ طرت اليك شوقاً * وكيف يطير مقصوص الجناحِ

ويأسى ابن الدمينة على أنْ لم يُغنه القرب ، ولم يسلّه البعد ، فيقول :

وقد زعموا أن المحب اذا دنا * يَمَلُّ وأن النأى يشفى من الوجدِ
بكلٍّ تداوينا فلم يُشفَ ما بنا * على ذاك قرب الدار خير من البعدِ
على أن قرب الدار ليس بنافعٍ * اذا كان من تهواه ليس بذى عهدِ

وأوجع الشعر فى فقد العزاء قول بعض الأعراب :

فيارب إن أهلك ولم تروِها منى * بليلى أمُتْ لاقبر أعطش من قبرى
وإن أكُ عن ليلى سلوت فانما * تسليت عن يأس ولم أسلُ عن صبرِ
وان يكُ عن ليلى غنًى وتجلد * فرب غنى نفسٍ قريب من الفقرِ

بكاء الشباب

ولعلّ أشجى ما يمرّ بخاطر المرء أن يهجره الغيد بعد انصرام الشباب ، والشباب هو شفيع الفتى الى قلوب الحِسان ، فاذا مضى فقد أصبح بلا شفيع ، والويل للمفرد المغلوب !

من أجل ذلك تفنن الشعراء ، فى بكاء الشباب ، والتنكُّر للمشيب. فنهم من تبيضُّ فى رأسه شعرة واحدة ، فلا يراها قليلة ، لأن قذى العين غير قليل ، كما قال ابن الرومى :

طرفْت عيون الغانيات وربما * أمالتْ إلىَّ الطَّرفَ كلَّ مَميلِ
وما شبت إلاَّ شيبةً غير أنهُ * قليل قذاة العين غير قليل

وابن الرومى يكثر البكاء على شبابه ، ويعلل نفسه أحياناً بأن الشيب فى الرأس كالنَّورْ على الغصن ، ويأسى كثيراً لاحتياجه الى الخضاب ، الذى يراه أشبه بسواد الحداد ، ويكاد يصرخ من خروجه الى الحسان فى شَعْرٍ ميّت ، وقلبٍ حيّ ، والمحب يتفجّر قلبه دائما بالحياة ! وانظر كيف يقول :

شاب رأسى ولات حين مشيب * وعجيب الزمان غير عجيبِ
قد يشيب الفتى وليس عجيباً * أن يُرَى النورُ فى القضيب الرطيب
ساءها أن رأت حبيباً إليها * ضاحك الرأس عن مفارقَ شيبِ

يا حليف الخضاب لا تخدع النفـــس فما أنت للصبى بنسيب
ليس يجدى الخضاب شيئاً من النفـــع سوى أنه حدادُ كئيب
لهْفَ نفسى على القناع الذى مَحَّ * وأُعقِبتُ منه شرَّ عقيب (١)
منع العين أن تقرّ وقرّتْ * عين واشٍ بنا وعين رقيب
شَعَرٌ ميِّتٌ لذى وطرٍ حيٍ * كنار الحريق ذات اللهيب
ظلمتنى الخطوب حتى كأنى * ليس بينى وبينها من حسيب
وما أروع قوله فى السُّخْر من الخضاب
رأيت خِضاب المرء عند مشيبه * حداداً على شرخ الشبيبة يُلبَسُ
وإلاّ فما يغزو امرؤٌ بخضابه * أيطمع أن يخفى شبابٌ مُدَلَّسُ
وكيف بأن يخفى المشيب لخاضبٍ * وكلٌّ ثلاثٍ صبحهُ يتنفَّسُ
وهَبْهُ يوارى شيبهُ أين ماؤهُ * وأين أديمٌ للشبيبة أملَسُ
وقال أشجع السلمى يوصى بانتهاب اللذات ، قبل أن يقف فى سبيلها الهَرَم والمشيب
ومالىَ لا أعطى الشباب نصيبهُ * وغُصناه يهتزّان فى عوده الرطْب
رأيت الليالى ينتهبن شبيبتى * فأسرعت باللذات فى ذلك النَّهْب
رأيت بنات الدهر يخلِسْن لذتى * لقد حزن سِلْمى وانتهين إلى حربي
وقد حوّلت حالى الليالى وأسْرَجَتْ * على الرأس أمثال الفتيل من العَطْب
وموت الفتى خيرٌ له من حياته * إذا كان ذا حالين يصبو ولا يُصبى
وقال آخر فى صدوف النساء عن صَرْعى المشيب

(١) مح القناع بلى - والعقيب البديل

هل الأُدْم كالآرام والدهر كالدُّمى * مُعاودتى أيامهنَّ الصوالحُ
زمانَ سلاحى بينهن شبيبتى * لها سائقٌ من حسنهنّ ورامحُ
وأقسمنَ لايسقيننى قَطرَ مُزنةٍ * اشيبي ولو سالت بهنَّ الاباطح

وكان أستاذنا المرحوم فقيد اللغة والأدب الشيخ محمد المهدى بك كثير الإعجاب بقول أبى منصور النميرى فى الجزع على شبابه المفقود

ماتنقضى حسرةٌ منى ولا جزَعُ * اذا ذكرت شباباً ليس يرتجعُ
بان الشباب ونابتني بفرقته * خُطوبُ دهرٍ وأيام لها خِدَع
ما كنت أوفى شبابى كنه قيمته * حتى انقضى فاذا الدنيا له تَبَعُ
تعجبّتْ أن رأت أسراب دمعته * فى حلبة الخد أجراها حشاً وجعُ
أصبحت لم تطعمى ثكل الشباب ولم * تشجَىْ بغصته والعذر لايقعُ
لا ألحينَّ فتاتى غير كاذبةٍ * عينَ الكذوب فما فى ودكم طمعُ
ما بالشبيبة من وانٍ وإن رفعت * إلا لها نبوةٌ عنه ومرتدعُ
إنى لمعترفٌ مافىَّ من أربٍ * عند الحسان فما فى النفس منخدَعُ
قد كدتَ تقضى على فوت الشباب أسًى * لولا أعزيك إن الامر منقطعُ

ويذكرون أن الرشيد سمع هذا الشعر، وبكى له، وأنشد

أتأمل رجعة الدنيا سفاهاً * وقد صار الشباب إلى ذهابِ
فليت الباكيات بكل أرضٍ * جُمِعْنَ لنا فَنُحن على الشبابِ

ومن التعليل الكاذب قول البحترى فى مدح المشيب

عذلتنا فى عشقها أم عمرٍو * هل سمعتم بالعاذل المعشوقِ
ورأت لمةً ألمّ بها الشيـب فريعت من ظلمة فى شروقِ

ولعمرى لولا الاقاحى لأبصر * تَ أنيق الرياض غير أنيقِ
وسواد العيون لو لم يجاورْ * هُ بياضٌ ما كان بالموموق
ومزاج الصهباء بالماء أملى * بصبوح مُسْتَحْسَنٍ وغبوق
أىُّ ليلٍ يَبهى بغير نجومٍ * أوسحاب يَندى بغير بروق

ولكن ماذا يصنع الأشيب ، إن لم يغالط الحسان بهذه المعاذير ؟!

بلايا الغيرة

نذكر هنا ماجرى فى سبيل الغيرة من الدموع . ونتقدم ذلك بقول بعض الأندلسيين وقد قبّل من يهواه :

يارب إن قدّرته لمقبّلٍ * غيرى فللمسواك أو للأكؤسِ
واذا قضيت لنا بصحبة ثالثٍ * يارب فليكُ شمعةً فى المجلسِ
واذا حكمت لنا بعين مراقبٍ * يارب فليكُ من عيون النَّرجس

ألست ترى الرعب وقد استولى على هذا الشاعر من أن ينعم بحبيبه سواه ، فجعل يتمنى ، لو تنفع الأمانى ، أن لا يراقبهم غير النرجس ، وأن لا يصحبهم غير الشمعة ، وأن لا يقبّل محبوبه غير الكأس أو المسواك ؟!

وقد جُنّ العرب بالغيرة جنونا : فتخيلّوا غسان بن جهضم ينشد زوجه من عالم الأرواح ، وقد زُفت الى غيره بعد موته بقليل :

غدرتِ ولم ترعَىْ لبعلك حُرمةً * ولم تعرفى حقاً ولم تحفظى عهدا
ولم تصبرى حولاً حفاظاً لصاحب * حلفتِ له يوماً ولم تنجزى وعدا

غدرت به لما ثوى فى ضريحهِ * كذلك ينسى كل من سكن اللحدا

وتخيل رواة العرب ان موسى الهادى جاء الى جاريته (غادر) وقد أقبلت من بعده على أخيه هرون فأنشدها وهى نائمة هذه الأبيات :

أخلفتِ عهدى بعد ما * جاورتُ سكان المقابرْ
ونكحتِ غادرةً أخى * صدق الذى سمّاكِ غادرْ
لا يَهنِكِ الإلف الجديــدُ ولا تنم عنك الدوائرْ
ولحقتِ بى قبل الصبا * ح وصرتِ حيث غدوت صائرْ

بعد هذا التمهيد يستطيع القارئ أن يدرك لِمَ حملت الغيرة عبد السلام بن رغبان على قتل غلامه وجاريته ! ! وحديث هذا الشاعر عجيب : فقد ذكروا أنه اشترى غلاماً وجارية ، ثم شغفاه حبا ، فكان يجلس للشراب والجارية عن يمينه والغلام عن شماله ! ! ثم خشى أن يموت قبلهما فينعم غيره بما لهما من روعة وجمال : فذبحهما وأحرقهما وصنع من ترابهما آنيتين للشراب ! !

وكان ينشد حين يشرب من الآنية التى صنعها من تراب الغلام هذه القطعة الباكية :

أشفقتُ أن يردَ الزمان بغدرهِ * أو أُبتلى بعد الوصال بهجرهِ
قمرٌ قد استخرجته من دَجْنهِ * لبليّتى وأثرتُهُ من خِدرهِ
فقتلتهُ وله علىَّ كرامةٌ * فله الحشا وله الفؤاد بأسرهِ
عهدى به ميْتاً كأحسن نائمٍ * والحزن يسفح مدمعى فى نحرهِ
لو كان يدرى الميْت ماذا بعدهُ * بالحىِّ منهُ بكى لهُ فى قبرهِ

غُصَصٌ تكاد تفيض منها نفسهُ * ويكاد يخرج قلبه من صدرهِ

ثم ينشد حين يشرب من الآنية التى صنعها من تراب الجارية هذه القطعة التى يندر أن نجد أحرّ منها فى الرثاء

يا طلعةً طلع الحمام عليها * فجنى لها ثَمَر الردى بيدَيْها

حكّمت سيفى فى مجال خِناقها * ومدامعى تجرى على خدَّيْها

روَّيت من دمها الثرى ولطالما * روّى الهوى شفتىّ من شفَتَيْها

فوحقّ نعليْها وما وطئ الثرى * شئ أعزُّ علىّ من نعلَيْها

ما كان قتليها لأنى لم أكنْ * أبكى إذا سقط الذباب عليْها

لكن بخلت على الوجود بحسنها * وأنِفْت من نظر العيون اليها

ولعل الظلم لم يرزق حجةً أقوى من هذه الحجة ، ولا برهاناً أسطع من هذا البرهان ! ! وكانت السيدة سكينة تعيب على جرير قوله :

طرقتكَ صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعى بسلامِ

وكانت تقول : قاتله الله ما أقساه ! هلاّ قال : ادخلى بسلام !

فلو سمعت السيدة سكينة بهذا المحب السفاح لطال بكاؤها على صرعى الغيرة ، وقتلى الإشفاق ! ! ولئن كان الجنون فنوناً كما يقولون ، فهذا ورب الكعبة أغرب فنون الجنون ! وكنا نود لو حدثنا التاريخ عن أثر هذه الأعجوبة فى أنفس من عاصروا ابن رغبان لنعرف رأيهم فى الجناية على الجمال ! ألم يكفهم أن الحسن حال تحول ، ودولة تدول ، حتى تسوق غيرتهم اليه الفناء ؟ وبعد فقد سمى عبد السلام بن رغبان هذا « ديك الجن » وانه فى فعلته هذه اشيطان مريد ! !

هذا ، ومن الشعراء من يغارُ من عُود البَشام حين يَستاكُ به الحبيب ، ومن العقد يطوّق به الجِيد ، ومن النقاب يحجب به الوجه الجميل ، كما قال الشريف

يا غزال الجزع لو كا * نَ على الجزعِ لِمامُ
أحسد الطوق على جِيـــدِكَ والطوق لِزَامُ
وأعضُّ الكفَّ إن نا * لَ ثناياك البَشامُ
وأغار اليومَ إن مرَّ * على فيك اللثامُ

ومنهم من يغار من قميص حبيبه ، كما قال خالد الكاتب

محبكَ شفَّهُ ألَمُهْ * وخامَرَ جسمَهُ سَقَمُهْ
وباح بما يُجَمْجِمُهُ * من الأسرار مُكْتَتَمُهْ
أما ترثى لمكتئبٍ * يحبك لحمه ودمُهْ
يغار على قميصك حيـــن تلبسهُ ويتهمه

وكما قال بعض الأعراب

أرى القميص على ليلى فأحسدهُ * إن القميص على ماضمَّ محسود

ومنهم من يغار على اسم محبوبه ، فيكنى عنه ، لئلا تتمتع به الآذان ، كما قال البها زهير

وأُنزه اسمك أن تمرَّ حروفهُ * من غيرتي بمسامع الجُلّاسِ
فأقول بعض الناس عنك كنايةً * خوف الوُشاةِ وأنت كل الناسِ

وقد يغار المحب على حبيبه من نفسه ، كما قال أبو تمام

بنفسى من أغار عليه منى * وتحسد مقلتى نظرى اليه
ولو أنى قدَرت طمست عنهُ * عيون الناس من حذرى عليه
حبيبٌ بثَّ فى قلبى هواهُ * وأمسك مهجتى رهناً لديه
فروحى عندهُ والجسم خالٍ * بلا روحٍ وقلبى فى يدَيْه

الاستعطاف

نذكر هنا حيل العشاق فى لفت أنظار الأحباب اليهم ، وتوجيه أفكارهم نحوهم ، حتى ينالوا طلبتهم من القرب ، وبغيتهم من الوصل ، ولذلك حالات : فمن العشاق من يقبّح لحبيبه المطل والخلف ، حتى يبرّ بوعده ، ويفى بعهده . كقول ابن الأحنف :

كأنْ لم يكن بينى وبينكمُ هوًى * ولم يك موصولاً بحبلكمُ حبلى
وإنى لأستحيي لكم من محدّثٍ * يحدث عنكم بالملالة والمطلِ

وكقول الطغرائى :

وياجيرتى بالجزع جسمىَ بعدكم * نحيلٌ وطرفى بالسهاد كليل
عهدت بكم غصن الشبيبة مورقاً * نخان وخنتم والوفاء قليلُ
وأودعتكم قلبى فلما طلبته * مطلتم وشر الغارمين مَطول
فان عدتمُ يوماً تريدون مهجتى * تمنّعت إلا أن يقام كفيل

ومن المتيمين من يُحْرم كل شىء حتى الوعد فتراه لايطلب الوفاء ولايقبّح الإخلاف ، وانما يرجو وعداً يجلو به كربة قلبه ، ويطفئ به نار جواه ، لو تغنى الوعود !

وما أزال ألمح فى عالم الخيال مجنون بنى عامر ، وقد صادف فى توحشه حى ليلى ، ولقيها فجأة فعرفها وعرفته ، فصعق وخر مغشياً عليه ، وأقبل فتيان من حى ليلى فأخذوه ، ومسحوا التراب عن وجهه وأسندوه إلى صدورهم ، وسألوا ليلى أن تقف له وقفة ! فرقت لما رأته وقالت أما هذا فلا يجوز أن أفتضح به : ثم قالت لجاريتها : إذهبى إلى قيس فقولى له : ليلى تقرأ عليك السلام ، وتقول لك : أعزِزْ على بما أنت فيه ! ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسى ! فمضت الوليدة إليه وأَخبرته بقولها فأفاق وجلس ، وقال : أبلغيها السلام ، وقولى لها هيهات هيهات ! إن دائى ودوائى أنت ، وإن حياتى ووفاتى لفى يديك ، ولقد وكّلْتِ بى شقاءً لازماً وبلاءً طويلا ، ثم بكى ، وأنشأ يقول :

أقول لأصحابى هى الشمس ضوؤها * قريبٌ ولكن فى تناولها بُعدُ
لقد عارضتنا الريح منها بنفحة * على كبدى من طيب أرواحها بَرْدُ
فما زلت مغشيًّا علىَّ وقد مضت * أناةٌ وما عندى جواب ولا ردُّ
أُقلَّب بالأيدى وأهلى بودهم * يُفدُّوننى لو يستطيعون أن يَفْدُوا
ولم يبق الا الجلد والعظم عارياً * ولا عظم لى إن دام مابى ولا جلد
أدنيایَ مالى فى انقطاعى ورغبتى * اليك ثوابٌ منك دَيْنٌ ولا نقدُ
عِدينى بنفسى أنت وعداً فربما * جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد
غزتنى جنود الحب من كل جانب * اذا حان من جُند قفول أتى جند

والبيت الأخير أُعجوبة من أعاجيب الخيال ، فما زال المحبون

صرعى مساكين ، إن قفلت عنهم جنود الخدود ، غزتهم جنود العيون
ويرحم الله من تألبت عليه جنود الحب جميعاً حتى ذهبت بلبه ، ولم
يبق إلا أن تنكسر النصال على النصال !

وقد يستعطف المتيم المحزون ولكنه لا يطلب وعداً يطارد به
جيوش الأحزان ، ولا يرجو الوفاء بوعد كان يهتدى به فى ظلمات
الشجون ، وانما يُلمّح ، وقد يكون التلميح ، أبلغ من التصريح . فيذكر
أن الحسن يحدق به من كل جانب ، ولكنه لا يصبو ولا يميل
لأنه بمن يحب مشغول . وانظر قول الابيوردى فى هذا المعنى البديع :

وقتكِ الردى بيضٌ حسانٌ وجوهها * ومثريةٌ من نضرة وجمالِ
طلعن بدوراً فى دجًى من ذوائب * ومِسْنَ غصوناً فى متون رمالِ
أرى نظرات الصب يعثرن دونها * بأعراف جُرْدٍ أو رءوس عوالِ
عرضن عليَّ الوصل والقلب كله * لديكِ فأنّى يبتغين وصالى
ولولاكِ مابعت العراق وأهلهُ * بوادى الحمى والمنالىَّ بضالِ
فما لنساء الحيِّ يضمرن غيرةً * سبتْها العوالى مالهن ومالى
ولو خالفتنى فى متابعة الهوى * يمينىَ ما واصلتها بشمالى
وفيكِ صدودٌ من دلالٍ أظنهُ * على ما حكى الواشى صدود ملال

وقد يتمنى المحب أن يمرض ليعوده الحبيب . واليك قول ابن الخياط :

أحنُّ إلى سقمى لعلك عائدى * ومن كلف أنى أحنُّ إلى السقم
وحتامَ أستشفى من الداء مابهِ * سقامى وأسترْوى من الدمع مايظمى
فراقٌ أتى فى إثْرِ هجرٍ وما أذًى * بأوجعَ من كَلْمٍ أصاب على كَلْمِ

مسكين هذا المحب ، يتمنى المرض ليعاد ، فهل يعلم أن من المحبين من أشقاه المرض ، فلم يسعده العُوّاد . وهل أتاه حديث ابن الأحنف وقد لجّ به المرض فأخذ يهذى بهذا الشعر الباكى الحزين :

أهابكِ أن أشكو إليك وليس لى * يدٌ بالذى ألقى وأخفى من الوجدِ
وانى لصادى الجوف والماء حاضرٌ * أراه ولكن لا سبيل الى الورْدِ
وما كنت أخشى أن تكون منيتى * بكف أخص الناس كلهمُ عندى

وهل وصلت اليه تلك الوصية البديعة التى بعث بها ابن الأحنف الى حُجاج البيت الحرام وقد توقع أن يمروا بدار هواه ؟

انظر الى ذلك العليل ، وقد خفى الداء ، وتعذر الشفاء ، وكلما عُصر الماء فى فيه مجه ، كما يفعل الطفل الغرير ، وقد ذهبت العلة بجمال نظراته ، وسحر بَسماته ، وان نودى لم يجب بغير الأنين ، انظر اليه وقد تمنى جرعةً مُزِجَتْ بريق حبيبته يحملها اليه الحجاج فى زجاجة ! ولو أمكن أن تنقل اليه النظرة ، لرجاهم أن يحملوا اليه نظرة ، ولو خلق الفنوغراف فى ذلك الحين لرجاهم أن ينقلوا اليه نغمة من نغماتها العِذَاب ! ولو مهر المصورون اذ ذاك لكلفهم أن يصوروا مِشيتها الفتانة فى الضحى والاصيل ! انظر اليه وهو يرجوهم أن يتعللوا عند أهله فيذكروا أن تلك الجرعة العذبة انما هى من ماء زمزم ! ويحك ، وأين ماء زمزم الملح الأُجاج ، من ماء ذلك الثغر العذب الفُرات ؟ انظر اليه وقد أوصاهم أن يرشُّوا ريق من يهوى على وجهه ، فان صادفوه ميتاً فليرشوه على قبره ! انظر كيف يقول :

أزوَّارَ بيت الله مُرُّوا بيثربٍ * لحاجة متبول الفؤاد كئيب
وقولوا لهم ياأهل يثرب أسعدوا * على جلَب للحادثات جليبِ
فانا تركنا بالعراق أخا هوًى * تنشَّبَ رهناً فى حبال شَعُوبِ
به سَقَمٌ أعيا المداوين علمهُ * سوى ظنهم من مخطىءٍ ومصيب
اذا ما عصرنا الماء فى فيه مجَّهُ * وان نحن نادينا فغير مجيبِ
خذوا لى َمنها جرعةً فى زجاجةٍ * ألا إنها لو تعلمون طبيبى
وسيروا فان أدركتمُ بى حُشاشةً * لها فى نواحى الصدر وَجْس دبيب
فرشُّوا على وجهى أفق من بليتى * يثبكم ذو العرش خير مثيبِ
فان قال أهلى ما الذى جئتمُ بهِ * وقد يحسن التعليل كل أريبِ
فقولوا لهم جئناه من ماء زمزم * لنشفيَه من دائه بذَنوبِ
وان أنتمُ جئتم وقد حيل بينكم * وبينى بيومٍ للمنون عصيب
وصرت من الدنيا الى قعر حفرةٍ * حليفَ صفيحٍ مطبق وكثيب
فرشُّوا على قبرى من الماء واندبوا * قتيل كَعاب لا قتيل حروبِ

وكان ابن الأحنف هذا يستعطف فلا يرجو شيئاً، ولا يخاف شيئاً، وكل مناه أن يعلم فاتنوه انه يحبهم، وأن يسمعوا صوت ماجد، وإنه لمطلب زهيد، ولكنه قد يصبح صعب المنال، وانظر هذه الابيات التى يندر أن نجد مثلها فى تصوير المحب وقد خلاه من أذكوا نار جواه، وتركوه يتلوّى ويتململ، فوق جمر الهوى وجمر الصدود:

أبكى الذين أذاقونى مودتهم * حتى اذا أيقظونى للهوى رقدوا
واستنهضونى فلما قمت منتصباً * بثقل ما حملونى فى الهوى قعدوا

جاروا على ولم يوفوا بعهدهمُ * قدكنت أحسبهم يوفون إن وعدوا
لأخرجنَّ من الدنيا وحبكمُ * بين الجوانح لم يشعر به أحد
حسبي بأن تعلموا ان قد أحبكمُ * قلبي وأن تسمعوا صوت الذى أجد

*
* *

ومن حسن الاشارة قول ابراهيم بن المهدى .

يا غزالاً لى اليهِ * شافعٌ من مقلتيهِ
والذى أجللتُ خدّيْـــهِ فقبلّت يديهِ
بأبى وجهك ما أكـــثر حُسّادى عليهِ
أنا ضيفٌ وجزاء الضيـــف إحسانٌ إليهِ

والاحسان الذى يرجوه هذا الشاعر يذكرنا بقول بعض الاعراب :

آل ليلى إن ضيفكمُ * واجدٌ بالحى مُنْزَلا
أمكنوهُ من ثنيتها * لم يُردْ خمراً ولا عَسَلا

ومن جميل الاستعطاف قول ابن زيدون :

يا هـلالاً تتراءا * ه نفوسٌ لا عيونُ
عجباً للقلب يقسو * منك والعِطفُ يلينُ
ما الذى ضرك لو سُرَّ * بمرآكَ الحـزين
وتلطفت بصبٍّ * حَينهُ فيك يحينُ
فوجوه اللطف شتى * والمعاذير فُنونُ

وما أوجع الأسى فى قول ابن هانىء :

يا بنت ذى البُرْد الطويل نجادُهُ * أكذا يجور الحكم فى ناديكِ

عيناكِ أم مغناكِ موعدنا وفى * وادى الكرى ألقاكِ أم واديكِ

منعوكِ من سِنَة الكرى وسَروا فلو * عثروا بطيفٍ طارقٍ ظنُّوكِ

ودعَوْكِ نشوى ما سقوكِ مُدامةً * لما تمايل عِطفكِ اتَّهموكِ

حسبوا التكحُّل فى جفونك حِليةً * تالله ما بأكفهم كحلوكِ

وجلَوْكِ لى إذ نحن غُصنا بانةٍ * حتى إذا احتفل الهوى حجبوكِ

ويندر أن تجد بين الأدباء من لا يحفظ قول ابن الطثرية

عُقيليةٌ أمّا مَلاثُ إزارها * فدِعصٌ وأما خصرها فبتيلُ

تَقَيَّظُ أكنافَ الحمى ويُظلها * بنعمانَ من وادى الأراكِ مَقيلُ

أليس قليلاً نظرةٌ إن نظرتها * إليكِ، وكلاّ ليس منكِ قليلُ

فيا خُلّة النفس التى ليس دونها * لنا من أخلاء الصفاء خليلُ

ويامن كتمنا حبّه لم يُطِعْ به * عدوٌّ ولم يؤمن عليه دخيلُ

أما من مَقامٍ أشتكى غربة النوى * وخوف العدا فيه اليكِ سبيلُ

فؤادى أسيرٌ لا يُفَكُّ ومهجتى * تفيض وأحزانى عليك تطولُ

ولى مقلةٌ قَرْحَى لطول اشتياقها * اليك وأجفانى عليك هُمُولُ

فديتك أعدائى كثيرٌ وشُقّتى * بعيدٌ وأشياعى لديك قليلُ

وكنت اذا ما جئت جئت بعلة * فأفنيت عِلاّتى فكيف أقولُ

فما كلَّ يومٍ لى بأرضك حاجةٌ * ولا كلَّ يوم لى اليك رسولُ

صحائفُ عندى للعتاب طويتها * ستُنْشَرُ يوماً والعتاب طويلُ

فلا تحملى ذنبى وأنت ضعيفةٌ * فحمل دمى يوم الحساب ثقيل

ولنختم هذا الباب بقول صاحب البدائع :

أجبني إنْ تفضلْتَ * على المسكين بالردِّ
أأنسى الدهرَ ماجادتْ * به عيناكَ من وَعْدِ ؟
وأرْسِمُ للمنى حدًّا * وما لجوايَ من حدِّ ؟
وأقنع بالرَّدى وِرْدًا * وغيرى سائغ الوِرْدِ ؟
وأرضى باللظى مثوًى * ووجهك جنَّةُ الخُلْدِ ؟

وفيًا حافظًا أشقى * ليسعدَ ناقض العهدِ
وصبًا والهًا أفنى * ليبقى جاحد الوُدِّ
فياويلاهُ من حبٍّ * حملتُ بلاءهُ وحدى !
أُعِدُّ لحمله جُهْدِى * فيصعقُ بطشه جُهدى

الحنين

هل أتاك حديث الصِّمة بن عبد الله وقد خطب إبنة عمه ، وكان لها محبًا ، فاشتط عليه عمه فى المهر ، فاستعان بأبيه وكان مثريا فلم يعنه ، فأمّ عشيرته فأسعفوه ، ثم ساق الابل إلى عمه ، فقال لا أقبل هذه فى مهر ابنتى ، فسل أباك أن يُبَدِّلها لك . فسأل أباه ذلك فأبى عليه ، فلما رأى ضنّ أبيه وإباء عمه قطع عقلها وخلاها فعاد كل بعير إلى أهله . . . ويروى أن أباه أعطاه تسعة وتسعين بعيراً فأبى عمه إلا مائة وحلف أبوه لا يكملها . فقال الصمة : والله ما رأيت الأم منكما ، وانى لألأم

منكما جميعاً أن أقمت بينكما . ثم رحل الى الشام . فقالت ابنة عمه : تالله ما رأيت كاليوم رجلا باعته عشيرته ببعير ! !

تأمل أيها القارئ هذه القصة الوجيزة ، وأكملها بما لديك من وثبات الخيال ، ولا تطالبني بأكثر من هذا الايجاز ، فانما اتخذه مقدمة لدرس قصيدة الصمة فى الحنين ... ألم تر إليه وقد طالت غربته ، فعبث الشوق بقلبه ، واعتادته ذكرى أحبابه وأوطانه . فقال يعاتب نفسه ، ويحاور فؤاده :

أمن ذكر دارٍ بالرقاشين أصبحت * بها عاصفات الصيف بدءًا ورُجّعا
حننت إلى ريًّا ونفسك باعدت * مزارك من ريا وشَعبا كما معا
فما حسنٌ أن تأتى الأمر طائعاً * وتجزع إن داعى الصبابة أسمعا

ثم أخذ يخاطب رفيقيه — وقد بالغا فى لومه وأطالا فى تأنيبه — فقال :

ألا ياخليلىّ اللّذين تواصيا * بلومىَ إلا أن أطيعَ وأتبعا
قِفا إنه لابد من رَجْعِ نظرةٍ * يمانيةٍ شتّى بها القوم أو معا
لمغتصَبٍ قد عزَّهُ القوم أمرَهُ * حياءً يكفّ الدمع أن يتطلّعا

ثم شرع فى تعجيزهم وتيئيسهم فقال :

فان كنتم تُرجون أن يذهب الهوى * يقيناً ونروى بالشراب فننقعا
فردّوا هبوب الريح أو غيّروا الجوى * اذا حلّ ألواذ الحشا فتمنّعا

ومن يستطيع ذلك ؟ تالله ما العاذل وان اشتط فى عذله ، وبالغ فى لومه ، بقادر على نسيانك ، أو سلوانك :

ظنّ الهوى لِبسةً تبلى فيخلعها * فكان فى القلب مثل القلب فى البدنِ

ثم عاد الى رفيقيه يسألهما الإسعاد والإنجاد

قفاودعا نجداً ومن حلّ بالحمى * وقلّ لنجدٍ عندنا أن يُوَدَّعا

مسكين ! وقل لنجد أن يودَّع ! إذن فما كنت صانعاً لو أنصفته ؟ أ كنت تُغرب فى البكاء والإعوال حتى يرحمك أعداؤك ، ويرثى لك حاسدوك ؟ أم كنت تقتل نفسك جوًى وحزنا ؟ ثم قال :

بنفسى َتلك الأرض ما أطيب الرُّبى * وما أجمل المُصطافَ والمتربَّعا
وليست عشيّات الحمى برواجعٍ * اليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

اتق الله فى نفسك يا ابن عبد الله وارحم شبابك وصبرك

واستبق دمعك لا يودى البكاء بهِ * واكْفُف مدامع من عينيك تستبقُ
فما الشئون وان جادت بباقيةٍ * ولا الجفون على هذا ولا الحدَق

ثم أخذ يصف موقفه وقد حال (البِشْر) بينه وبين أحبابه ، وأوطانه . فقال :

ولما رأيت (البشر) أعرض دوننا * وحالت بنات الشوق يحننّ نُزّعا
بكت عينيَ اليسرى فلما زجرتها * عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذا الخيال ، وهو عندى من دلائل الولَه ، وعلائم الصبابة المضلة . ثم قال فى وصف مالاقى فى تلفته من العَنَت :

تلفتُّ نحو الحيّ حتى وجدتنى * وَجِعْت من الإصغاء لِيتاً وأخدعا

وهو معنى جميل نال فى هذا البيت حظه من البيان . وقد تبعه

الشريف الرضى فأبدع وأجاد فى قوله :

ولقد مررت على ديارهمُ * وربوعها بيد البلى نَهْبُ

فوقفت حتى ضجّ من لغَبٍ * نضوى ولجّ بعذلى الركب

وتلفتتْ عينى فمذ خفيَتْ * عنى الربوع تلفّت القلب

ويمتاز بيت الصمّة بتمثيله ما يعرف الناس فى مثل هذه المواقف من ظاهر التعب . فأما بيت الشريف فلا يعرف حسنه غير من كابد الشوق وعانى الصبابة . ثم قال الصمة فى تتمة الحديث عن جواه :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى * على كبدى من خشيةٍ أن تَصدّعا

ولم أر هذا المعنى لأحد قبل الصمة . وقد أكمله ابن نباتة السعدى بقوله :

أضمّ على قلبى يدىَّ مخافةً * إذا لاح لى برقٌ من الشرق لامعُ

وهل ينفع القلبَ الذى بان إلفُه * اذا طار شوقا أن تضم الأضالع

ومن الحنين قول ابن عبد ربه :

ودّعتنى بزفرة واعتناقٍ * ثم نادت متى يكون التلاقى

وبدت لى فاشرق الصبح منها * بين تلك الجيوب والاطواق

ياسقيم الجفون من غير سقم * بين عينيك مصرع العشاق

ان يوم الفراق أفظع يوم * ليتنى مت قبل يوم الفراق

لأن الشاعر قد يرتحل فيأخذ فى ذكر المعاهد والعهود ، وقد يظعن حبيبه ويقيم ، فيأخذ فى الإعوال عليه ، والحنين اليه ، وهناك من غرائب الهوى وعجائب الصبابة حالة ثالثة ليست أقل من سابقتيها جوًى

وحزناً ، بل ربما كانت أكثر حيرة : وهى أن يلتقى الركبان وفيهما محب ومحبوب ، ثم يفترقان قبل أن يتلاقى الصبان ، ويجتمع الخلاّن ، فلا يدرى العاشق أىّ عهد يبكى ، وأى حظ يندب ، كما لا يعرف أيلوم نفسه لأنه ظعن وترك حبيبه مقيما ، أم يشكو دهره لان حبيبه سار وخلّفه ، أم يُعول إعوالاً مُبهماً لا يعرف مصدره ، ولا يفهم مبعثه ، والشعر فى هذا المعنى أقرب الى الذكرى منه الى الحنين ، ومن الجيد فيه قول الأرجانى :

أستودع الله قوما كيف أبعدنا * تقلّب الدهر منهم حين أدنانا
زمُّوا الغداةَ مطاياهم لفرقتنا * لما أنخنا للُقياهم مطايانا
لم تشتبكْ بعدُ أطناب الخيام لنا * ولا المنازل ضمتهم وإيانا
لكنهم عاجلونا بالنوى ومضوا * وخلفوا الطَّرِب المشتاق حيرانا
لم يملأ العين من أحبابه نظراً * إذ غادر الدمع منه الجفن ملآنا

وإنى موافيك ببديع الشعر وشجيه ، فيما يمثل حال المحب نأى عنه حبيبه ، أو خلف أحبابه وسار ، فمن الأول قول سبط بن التعاويذى :

أتعود أيامى برامةَ بعد ما * سكنت بجرعاء الحمى آرامُها
وأحلّها البين المشتُّ محِلةً * بَعُدت مراميها وعزَّ مرامُها
سارقتها نظر الوداع فما ارتوت * نفسٌ يزيد على الورود هُيامها
ياغادرين وغادروا بجوانحى * لبعادهم ناراً يُشَب ضِرامها
بنتم فلا عينى تجفّ غروبُها * أسفاً ولا كبدى يُبَلُّ أُوامها
جودوا لعين المستهام بهجعةٍ * فعسى تمثلكم لها أحلامها

لا تتلفوا بالبين مهجة عاشق * سيّان بينٌ حميمها وحمامُها
أعداه من هيف الخصور نحولها * يومَ النوى ومن العيون سقامُها

ولم أجد فى هذا المعنى أشجى وأوجع من قول بعض المتيمين :

لبكاء هذا اليوم صنت مدامعى * وكذا العزيز لكل خطب يُذْخَرُ
ياساكنى وادى العقيق فدتكمُ * عينٌ مدامعها عقيق أحمر
بنتم فما استعذبت بعد حديثكم * لفظاً ولم يَحْسُن لعينىَ منظَرُ

والبيت الأخير مأخوذ من قول ابن أبى ربيعة :

لم يحبب القلب شيئاً مثل حبكمُ * ولم تر العين شيئاً بعدكم حسنَا

فأما شعر من نأوا عن أحبابهم، وخلّوا معاهد أنسهم، فهو كثير، ومن جيده قول الأبيوردى يتشوق الى أحبابه وقد خلاّهم ببغداد :

ألا ليت شعرى هل أرانى بغيضةٍ * أبيت على أرجائها وأقيلُ
هواءٌ كأيام الهوى لا يغبهُ * نسيمٌ كلحظ الغانيات عليلُ
وعصرٌ رقيقُ الطرّتين تدرَّجت * على صفحتيهِ نَضْرَةٌ وقَبُولُ
وأرضٌ حصاها لؤلؤ وترابها * تضوَّع مِسْكاً والمياه شمولُ
بها العيش غضٌّ والحياة شهيةٌ * وليلى قصير والهجير أصيلُ
فقل لأخلائى ببغداد هل بكم * سلوٌّ فعندى رنةٌ وعويلُ
ترنحنى ذكراكمُ فكأنما * تميل بىَ الصهباء حيث أميلُ
لئن قصرت أيام أنسى بقربكم * فليلى على نأى المزار طويل

وقال اعرابى من بنى عقيل :

أحنُّ الى أرض الحجاز وحاجتى * خيامٌ بنجد دونها الطرف يقصر

وما نظرى نحو الحجاز بنافعى * بشىء ولكنى على ذاكَ أنظر
أفى كل يوم نظرةٌ ثم عبرةٌ * لعينيك يجرى ماؤها يتحدَّرُ
متى يستريح القلب إمَّا مجاورٌ * حزينٌ وإمّا نازحٌ يتذكّرُ

وقال آخر فى الحنين إلى أيامه السوالف :

سقى الله أياماً لنا قد تتابعتْ * وسقْياً لعصر العامرية من عَصْرِ
ليالىَ أعطيْتُ البَطالةَ مِقْودى * تمرُّ الليالى والشهور ولا أُدرى

ومن شائق الحنين قول ابن الدمينة

ألا لا أرى وادى المياه يثيبُ * ولا النفس عن وادى المياه تطيبُ
أُحب هبوط الواديين واننى * لمشتهرٌ بالواديين غريبُ
أحقًّا عبادَ الله أن لست وارداً * ولا صادراً إلاّ علىَّ رقيب
ولا زائراً فرداً ولا فى جماعةٍ * من الناس إلا قيل أنت مُرِيب
وهل ريبةٌ فى أن تحنَّ نجيبةٌ * إلى إلفها أو أن يحنَّ نجيبُ
وإن الكثيب الفرد من جانب الحمى * الىَّ وإن لم آته لحبيب
لكِ الله انى واصلٌ ماوصلتِنى * ومُثْنٍ بما أوليتنى ومثيب
وآخذ ماأعطيتِ عفواً وإننى * لأَزْوَرُ عمّا تكرهين هيوبُ
فلا تتركى نفسى شعَاعاً فانها * من الوجد قد كادت عليكِ تذوب
وإنى لأستحييك حتى كأنما * علىَّ بظهر الغيب منك رقيبُ

وفى هذا المعنى يقول صاحب البدائع

تجمّلْ بالسماح ودع ملامى * وكنْ عَوْنَ المحبِّ المستهامِ
ففى أسيوطَ لو تدرى حبيبٌ * هجرت لبعده طيبَ المنام

أسيت لهُ يحنُّ الى لقائى * ودون مرامهِ كيد اللئامِ
إذا ما الليـل جنَّ ونام صحْبى * مشَت نار التذكُّر فى عِظامى
سلامٌ أيهـا النائى سلامٌ * وهل يغنى عن اللُّقيا سلامى

الرفق بالحبيب المريض

وهذا باب تتجلّى فيه رِقّة القلوب ، فمن ذلك قول خالد الكاتب

بجسمى لا بجسمك يا عليلُ * ويكفينى من الألم القليـلُ
تعدّاك السّقام الىَّ إنى * على ما بى لشدّتهِ حَمُولُ
إذا ما كنت يا أملى صحيحاً * فخالفنى وسالَمك النُّحولُ

وهذه أبيات ضعيفة ، لا تتناسب مع شاعريّة من يقول :

وحسبُك حسرةً لك من حبيبٍ * رأيت زمامَهُ بيدىْ عَدُوِّ

وقد يتمنى المحب لو أعفى المرض محبوبه ، ورتَع كيف شاء فى الأجسام الدميمة ، كما قال سُحَيْم

ماذا يريد السّقام من قمرٍ * كلُّ جمالٍ لوجههِ تبَعُ
ما يرتجى ، خاب ، من محاسنها * أما لهُ فى القباحِ مُتّسَعُ
لو كان يبغى الفداء قلت لهُ * ها أنا دون الحبيب يا وَجَعُ

وما أرقَّ ما يقول ابن الأحنف

ان التى هامت بها النفسُ * عاودَها من سقْمها نُـكس
كانت اذا ما جاءها المبتلَى * أبرأهُ من راحها اللمسُ
وا بأبى الوجه المليح الذى * قد عشقته الجنُّ والإنسُ

إن تكن الحُمّى أضرّت بهِ * فربما تنكسف الشمسُ

وانظر جمال الرفق فى قوله :

أما والله لو تجدين وجدى * لقلقل ما وجدت إذاً حشاكِ
وقاكِ الله كل أذًى بنفسى * وعجّل يا ظلومُ لنا شفاكِ

وأنشد أبو الحسن بن البراء :

فديتك ليلى مذ مرضتَ طويلُ * ودمعى لما لاقيت فيك هَمولُ
أأشرب كأساً أم أُسَرُّ بلذةٍ * ويعجبنى ظبيٌ أغنُّ كحيلُ
وتضحك سِنّى أو تجف مدامعى * وأصبو إلى لهوٍ وأنت عليلُ
ثكلتُ إذاً نفسى وقامت قيامتى * وغالت حياتى عند ذلك غُولُ

وقال يوسف بن ابراهيم الغرناطى يخاطب الوزير ابن الحكم وقد أصابته حمى تركت على شفته بثورا

حاشاكَ أن تمرض حاشاكا * قد اشتكى قلبى لشكواكا
إن كنت محموماً ضعيف القوى * فاننى أحسد حُمّاكا
ما رضيتْ حُمّاك إذ باشرتْ * جسمك حتى قبّلت فاكا

وهذا الشعر وان كان خطاباً لوزير إلا أن فيه سِمات التشبيب !

الذبول والنحول

وقد يأسى الشعراء لما عانوا فى الحب من الضمور والشُّحوب ، فيرى بعضهم أنه لم يبق له لحم ولا دم ؛ كما قال المؤمل :

حَلمْتُ بكم فى نومتى فغضبتمُ * ولاذنب لى ان كنت فى النوم أحلمُ
سأطرد عنى النوم كيلا أراكمُ * اذا ما أتانى النوم والناس نوَّمُ
تُصارمنى والله يعلم أننى * أبرُّ بها من والديها وأرحمُ
وقد زعموا لى أنها نذرت دمى * ومالى بحمد الله لحمٌ ولا دم
برى حبها لحمى ولم يُبقِ لى دماً * وان زعموا أنى صحيحٌ مسلَّمُ
فلم أر مثل الحبّ صحّ سقيمهُ * ولامثل من لم يعرف الحبَّ يسقمُ
ستقتل جلداً بالياً فوق أعظمٍ * وليس يبالى القتل جلدٌ وأعظمُ

ومنهم من يبلى جسمه ، ولا يبلى شوقه ، كما قال أبو تمام :

ياجفوناً سواهراً أعدمتْها * لذةَ النوم والرُّقاد جُفونُ
بَلِى الجسمُ لكن الشوق حيٌّ * ليس يبلى وليس تبلى الشجونُ
ان لله فى العباد منايا * سلّطتها على القلوب العيونُ

ويقرب من هذا المعنى قول السَّرىّ الرّفاء

فِداؤك من أوردته منهل الردى * وورْدُ الردى للعاشقين يَطيبُ
وماماتَ حتى أنحلَ الحبُّ جسمَهُ * فلم يبق فيه للتراب نصيبُ

والأرّجانى يذكر أن طيفه لو زار حبيبه لحمل شخصه اليه لنحوله ، ويقول :

يُرَوِّى ضاحىَ الوجنات دمعى * ويعدل عن لهيب جوًى دخيلِ
وما نفعى وإن هطلت غيوثٌ * إذا أخطأن أمكنة المحُولِ
هُمُ نقضوا عهودى يومَ بانوا * وأبْدَوْا صفحة الطرف الملولِ
وفوا بالهجر لما أوعدونى * وكم وعدوا الوصال ولم يفوا لى

وفى الركب الهلاليين رِخشفٌ * تعرّض يوم تشييع الحُمول
أصاب بطرفه الفتّان قلبي * وكيف يصاب ماضٍ من كليل
بخلتَ وقدحظيتَ بصفو ودّي * وان من العنـاء هوى البخيل
وبتَّ لو اُستزرت اليوم طيفى * لجرَّ اليك شخصى من نُحولى
ولـكن لاسبيل الى شفاء * اذا مال الطبيب على العليل

ومنهم من يذكر أنه ضَنيَ حتى لو تعلّق بعود ثُمامٍ ما تأوّد ، كما قال الحسين بن مَطير الأسدى :

خليليّ هل ليلى مُؤدِّيةٌ دمى * اذا قتلتنى أوأميرٌ يقُيدها
وكيف تقاد النفس بالنفس لم تقلْ * قتلت ولم يشهد عليها شهودها
ولن يلبث الواشون أن يصدعوا العصا * إذا لم يكن صُلباً على البَرْيِ عودها
نظرت اليها نظرةً ما يسرنى * بها حُمْرُ أنعام البلاد وسودها
ولى نظرةٌ بعد الصدود من الجوى * كنظرة ثكلى قد أصيب وحيدها
فحتّا متى هذا الصدود الى متى * لقد شفّ نفسى هجرها وصدودها
فلو أن ما أبقيتِ منى معلّقٌ * بعود ثُمامٍ ما تأوّد عودها

وقال الحارثي فى وصف آصار النحول :

سلبتِ عظامى لحمها فتركتها * مجرّدةً تضحى لديك وتخصَرُ
وأخليتِها من مُخها فكأنها * أنابيب فى أجوافها الريحُ تصفرُ
اذا سمعت باُسم الفراق تقعقعت * مفاصلها من هول ما تتنظّرُ
خذى بيدى ثم ارفعى الثوب تنظرى * بيَ الضرَّ إلا أننى أتسترُ
فما حيلتى إن لم تكن لكِ رحمةٌ * علىَّ ولا لى عنك صبرٌ فأصبر

ويقول ابن الأحنف :

انظر الى جسدٍ أضرَّ به الهوى * لولا تقلُّب طرفه دفنوهُ

وتابعه المتنبي فقال:

كفى بجسمى نحولاً أننى رجلٌ * لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وفى مثل هذا المعنى يقول صاحب البدائع وقد أرسل صورته الى بعض أحبابه :

سكنتَ الى النوى ونسيتَ صبًّا * نحيلا كاد يقتلهُ الحنينُ

فلمّا لم يجد فى الحب صبراً * ولم ترحم جوانحه الشُّجونُ

تفانى فى النحول فلو تبدّى * لمـا فطِنت لَخطْرَته العيونُ

وها هو كالخيال أتاك يسرى * مخافةَ أن تُظنَّ به الظنونُ

فأكرمْ نزْلهُ وارحم ضناهُ * فان فؤادك الحرم الأمينُ

وقال بعض الشعراء :

إن الذى أبقيت من جسمهِ * يا متلفَ الصبِّ ولم يشعرِ

صُبابةٌ لو أنها دمعةٌ * تجول فى عينيك لم تقطرِ (١)

أمانى المحبين

وللمحبين أمانٍ كثيرة ، لو تنفع الأمانى ، فمنهم من يتمنى الكأس من يد جميل ، بين ندمانٍ يُعاطونه أطايب الحديث ، كما قال العطوى

وكم قالوا تَمَنَّ فقلتَ كأسٌ * يطوف بها قضيبٌ من كثيبِ

(١) الصبابة بالضم هى البقية الطفيفة من الشىء .

ونُدمانٍ تساقطني حديثاً * كلحظ الحِبِّ أو غضّ الرقيبِ

وإنها لأمنيةٌ عزيزة المنال!

ومنهم من يسامر الأماني حتى ليحسب محبوبه بين يديه، كما قال ابن الزيات:

يا دانيَ الدار في الأماني * ونازح الدار في العِيانِ

ذكرك دانٍ وأنت ناءٍ * فأنت ناءٍ وأنت دانِ

نفسك موصولةٌ بنفسي * وأنت كالنجم من مكاني

لي فِكَرٌ فيك معجباتٌ * في اللفظ صِفرٌ من المعاني

تجري ضروبٌ من التمني * في كل يوم على لساني

أقول حتى كأنّ عيني * تراك من حيث لا تراني

ويتمنى ابن الأحنف لو ينام ليرى طيف محبوبته، ويقول:

مجلسٌ يُنسب السرور إليه * بمحبٍّ ريحانُهُ ذِكراكِ

كلما دارت الزجاجة زادتـ * ـهُ اشتياقاً وحُرْقةً فبكاكِ

لم يَنَلْكِ الرجاء أن تحضريني * وتجافت أُمنيّتي عن سواكِ

فتمنيت أن يُغشِّيَنيَ اللـ * ـهُ نُعاساً لعلّ عيني تراكِ

وربما تمنّى المحب لو أُعير سَلوةً من قلب حبيبه، كما قال البحتري

وَدِدْتُ وهل نفس امرىءٍ بملومةٍ * اذا هيَ لم تعطَ الهوى من ودادها

لو انّ سُليمى أسجحت أو لوانّهُ * أُعير فؤادي سلوةً من فؤادها

وما أظرف النشوة التي تمناها البحتري حين قال:

هل لي سبيلٌ الى الظهران من حلب * ونشوةٍ بين ذاك الورد والآسِ

أمدُّ كفي لآخذ الكأسَ من رشأٍ * وحاجتي كلها في حامل الكاسِ
بقرب أنفاسه أشفي الغليل اذا * دنا فقرّبها من حرّ أنفاسي

ومن غريب التمني ما جاء في رائية أبي صخر الهُذلي ، فقد تمنى أن يجتمع بحبيبته فوق أمواج البحر، ومن دونها اللجج الخضر والأهوال، واليك أروع هذه القصيدة البديعة

لليلى بذات الجيش دارٌ عرفتها * وأخرى بذات البين آياتها سطرُ
كأنهما مِلآنَ لم يتغيّرا * وقد مرّ للدارين من بعدنا عصرُ
وقفت برسميها فعيَّ جوابُها * فقلت وعيني دمعها سَرِبٌ همْرُ
ألا أيها الركب المخبُّون هل لكم * بساكن أجزاع الحمى بعدنا خُبْرُ
فقالوا طوينا ذاك ليلاً فان يكن * به بعض من تهوى فما شعَرَ السفْرُ

* * *

أما والذي أبكى وأضحك والذي * أمات وأحيا والذي أمرهُ الأمرُ
لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها * بتاتاً لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلا أنْ أراها فُجاءةً * فأبهتَ لا عُرفٌ لديّ ولا نُكرُ
وأنسى الذي قد كنت فيه هجرتها * كما قد تنسّى لُبَّ شاربها الخمرُ
وما تركت لي من شذاً أهتدي به * ولا ضِلَعٍ إلا وفي عظمها وَقْرُ
وقد تركتني أحسد الوحش أن أرى * أليفين منها لا يروعهما الذُّعْرُ
ويمنعني من بعض إنكار ظلمها * اذا ظلمت يوماً وان كان لي عذرُ
مخافةُ اني قد علمت لئن بدا * ليَ الهجر منها ما على هجرها صبرُ
وأنيَ لا أدري اذا النفس أشرفت * على هجرها ما يبلغنَّ بيَ الهجرُ

تكاد يدى تندى اذا ما لمستها * وينبت فى أطرافها الورق النضرُ
وانى لتعرونى لذكراك هزةٌ * كما انتفض العصفور بلله القطرُ
تمنيت من حبى عُلية أننا * على رمث فى البحر ليس لنا وفرُ
على دائم لا يعبر الفلك موجهُ * ومن دوننا الأهوال واللجج الخضرُ
فنقضى همّ النفس فى غير رقبةٍ * ويغرق من نخشى نميمته البحرُ
عجبت لسعى الدهر بينى وبينها * فلما انقضى ما بيننا سكن الدهرُ
فيا حبها زدنى جوى كلّ ليلةٍ * ويا سلوة الأيام موعدك الحشرُ
هجرتك حتى قلت لا يعرف القِلى * وزرتك حتى قلت ليس له صبرُ
صدقت أنا الصب المصاب الذي به * تباريح حبّ خامر القلب أو سحرُ
فيا حبذا الأحياء ما دمت فيهمُ * ويا حبذا الأموات ما ضمك القبر

وإليك شتى الأمانى فى قول جميل :

جزتك الجوازى يا بثين ملامةً * اذا ما خليلٌ بان وهو حميدُ
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة * بوادى القرى ؟ إني اذاً لسعيدُ
فقد تلتقى الأهواء من بعد يأسةٍ * وقد تُطلب الحاجاتُ وهى بعيد
ويحسب نِسوانٌ من الجهل أننى * اذا جئت إياهن كنت أريدُ
فأقسم طرفى بينهنّ سويةً * وفى الصدر بَونٌ بينهنّ بعيدُ
فليت وشاة الناس بينى وبينها * يدوف لهم سما طماطمُ سودُ
وليتهمُ فى كلّ مُمسًى وشارق * تُضاعف أكبالٌ لهم وقيودُ
إذا جئتها يوما من الدهر زائراً * تعرّض منقوض اليدين صَدُودُ
يصدّ ويغضى عن هواى ويجتنى * ذنوباً علينا إنهُ لعنود

فأصرمها خوفاً كأنى مُجانبٌ * ويغفل عنا مرةً فنعودُ

يقولون جاهد يا جميل بغزوةٍ * وأى جهاد غيرهن أريد

لكلِّ حديثٍ بينهن بشاشةٌ * وكل قتيلٍ بينهنَّ شهيدُ

وغاية الغايات فى هذا الباب قول أبى بكر بن عبد الرحمن الزهرى :

ولما نزلنا منزلا طلّهُ الندى * أنيقاً وبستاناً من النَّوْرِ حاليا

أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنُهُ * مُنًى فتمنينا فكنتِ الأمانيا

الهيبة والخضوع

والشعراء يهابون الحسن، ويضلون سبيل الرشد حين يراجعون أرباب الجمال . وانظر قول أبى فراس :

أراميتى كل السهام مُصيبةٌ * وأنتِ لىَ الرامى فكلى مقَاتلُ

وإنى لِمقدامٌ وعندكِ هائبٌ * وفى الحىِّ سحبانٌ وعندكِ باقل

يضل علىَّ القول ان زرت دارها * ويعزب عنى وجه ما أنا فاعلُ

وحجتها العُليا على كل حالةٍ * فباطلها حقٌّ وحقىَ باطلُ

وما أرق قوله فى عكس هذا المعنى :

ومُغْضٍ للمهابة عن جوابى * وإنَّ لسانه العضْبُ الصقيلُ

أطلت عتابهُ عَنتاً وظلماً * فدَمَّعَ ثم قالَ : كما تقولُ !

ومن جيد الشعر فى هيبة الحسن، قول الحسن بن وهب :

أقول وقد حاولت تقبيل كفها * وبى رِعدةٌ أهتزُّ منها وأسكنُ

ليَهْنِك أنى أشجع الناس كلهم * لدى الحرب إلا أننى عنك أجبنُ

وقول بعض الأعراب :

أهابك إجلالاً ومابك قدرةٌ * عليَّ ولكن ملء عينٍ حبيبها
وماهجرتك النفس أنك عندها * قليلٌ ولكن قلَّ منك نصيبها

وفى الخضوع للحبيب يقول الشريف :

كم ذميلٍ اليكمُ ووجيفٍ * وصدودٍ عنا لكم وصُدوفِ (١)
وغرامٍ بكم لو أن غراماً * جرَّ نفعاً للواجد المشغوفِ
صبوةٌ ثم عفةٌ ما أضر الحـ * ـبَّ فى كل خلوةٍ بالعفيفِ
هجرونا ولم يلاموا وواصلـ * ـنا على مؤلمٍ من التعنيفِ
وطلبنا الوفاء حتى إذا عزَّ * رضينا بالمَطْل والتسويفِ
كيف يرجو الكثير من راضه الشو * ق الى أن رضى ببذل الطفيفِ

وانظر قول ابن الرومى :

أضعتنى فرعيتُ * وخنتنى فوفيتُ
أطعتِ فىَّ الأعادى * وكلهم قد عصيتُ
فكيف أصبحت غضبى * لما رضاكِ أتيت

الرضى بالقليل

وقد يقنع المحب وهو راغم ، فيرضى بالوعد ، ويفرح بالأمانى ، وهى كواذب ، لأن الوصل عزيز المنال ، فمن ذلك قول العباس بن الأحنف :

(١) الذميل والوجيف من ضروب السير

كفى حزناً أنى وفوزاً ببلدةٍ * مقيمان فى غير اجتماعٍ من الشمل
أما والذى ناجى من الطور عبده * وأنزل فرقاناً وأوحى الى النحل
لقد ولدت حواء منك بلية * علىّ أقاسيها وخبلاً من الخبل
أرى الناس لا يرضى ذوو العشق منهم * بشىء سوى حسن المواتاة والبذل
وانى ليرضينى الذى ليس بالرضى * وتقنع نفسى بالمواعيد والمطل

وفى هذا المعنى يقول الشريف :

لك الله هل بعد الصدود تعطف * وهل بعد ريعان البعاد تدان
وما غرضى أنى أسومك خطة * كفانى قليل من رضاك كفانى

وقال بعض الظرفاء :

أنا راضٍ منكم بأيسر شىء * يرتضيه من عاشقٍ معشوق
بسلام على الطريق اذا ما * جمعتنا بالاتفاق الطريق

وقال توبة الحميرى فى ليلى الأخيلية :

وهل تبكين ليلى اذا مت قبلها * وقام على قبرى النساء النوائح
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها * وجاد لها دمع من العين سافح
وأغبط من ليلى بما لا أناله * بلى كل ما قرت به العين صالح

وقد كثر القليل فى قول ابن الطثرية :

أليس قليلا نظرة إن نظرتها * اليك؛ وكلا ليس منك قليل

وجاراه فى هذا المعنى من قال :

إن ماقل منك يكثر عندى * وكثير ممن تحب القليل

وأبرع الشعر فى هذا المعنى قول جميل :

وانى لأرضى من بثينة بالذى * لوابصره الواشى لقرت بلابله
بلا، وبأن لاأستطيع . وبالمنى، * وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضى * أواخره لا نلتقى وأوائله

وفى مقابل هذا يقول ابن الفارض :

واذا اكتفى غيرى بطيف خياله * فأنا الذى بوصاله لا أكتفى

وأبدع منه قول ابن الرومى :

أعانقه والنفس بعد مشوقة * اليه وهل بعد العناق تدانِ
وألثم فاه كى تزول حرارتى * فيشتد ما ألقى من الهيمانِ
ولم يك مقدار الذى بى من الجوى * ليرويه ما تلثم الشفتان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله * سوى أن يرى الروحين يمتزجان

شفاء المحب

وقد يمرض المحب ، فيفتن الناس فى وصف دوائه ، على أنه لا يبرأ الا بقرب من يحب . وانظر قول عروة بن حزام وقد رأى عفراء :

وما هى إلاّ أن أراها فجاءةً * فأبهت حتى ما أكاد أجيبُ
وأصدف عن رأيى الذى كنت أرتئى * وأنسى الذى أزمعت حين تغيبُ
ويُظهر قلبى عذرها ويعينها * علىَّ فمالى فى الفؤاد نصيب
وقد علمت نفسى مكانَ شفائها * قريباً وهل ما لا يُنالُ قريبُ
فوا كبداً أمست رُفاتاً كأنما * يُلَذِّعُها بالموقَدات طبيب
عشيّةَ لا عفراء منك بعيدةٌ * فتسلو ولا عفراء منك قريبُ

لئن كان برد الماء حرّان صادياً * الىّ حبيباً إنهـا لحبيب

وفى هذا المعنى يقول بعض الأعراب :

أيا زينة الدنيا التى لا ينالها * مُناىَ ولا يبدو لقلبى صريمُها

بعينى قذاةٌ من هواكِ لو انُها * تُداوى بمن أهوى لصحّ سقيمُها

وبُرْءُ قذاة العين ان لم يكن لها * طبيبٌ يداوى نظرةٌ تستديمُها

فما صبرت عن ذكرك النفس ساعةً * وان كنت أحياناً كثيراً ألومُها

ومن بديع الشعر فى هذا الباب قول أبى العتاهية :

قل لمن لست أُسمِّى * بأبى أنت وأُمّى

بأبى أنت لقد أصبحـ ـت من أكبر همى

ولقـد قلت لأهلى * إذ أذاب الحبُّ لحمى

وأرادوا لى طبيباً * فاكتفوا منى بعلمى

من يكن يجهل ما ألـ ـقى فان الحب سقمى

انَّ روحى لبغـدا * دَ وفى الكوفة جسمى

القلب الخافق

نذكر هنا ألواناً من تصوُّر الشعراء لخفوق القلب ، فمنهـم من يشبهه بتنزِّى الكُرة ، كما قال بشار :

يُروِّعهُ السِّرار بكل شىءٍ * مخافة أن يكون بهِ السِّرارُ

كأنَّ فؤادهُ كُرَةٌ تنزّى * حِذارَ البين لو نفع الحِذارُ

ومنهم من يشبهه بالوِشاح القلِق ، فوق الخصر الدقيق ، كقول مسلم بن الوليد :

أزكى من المسك أنفاساً وبهجتها * أرقُّ ديباجةً من رقّة النَّفَسِ
كأن قلبي وِشاحاها اذا خطرت * وقَلْبهاقُلْبهافى الصمت والخرسِ [1]
تجرى محبتها فى قلب عاشقها * جرى السلامةفى أعضاء منتكسِ

وابن الأحنف يشبه القلب الخافق بيد القينة الهوجاء تضرب بالدف ، ويقول

يُبين لسانى عن فؤادى وربما * أسرّ لسانى مايبوح به طرفى
أعيذك أن تشق بقتلى فاننى * أخاف عليك الله أن سمتنى حتفى
اذا القلب أوما أن يطير صبابةً * ضربت له صدرى وألزمته كفى
كأن جناحيـهِ اذا هاج شوقهُ * يداقينةٍ هوجاء تضرب بالدُّفِّ

ومنهم من يشبهه بجناح الطير حين ينتفض ، كقول أحد الأعراب

ألا بأبى من ليس والله نافعى * بنيلٍ ومن قلبى على النأى ذاكرُهْ
ومن كبـدى تهفو اذا ذكر اسمهُ * كهفوِ جناحٍ ينفض الطّلَّ طائرهْ

وقد وضح هذا المعنى فى قول نُصَيْب

كأن القلب ليلة قيل يُغْدَى * بليلى العامريّةِ أو يُراحُ
قطاةٌ عزّها شَرَكٌ فباتت * تجاذبُه وقد علق الجناح
لها فرخان قد تُرِكا بوكرٍ * فعشُّهما تُصفّقُه الرياحُ
اذا سمعا هبوب الريح نصّا * وقدأودى به القدر المتاح [2]
فلا فى الليل نالت ماترجىّ * ولا فى الصبح كان لها بَراحُ

وابن ميادة يذكر أن قلبه أمسى وكأن يداً ضبثت به ، أى قبضت عليه وسامته العذاب ، ويقول

(١) القلب بضم القاف هو السوار (٢) نص الطائر : هم بالنهوض

كأن فؤادى فى يدٍ ضبثتْ بهِ * محاذرةً أن يقضبَ الحبل قاضبُهْ
وأُشفق من وشك الفراق واننى * أظن لمحمولٌ عليه فراكبُهْ
فوالله ماأدرى أيغلبنى الهوى * اذا جَدَّ جِدُّ البين أم أنا غالبُهْ
فان أستطع أغلب وان يغلب الهوى * فمثل الذى لاقيت يُغلب صاحبُه

مثال الحبيب

ومن العشاق من يرى مثال حبيبه كلما هبّ من نومه ، أو أوى الى فراشه ، كالذى يقول

أ آخر شىءٍ أنت فى كل هجعةٍ * وأول شىء أنت عند هبوبى
مَزيدكِ عندي أن أقيك من الردى * ووُدٌّ كماء المزن غير مَشُوبِ

والمُنى تمثل الحبيب فى قول راشد بن أرشد

تحيرت فى أمرى وانى لواقفٌ * أُجيل وجوه الرأى فيك وماأدرى
أأعزم عزم اليأس فالموت راحةٌ * أو اقنع بالإعراض والنظر الشزرِ
وإنى وإن أعرضتُ عنك لمُنطوٍ * على حُرَقٍ بين الجوانح والصدرِ
اذا هاج شوقى مثّلتكِ لىَ المُنى * فألقاكِ ما بينى وبينكِ فى السرِّ
فمن ذاك لم أصبر ولى فيك حيلةٌ * ولكن دعانى اليأس منكِ الى الصبرِ
تصبّرت مغلوباً وإنى لموجَعٌ * كما يصبر الظمآن فى البلد القفرِ

وراشد بن أرشد هذا هو الذى يقول :

ضحكتِ ولو تدرين مابى من الهوى * بكيتِ لمحزون الفؤاد كئيبِ
لمن لم تُرحْ عيناهُ من فيض عَبْرةٍ * ولا قلبُهُ من زفرةٍ ونحيبِ

لمستأنسٍ بالهمّ فى دار وحشةٍ * غريب الهوى باكٍ لكل غريبِ
ألا بأبى العيش الذى بان وانقضى * وما كان من حُسنٍ هناك وطيبِ
وترداد مستور الأحاديث بيننا * على غفلةٍ من كاشحٍ ورقيبِ
ليالىَ يدعونا الصِّبا فنجيبهُ * ونأخذ من لذاته بنصيبِ
الى أن جرى صرف الحوادث فى الهوى * فبُدِّل منا مشهدٌ بمغيبِ

وقد ضاع شعر هذا الشاعر المجيد ، وحرَمنا منه صاحب زهر الآداب حين قال « وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره ، وصنت الكتاب عن ذكره » وبهذه الصيانة فقدت الآداب شعر هذا الشاعر ، وكم نتمنى أن لا يخلط المؤلفون بين الأدب والأخلاق !

وأجود ما قيل فى مثال الحبيب قول كثيّر :

أريد لأنسى ذكرها فكأنّما * تُمثَّلُ لى ليلى بكل سبيلِ

أهوال الصدود

ولقد أطال الشعراء فى شكوى الصد ، وما يُقاسون فيه من أهوال ، فمن ذلك قول الشريف :

وبين ذوائب العقدات ظبىٌ * قصير الخطو فى المرط المُذالِ
ريبٌ إن أُريغَ إلى حديث * نَوَارٌ إن أُريدَ الى وِصالِ
فهل لى والمطامعُ مُرْدياتٌ * دُنُوٌّ من لمَى ذاك الغزالِ
لقد سلبت ظِباءُ الدار لُبّى * ألا ما للظباء بها ومالى
تُنغِّصنى بأيام التلاقى * معاجلتى بأيام الزِّيالِ

تَحيَّفنى الصدود وكنت دهراً * أُروَّع بالصـدود فلا أُبالى
وكيف أُفيق لا جسدى بناءٍ * عن البلوى ولا قلبى بسالى
يرنِّحنى اليك الشوق حتى * أميلَ من اليمين الى الشمالِ
كما مال المُعاقر عاودتهُ * حُميّا الكأس حالاً بعد حالِ
ويأخذنى لذكركمُ ارتياحٌ * كما نشط الأسير من العقالِ

وعبد الله ابن مصعب يأسى على أن لم يَعُده أحبابه فى مرضه ، مع أنه يعود كلبهم اذا مرض ؛ ولهذا لقّب (عائد الكلب) حين قال

مالى مرضت فلم يعدنى عائدٌ * منكم ويمرض كلبكم فأعودُ
وأشد من مرضى علىَّ صدودكم * وصدود عبدكمُ علىَّ شديدُ

ويرى أبو نُوَاس أن قرب الدار لا ينفع مع الصدود، ويقول :

لقد عاجلت قلبى جِنانٌ بهجرها * وقد كان يكفينى بذاكَ وعيدُ
رأيت تدانى الدار ليس بنافعٍ * اذا كان ما بين القلوب بعيدُ

وابن الأحنف يترك العَتْب على الصد ، لئلاّ يُرزأ بصدٍّ جديد ، ويقول :

تركت صدودها وصبرت نفسى * بطول تجرُّع الغيظ الشديدِ
مخافةَ أن تجدِّد لى صدوداً * وكنت حديث عهدٍ بالصدودِ

وقد وضح هذا المعنى من قبل فى قول أبى صخر الهُذَلى :

ويمنعنى من بعض إنكار ظلمها * إذا ظلمت يوماً وان كان لى عذرُ
مخافةُ أنى قد علمت لئن بدا * لىَ الهجر منها ما على هجرها صبرُ

والبحترى يمزج الشكوى بالعتاب فى قوله :

ظلمتنى تجنياً وصدوداً * غير مرتاعة الجنان لظلمى
ويسير عند القتول إذا ما * أثمت فى أن تبوء بإثمى
أجد النار تستعار من النا * رِ وينشو[1] من سقم عينيك سقمى
لعب ما أتيتِ من ذلك الصدّ * فرضاه أم حقيقة عزم
وبحق ان السيوف لتنبو * تارةً والعيون باللحظ تدمى

ويروقنى الندم على الصدود فى قول صاحب البدائع :

لقــد صددنا كما صددتم * فهل ندمتم كما ندمنا ؟

التلفت الى معالم الوجد

ومن أوجع ما تحدث به المتيمون ، تلفتهم الى معاهد الحب : عند الوداع ، وبعد الفراق .

قال بعض الرواة : مررت بحمى الربذة فاذا صبيان يتقامسون[2] فى الماء ، وشاب جميل الوجه ملوّح الجسم قاعد ، فسلمت عليــه فردّ علىّ الســلام . وقال : من أين وضح الراكب ؟ قلت من الحمى ! قال : ومتى عهدك به ؟ قلت رائحا . قال وأين كان مبيتك ؟ قلت : أدنى هــذه المشاقر[3] . فألقى نفسه على ظهره ، وتنفس الصعداء . فقلت تفسأ[4] حجاب قلبه ، وأنشأ يقول

سقى بلداً أمست سليمى تحله * من المزن ما تروى به وتسيم

(١) يقال نشأ ينشأ ونشؤ ينشؤ : أى قوى وزاد (٢) يتقامسون : يتغاطون . يقال قمسته فى الماء غطسته فيه (٣) المشاقر منابت العرفج (٤) تفسأ : تشقق وانصدع

وإن لم أكن من قاطنيه فانهُ * يحلُّ به شخصٌ علىَّ كريمُ

ألا حبذا من ليس يعدل قربهُ * لدىَّ وإن شطَّ المزار نعيمُ

ومن لامنى فيه حبيبٌ وصاحبٌ * فرُدَّ بغيظٍ صاحبٌ وحميمُ

ثم سكت سكتةً كالمغمى عليه ، فصحت بالأصبية ، فأتوا بماء فصببته على وجهه فأفاق ، وأنشأ يقول :

اذا الصب الغريب رأى خشوعى * وأنفاسى تزيَّن بالخشوعِ

ولى عينٌ أضرَّ بها التفاتى * الى الأجزاع مطلقة الدموعِ

الى الخلوات تأنس فيك نفسى * كما أنس الوحيد الى الجميعِ

والشاهد فى الأبيات الأخيرة

وما أوجع تلفت القلب بعد العين فى قول الشريف

تلفتُّ حتى لم يبنْ من بلادكمْ * دخانٌ ولا من نارهنَّ وَقودُ

وإن التفات القلب من بعد طرفهِ * طِوَالَ الليالى نحوكم ليزيد

ولما تدانى البين قال لىَ الهوى * رويداً وقال القلب أين تريدُ

أتطمع أن تسلو على البعد والنوى * وأنت على قرب المزار عميدُ

ولو قال لى الغادون ما أنت مُشتهٍ * غداة جزعنا الرمل قلت أعود[1]

أأصبر والوعساء بينى وبينكم * وأعلام خَبْتٍ ، اننى لجليدُ !

وانظر قوله من كلمة ثانية

ترحّلتَ عنكم لى أمامىَ نظرةٌ * وعشرٌ وعشرٌ نحوكم من ورائيا

ومن حَذَرٍ لا أسأل الركب عنكمُ * وأعلاق وجدى باقياتٌ كما هيا

ومن يسأل الركبان عن كل غائبٍ * فلا بدّ أن يلقى بشيراً وناعيا

(١) جزع من باب منع : يقال جزع الارض قطعها

الصد والنوى

يأسى العشاق للصد، حتى اذا راعتهم مرارة النوى، علموا أن الصد كان حلو المذاق. وفى هذا المعنى يقول ابن الخياط:

كفى حَزَناً أنى أبيت معذَّباً * بنار هموم ليس يخبو سعيرُها
وأن عدوّى لا يُراع وأننى * أبيت سخين العين وهو قريرها
وانى لرهن الشوق والشمل جامعٌ * فكيف اذا حثَّ الحداةَ أميرها
وما زلت من أسر القطيعة باكياً * فمن لى غداة البين أنى أسيرُها
وكنت أرى أن الصدود منيّةٌ * يكون مع الليل التمام حضورها
فلما قضى التفريق بالبعد بيننا * وجدت الليالى كان حلْواً مريرها
هوًى ونوًى يستقبح الصبر فيهما * وحسبك من حالٍ يذمُّ صبورها

وقد أصاب فى تشبيه النوي بعد الهجر، بالجرح بعد الجرح حين قال

أحنُّ الى سقمى لعلك عائدى * ومن كَلَفٍ أنى أحنُّ الى السقم
وحتامَ أستشفى من الداء مابه * سقامى وأستروى من الدمع مايُظمى
فراقٌ أتى فى إثر هجرٍ وما أذًى * بأوجعَ من كَلْمٍ أصاب على كَلْم

وحنين المحب الى سقمه، أملاً فى أن يعودَهُ حبيبه، يذكرنا بقول كثيّر:

يودّ بأن يُمسى سقيما لعلّها * اذا سمعت عنه بشكوى تراسِلُهْ

القريب البعيد

هو الحبيب الذى يجاورك ، أو يساكنك ، ثم لا تملك وصله ، ولا حديثه . وقد تزوره بلمح العين . كما قال ابن الدمينة

ألا حُبَّ بالبيت الذى أنت هاجرُهْ * وأنت بتلماحٍ من الطرف زائرُهْ
فيالك من بيتٍ لعينىَ مُعجبٍ * وأحسنُ فى عينى من البيت عامرُهْ
أصدُّ حياءً أن يلجَّ بىَ الهوى * وفيك المنى لولا عدوٌّ أُحاذرُهْ

وفى هذا المعنى يقول ابراهيم بن العباس :

تدانت بقومٍ عن تناءٍ زيارةٌ * وشطَّ بليلى عن دُنوٍّ مزارُها
وإن مقيماتٍ بمنعرَج اللوى * لأقرب من ليلى وهاتيك دارُها

والشعراء يشبهون الحبيب الممنوع فى قربه ، بالماء يُمنع من وروده الظمآن ، فنجد منهم من يقول :

إني وإياكِ كالصادى رأى نَهَلاً * ودونهُ هُوَّةٌ يخشى بها التلَفا
رأى بعينيه ماءً عزَّ موردُهُ * وليس يملك دون الماء مُنصرَفا

ومن يقول :

وإنى على هجران بيتك كالذى * رأى نَهَلاً رِيًّا وليس بناهلِ
يرى بَرْدَ ماءٍ ذِيد عنه وروضةً * بَرُود الضحى فينانةً بالأصائلِ

وقد صوَّر جميل هذا المعنى حين قال :

وما صاديات حُمْنَ يوماً وليلةً * على الماء يخشَيْنَ العِصِىَّ حوانى
حوائم لم يصدرن عنه لوجهةٍ * ولاهنّ من برد الحياض دوانى

يَرَيْنَ حباب الماء والموت دونهُ * فهن لأصوات السقاةِ روانى

بأكثر منى غلةً وصبابةً * اليكِ ولكنّ العدوّ عرانى

وقال أبو حية النميرى أو العباس بن الأحنف :

كفى حزناً أنى أرى الماء باديًا * لعينى ولكن لا سبيل الى الوِرْدِ

وما كنت أخشى أن تكون منيتى * بكفِّ أعز الناس كلهمِ عندى

حلاوة الملام

ومن المحبين من يستعذب اللوم ، لذكر الحبيب ، كما قال أبو نواس :

أحب اللوم فيها ليس إلا * لترداد اسمها فيما أُلامُ

ويدخل حبها فى كل قلب * مداخلَ لا تغلغلها المدامُ

وفى هذا المعنى يقول محمد بن أبى أُمية :

وحدّثنى عن مجلس كنتِ زَيْنَهُ * رسولٌ أمينٌ والنساء شهودُ

فقلت له رُدَّ الحديث الذى مضى * وذكركِ من بين الحديث أريدُ

وقد ظرُف البها زهير حين قدّم رضى الحبيب على رضا العذول ، وقال :

يامن يهدّد بالصدو * دِ نعم تقولُ وتفعلُ

قد صح عذرك فى الهوى * لكننى أتعلّلُ

قل للعذول لقد أطلـــت لمن تلوم وتعذلُ

عاتبت من لا يرعوى * وعذلت من لا يقبل

غضب العذول أخف من * غضب الحبيب وأسهل

وما أبدع قول أبى فراس :

أساء فزادته الإساءة حظوةً * حبيبٌ على ما كان منه حبيبُ
يَعُدّ علىَّ العاذلون ذنوبَهُ * ومن أين للوجه المليح ذنوبُ ؟

والرقيب أخو اللائم فى تنغيص حياة العشاق ، ومن طريف الشعر فى الألم لقرب الرقيب قول ابن المعتز :

وابلائى فى محضرٍ ومغيبِ * من حبيبٍ منّي بعيدٍ قريبِ
لم تَرِدْ ماء وجهه العين إلاّ * شَرِقَتْ قبل رِيّها برقيبِ

وقوله :

قد دنت الشمس للمغيبِ * وحان شوقى الى الحبيبِ
طوبى لمن عاش عُشْر يومٍ * لهُ حبيبٌ بلا رقيبِ

وما أظرف من يقول :

لسهم الحب جرحٌ فى فؤادى * وذاك الجرح من عين الرقيبِ
يوكِّل ناظريه بنا ويحكى * مكان الكاتبين من الذنوب
فلو سقط الرقيب من الثريّا * لَصُبّ على محبٍّ أو حبيبِ

وانظر كيف ضُرب المثل بغفلة الرقيب فى قول أحد الظرفاء :

يسقيك من كفهِ مُداماً * ألذّ من غفلة الرقيبِ
كأنها إذْ صَفَت ورقّتْ * شكوى محبٍّ الى حبيبِ

وقد كَلِف سعيد الورّاق بغلام من الرهبان فأصبحوا وكلهم رقباء ، وفيهم يقول :

بربك ياحمامة دير زكىّ * وبالإنجيل عندكِ والصليبِ

قفي وتحمّلي مني سلاماً * الى قمرٍ على غصنٍ رطيبِ
حماه جماعة الرهبان عنى * فقلبي ما يقرُّ من الوجيبِ
وقالوا رابنا إلمام سعدٍ * ولا والله ماأنا بالمُريب
وقولى سعدك المسكين يشكو * لهيب جوًى أحرَّ من اللهيبِ
فصِلْهُ بنظرةٍ لك من بعيدٍ * اذا ما كنت تمنع من قريبِ
وإن أنا مُتُّ فاكتب حول قبرى * محبٌّ مات من هجر الحبيبِ
رقيبٌ واحدٌ تنغيص عيشٍ * فكيف بمن لهُ ألفا رقيبٍ ؟

انه لا بدَّ مقتول، كما قتل صاحب هذه الأبيات ! !

رؤية الضمير

ومن المحبين من يرى محبوبه فى ضميره، كلما اشتاق اليه، كما قال الحكم بن قنبرة

ان كنت لست معى فالذكر منك معى * يرعاك قلبى وان غُيِّبت عن بصرى
العين تبصر من تهوى وتفقدهُ * وناظر القلب لايخلو من النظرِ

وقال آخر

أما والذى لو شاء لم يخلق الهوى * لئن غِبتَ عن عَينىَّ ماغبتَ عن قلبى
يُرينيكَ عين الوهم حتى كأنى * اناجيك من قربٍ وان لم تكن قُربى

وقال ابو عثمان الناجم

لئن كان عن عينىَّ أحمدُ غائباً * فما هو عن عين الضمير بغائبِ
له صورةٌ فى القلب لم يُقصها النوى * ولم تتخطَّفها أكفُّ النوائبِ
اذا ساءنى يوماً شُحوط مزارهِ * وضاقت بقلبى فى نواه مذاهبى

عطفت على شخص لهُ غير نازحٍ * محلّتهُ بين الحشا والترائبِ

ويقرب من هذا المعنى قول الآخر فى الاستعانة باسم الحبيب

وليل وصلنا بين قُطريهِ بالسُّرى * وقد جدّ شوقٌ مُطمعٌ فى وصالكِ

أطلّت علينا من دُجاه حنادسٌ * أعدْن الطريق النهجَ وعر المسالكِ

فناديت يا أسماء باسمك فانجلت * وأسفر منها كل أسودَ حالكِ

بنا أنتِ من هادٍ نجونا بذكرهِ * وقد نشبت فينا أكُف المهالكِ

منحتك إخلاصي وأصفيتك الهوى * وإن كنتِ لمّا تُخطريني ببالكِ

وفى مثل هذا المعنى يقول اسحق الموصلي :

صبٌّ يحثُّ مطاياهُ بذكركمُ * وليس ينساكمُ إن حلَّ أو سارا

لو يستطيعُ طوى الأيام نحوكمُ * حتى يبيع بعمر القرب أعمارا

يرجو النجاة من البلوى بقربكمُ * والقرب يلْهب فى أحشائه النارا

القلب والكبد

موطن الحب هو القلب ، في حديث الشعراء . وقد أثبت أخيراً أحد الأطباء الألمان أن موطن الحب هو الكبد ، ونريد أن نذكر هنا طرفاً من حديث العرب عن الكبد ، وقرار الحب فيه ، مما يماثل هذا الرأى الجديد . . قال بعض الأعراب :

فيا كبِداً يحمى عليها وانها * مخافةَ هيضات النوى لخفُوقُ

أقام فريق من أُناسٍ يودُّهم * بذات الغضا قلبي وبان فريق

بحاجة محزونٍ يظلُّ وقلبهُ * رهينٌ ببَيضّات الحِجال صديق

وجرى ذكر القلب والكبد فى كلمة صردر حين قال :

لا الحمى بعدكم مَناخٌ ولاما * ءُ اللوى اذ هجرتموه بوردِ
والفؤاد الذى عهدتم جموحاً * راضه طول جوْركم والتعدّى
ماتريدون من دلائل شوقى * غير هذا الذى أُجنُّ وأُبدى
كبدٌ كلما وضعت عليهِ * راحتى قال أنت قادح زندِى
وجفون جرين مدًّا وماء البـ * ـحر يرتاح بين جزْر ومدِّ

وكذلك جمع بينهما البحترى حين قال

وما كبدى بالمستطيعة للأذى * فأسلو ولا قلبي كثير التقلُّبِ

وابن الاحنف حين قال :

ماالكلوم التى بالقلب من اسى * فاصبر على اليأس يامستقبل الياسِ
ماأسمج الناس فى عينى وأقبحهم * اذا نظرت فلم أبصرك فى الناس
حتى متى كبدى حرّى معطشةً * ولا يلين لشئ قلبك القاسى
يامُورِىَ الزّنْد قد أعيت قوادحُهُ * اقبسْ اذا شئت من قلبي بمقباسِ

بكاء الملاح

نذكر للقارئ شذرات من الشعر فى بكاء المِلاح ، وما أغزر الدمع فى بكاء المليح ، حين يظفر بحسنه التراب :

قال ابن عبد ربه : كان لمعلّي الطائى جارية يقال لها (وصف) وكانت أديبة شاعرة ، فأخبر محمد بن وضّاح قال : أدركت معلّى الطائى بمصر وأعطى بجاريته وصف أربعة آلاف دينار فباعها . فلما دخل

عليها قالت له : بعتني يامعلى ؟! قال نعم . فقالت : والله لو ملكت منك مثل ما تملك منى ما بعتك بالدنيا وما فيها !! فرد الدنانير واستقال صاحبه ثم أصيب بها الى ثمانية أيام . فقال يرثيها :

يا موتُ كيف سلبتني وصفا * قدّمتها وتركتني خَلْفا
هلاّ ذهبت بنا معاً فلقد * ظفرت يداك فسُمتني خسفا
وأخذت شِقَّ النفس من بدنى * فقبرته وتركت لى النصفا
فعليك بالباقى بلا أجل * فالموت بعد وفاتها أعفى
ياموت ما أبقيت لى أحداً * لمّا رفعت إلى البلى وصفا
هلاّ رَحمت شباب غانية * ريّا العظام وشَعْرَها الوَحْفا[1]
ورحمت عينَىْ ظبيةٍ جعلت * بين الرياض تناظرُ الخِشْفا
تقضى اذا انتصفت مرابضهُ * وتظل ترعاه إذا أغفى
فاذا مشى اختلفت قوائمه * وقت الرضاع فينطوى ضعفا
متحيراً فى المشى مُرتعشاً * يخطو فيضرب ظِلْفُهُ الظِّلفا
فكأنها (وَصفٌ) إذا جعلت * تحوى تحيرُ محاجراً وُطْفا[2]
ياموت أنت كذا لكل أخي * إلفٍ يصون ببرّه الإلْفا
خلّفتَنى فرداً وبنت بها * ما كنت قبلك حاملا وكفا[3]
أسكنتها فى قعر مظلمةٍ * بيتاً يصافح تُربه السقفا
بيتاً إذا مازاره أحدٌ * عصفت به أيدى البلى عصفاً

(١) الوحف : الاسود (٢) وطف جمع أوطف ووطفاء وهو الماء الكثير أو الدمع : توصف به السحب والعيون (٣) الوكف : الظلم

لا نلتقي أبداً معاينةً * حتى نقوم لربنا صفّاً
لبست ثياب الحتف جاريةٌ * قد كنت ألبس دونها الحتفا
فكأنها والنفس زاهقة * غصن من الريحان قد جفّا
يا قبر أبقِ على محاسنها * فلقد حويت البر والظّرفا

وكتب أبو نواس على قبر جارية هذه الأبيات

أقول لقبر زرته متلثّما * سقى الله بَرْدَ العفو صاحبة القبر
لقد غيبوا تحت الثرى قمر الدجى * وشمس الضحى بين الصفائح والقفرِ
عجبت لعين بعدها ملت البكا * وقلبٍ عليها يرتجى راحة الصبرِ

وقال أبو تمام وقد ماتت جارية له

جفوفَ البلى أسرعت فى الغصنُ الرطب * وخطب الردى والموت أبرحت من خطبِ
لقد شرقت فى الشرق بالموت غادة * تبدلتُ منها غربة الدار بالقرب
أقول ، وقد قالوا استراحت لموتها * من الكرب روح الموت شرٌّ من الكرب
لها منزل تحت الثرى وعهدتها * لها منزل بين الجوانح والقلب

وما أجمل قوله من كلمة ثانية

يقولون هل يبكى الفتى لخريدة * إذا ما أراد اعتاض عشْراً مكانها
وهل يستعيض المرء من خُمْس كفهِ * ولو صاغ من حُرِّ اللجين بنانها

وقال ابن الرومى فى بستان وكانت من المجيدات فى الغناء

ما أولع الدهر فى تصرّفهِ * بكل زينٍ لهُ ومفتخرِ
أطار قمريّة الغناء عن الأر * ض، فأى القلوب لم تطرِ
بستان يا حسرتا على زهَرٍ * فيك من اللهو بل على ثمرِ

بستان أضحى الفؤاد فى وله * يانزهة السمع منه والبَصر
بستان مامنك لامرئ عوضٌ * من البساتين لا ولا البشَرِ
ان لم أكن متُّ فاً نقرضت فكم * من موتةٍ للفؤاد فى الذِكَرِ
وما أرق قوله فى هذه القصيدة
ياغضة السن ياصغيرتهُ * أمسيت احدى المصائب الكُبَرِ
أنى اختصرت الطريق ياسَكَنى * إلى لقاء الاكفان والحُفَرِ
أبعد ما كنت باب مبتهَج * للنفس أصبحت باب معتبَرَ
كل ذنوب الزمان مغتفرٌ * وذنبه فيك غير مغتفَرِ
لله ما ضمنت حفيرتها * من حسن مرأى وطيب مختبَرِ
أضحت من الساكنى حفائرهم * سُكنى الغوالى مداهن السرر
لو علم القبر من أُتيح لهُ * لانحفر القبر غير مُحتفَرِ
وأحب لو تأمل القارئ مافى هذا الشعر من سُمُوّ الخيال

وكان مرة بن عبد الله مغرماً بفتاة من قومه يقال له ليلى بنت زهير ، وتزوجت من غيره بالرغم منه ، ثم نقلت مع زوجها الى راذان وماتت هنالك ، فقال مرة فيها كثيراً من الشعر الموجع . كقوله
أيانا عِيَىْ ليلى أما كان واحدٌ * من الناس ينعاها إلىَّ سِواكما
ويانا عِيَىْ ليلى لجلّت مصيبةً * بنافقد ليلى لاأُمِرَّت قواكما
ولا عشتما الا حليفَىْ بليةٍ * ولا مُتُّ حتى يُشترى كفنا كما
فأشمتِ والأيام فيها بوائق * بموتكما إنى أحبُّ ردا كما

وقوله

كأنك لم تُفجع بشيء تُعدّهُ * ولم تصطبر للنائبات من الدهر
ولم تر بؤساً بعد طول غضارةٍ * ولم ترمك الأيام من حيث لاتدرى
سقى جانبىْ راذان والساحة التى * بها دفنوا ليلى مُلِثٌّ من القطرِ
ولازال خصبٌ حيث حلّت عظامُها * براذان يسقى الغيث من هَطِل غَمْرِ
وان لم تكلمنا عظامٌ وهامةٌ * هناك وأصداءٌ بقينَ مع الصخر

وكان لاسحق الموصلى غلام جميل يقال له زياد ، وهو الذى يقول فيه :

اذا ما زيادٌ علّني ثم علّني * ثلاث زجاجات لهن هديرُ
خرجت أجرُّ الذيل زهواً كأنني * عليك أمير المؤمنين أمير

ثم مات زياد هذا ، فقال اسحق يبكيه

فقدنا زيادًا بعد طول صحابةٍ * فلا زال يسقى الغيثُ قبرَ زيادِ
ستبكيك كأس لم تجد من يديرها * وظمآن يستبطى الزجاجة صادى

وكان محمد بن مناذر يعشق عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى ، وكان عبد المجيد هذا من أجمل الفتيان وآدبهم وأظرفهم ، وله مع ابن مناذر حديث طويل ذكره صاحب الاغانى ، ثم مات عبد المجيد بعد مرض قصير وهو فى سن العشرين ، فقال فيه ابن مناذر قصيدة طويلة نختار منها هذه القطعة الباكية :

كلُّ حيّ لاقى الحِمام فمودى * ما لحيّ مؤمّل من خلودِ
لاتهاب المنون شيئاً ولا تبـــقى على والدٍ ولا مولودِ

ولقد تترك الحوادث والأيا ... مُ وهيًا في الصخرة الصيخود (١)

ولو أن الأيام أخلدن حيًّا * لعلاءٍ أخلدن عبد المجيدِ

مادرى نعشهُ ولا حاملوهُ * ماعلى النعش من عفافٍ وجودِ

ويحَ أيدٍ جثت عليه وأيدٍ * دفنتهُ ! ماغيّبت في الصعيد !

وأرانا كالزرع يحصده الدهـــــرُ فمن بين قائمٍ وحصيدِ

وكأنّا للموت ركبٌ مخبّو ... ن سراعاً لمنهلٍ موردِ

ان عبد المجيد يوم تولّى * هدَّ ركناً ما كان بالمهدود

هدَّ ركني عبد المجيد وقد كنـــــتُ بركنٍ أنوءُ منه شديد

وبعبد المجيد تامور نفسي * عثرت بي بعد انتعاش جدودي (٢)

وبعبد المجيد شلّت يدى المـــــنى وشلّت به يمين الجودِ

حين تمّت آدابهُ وتردّى * برداءٍ من الشباب جديد

وسقاه ماء الشبيبة فاهتزّ * اهتزاز الغصن النّدِي الأُملودِ (٣)

وكأني أدعوه وهو قريبٌ * حين أدعوه من مكان بعيد

فلئن صار لا يجيب لقد كا * ن سميعاً هشًّا اذا هو نودى

يافتًى كان للمقامات زَيْناً * لاأراه في المحفل المشهودِ

لهف نفسي ! أما أراك وماعنـــــدك لي ان دعوت من مردودِ

كان عبد المجيد سم الأعادى * ملءَ عين الصديق رغم الحسود

عاد عبد المجيد رُزءًا وقد كا * نَ رجاءً لريب دهرٍ كَنُودِ

خُنتك الودَّ لم أمت كمداً بعـــــدكَ إني عليك حقٌّ جليد

(١) الصيخود : الشديدة (٢) تامور النفس حياتها (٣) الاملود : الناعم الرقيق

لو فدى الحيُّ ميتاً لفدت نفـ ـسك نفسي بطارفي وتليدي
ولئن كنت لم أمت من جوى الحز ن عليه لأبلغنّ مجهودي
لأقيمنّ مأتماً كنجوم الليـ ـل زُهراً يلطمن حُرّ الخدودِ
موجَعاتٍ يبكين للكبد الحرّ ى عليه وللفؤاد العميد[1]
ولعينٍ مطروفةٍ أبداً قا * ل لها الدهر لا تقرّي وجودي
كلما عزّكِ البكاء فأنفد تِ لعبد المجيد سَجْلاً فعودي
لفتىً يحسن البكاء عليـهِ * وفتىً كان لامتداح القصيد
فبرغمي كنت المقدَّم قبلي * وبكُرهي دُلّيتَ في الملحودِ
كنت لي عصمةً وكنت سماءً * بك تحيا أرضي ويخضرُّ عودي

وأُغرِمَ يعقوب بن الربيع بجارية تسمّى (مُلْك) ومكث في طلبها سبعَ سنين، حتى رق مالهُ، وجاهه، ثم ملكها، فأقامت عنده ستة أشهر وماتت. فقال يبكيها:

لِلّهِ آنسَةٌ فُجعت بها * ما كان أبعدها من الدّنَسِ
أتت البشارة والنعيُّ معاً * يا قُرْبَ مأتمها من العُرْسِ
يا مُلكُ! نال الدهر فرصتهُ * فرمى فؤاداً غير محترس
أبكيك ما ناحت مُطوّقةٌ * تحت الظلام تنوح في الغلَسِ

وقال فيها:

ليت شعري بأيّ ذنبٍ لمُلْكٍ * كان هجري لقبرها واجتنابي
ألذنبٍ حقدته كان منها * أم لعلمي بشغلها عن عتابي

(١) العميد الذي صرعه الحزن

أم لأمنى لسخطها ورضاها * حين واريت وجهها فى التراب
إنما حسرتى اذا ما تذكر * ت عنائى بها وطول طلابى
لم أزل فى الطلاب سبع سنين * أتأتى لذاك من كل باب
فاجتمعنا على اتفاق وقدر * وغنينا عن فرقة باصطحاب
أشهراً ستة صحبتك فيها * كن كالحلم أو كلمع السراب
وأتانى منك النعى مع البشـ * ـرى فياقرب أوبة من ذهاب

وما أروع قوله فى وصف احتضار هذه الجارية :

حتى اذا فتر اللسان وأصبحت * للموت قد ذبلت ذبول النرجس
وتسهلت منها محاسن وجهها * وعلا الأنين تحثه بتنفس
رجع اليقين مطامعى يأساً كما * رجع اليقين مطامع المتلمس[1]

وقد وصف غربته من بعدها فقال :

فجعت بملك وقد أينعت * وتمت فأعظم بها من مصيبه
فأصبحت مغترباً بعدها * وأضحت بحلوان ملك غريبه
أرانى غريباً وان أصبحت * منازل أهلى منى قريبه
عطفت على أختها بعدها * فصادفتها ذات عقل أديبه
فأقبلت أبكى وتبكى معى * بكاء كئيب بحزن كئيبه
وقلت لها مرحباً مرحباً * بوجه الحبيبة أخت الحبيبه
سأصفيك ودى حفاظاً لها * فذلك الوفاء بظهر المغيبه
أراك كملك وان لم تكن * لملك من الناس عندى ضريبه[2]

(١) المتلمس هو صاحب الصحيفة التى يضرب بها المثل فى الخيبة (٢) ضريبة : شبيهة

والشعر فى بكاء المِلاح كثير ، ولكن حب الايجاز يحملنا على الاكتفاء بهذا المقدار ، وما هو بالقليل .

بكاء الحلائل

وأوجع ما يكون بكاء المِلاح إذا كنَّ حلائل ، والحليلة المعشوقة متاع عزيز ! فمن ذلك قول أحد الفتيان فى بكاء امرأته ، وكان بها من المغرمين :

أطأ التراب وأنتِ رَهْن حفيرةٍ * هالَتْ يداىَ على صَداكِ ترابَها
إنى لأغدَرُ من مشى ان لم أطأ * بجفونِ عينى ما حييتُ جنابَها

قال ابن رشيق : ومن جيد ما رُثِىَ به النساء وأشجاه ، وأشده تأثيراً فى القلب ، وإثارةً للحزن ، قول محمد بن عبد الملك الزيات فى أم ولده :

ألاَ من رأى الطفل المفارق أُمَّهُ * بعيد الكرى عيناهُ تبتدرانِ
رأى كل أُمٍّ وابنها غير أُمِّهِ * يبيتان تحت الليل ينتجيانِ
وبات وحيداً فى الفراش تحثُّهُ * بلابل قلبٍ دائم الخفقانِ

يقول فيها بعد أبيات :

ألا إن سَجْلاً واحداً قد أرقته * من الدمع أو سَجْلين قد شفيانى
فلا تلحيانى إن بكيت فانما * أداوى بهذا الدمع ما تريانِ
وإن مكاناً فى الثرى خُطَّ لحدُهُ * لمن كان فى قلبى بكل مكانِ

أحق مكانٍ بالزيارة والهوى * فهل أنتما إن عُجْتُ منتظرانِ

ومن أشجى الشعر رثاءً قوله فى هذه القصيدة :

فهبْنى عزمت الصبرَ عنها لأننى * جليدٌ فمن بالصبر لابن ثمانِ

ضعيف القوى لا يعرف الأجر حسبةً * ولا يأتسى بالناس فى الحدثان

ألاَ من أُمنّيه المنى وأُعِدُّهُ * لعثرةِ أيامى وصرف زمانى

ألاَ من اذا ماجئت أكرم مجلسى * وان غبت عنهُ حاطنى ورعانى

ولم أر كالأقدار كيف يصبننى * ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى

ومن موجع الشعر قول امرأة شريفة ترثى زوجها ولم يكن دخل بها :

أبكيك لا للنعيم والأُنسِ * بل للمعالى والرمح والفرَسِ

أبكى على فارسٍ فُجعتُ بهِ * أرْملنى قبل ليلة العُرُسِ

يا فارساً بالعَراء مُطَّرَحاً * خانته قُوَّادُهُ مع الحرَسِ

من لليتامى اذاهمُ سغبوا * وكل عانٍ وكلِّ محتبس

وإنى لآسف على قلة هذا النوع من الشعر فى الآداب العربية ، مع أنه من دلائل الوفاء، لو يعلم الشعراء!

لوعة الشوق

نمتع القارئ فى هذا الباب بألوان من سحر الحديث عن تغلغل الشوق فى طيّات الفؤاد . فمن ذلك قول أحد الشعراء وقد اشتاق الى أرض جِلّق، وتمنى لو كحل أجفانه بترابها :

وان اصطباری عن معاهد جلق * غريبٌ فما أجفى الفراقَ وأجفانى

سقى الله أرضاً لو ظفرت بتربها * كحلت بها من شدة الشوق أجفانى

وقال أبو بكر بن سعادة يتشوق الى قرطبة :

أقرطبة الغراء هل لیَ أوبةٌ * اليك وهل يدنو لنا ذلك العهدُ

سقى الجانبَ الغربىَّ منكِ غمامةٌ * وقعقع فى ساحات دوحاتك الرعْدُ

لياليك أسحارٌ وأرضك روضةٌ * وتربك فى استنشاقه عنبرٌ ورَنْدُ

وإنى ليبكينى قول الشريف :

ذكرت الحمى ذكر الطريد مَحلَّهُ * يُذادُ ذِيادَ العاطشات ويُزْجَعُ

وأين الحمى لا الدار بالدار بعدهمْ * ولا مربَعٌ بعد الأحبّةِ مربَعُ

سلامٌ على الأطلالِ لا عن جنابةٍ * ولكنْ يأساً حين لم يبق مطمعُ

نشدتكمُ هل زال من بعد أهله * زرودٌ وهل زالت طُلولٌ وأربُعُ

نعم عادنى عيد الغرام ونبّهتْ * علىَّ الجوى دارٌ بميثاءَ بلقعُ

وطارت بقلبى نفحةٌ غضَوِيّةٌ * تنفّسَها حالٍ من الروض مُمْرِعُ

نظرت الكثيبَ الأيمنَ اليوم نظرةً * تردُّ الىَّ الطرفَ يَدْمَى ويَدمَعُ

وأيقظت للبرق اليمانىِّ صاحباً * بذات النقا يخفى مِراراً ويلمَعُ

أأنت معينى للغليل بنظرةٍ * فنبكى على تلك الليالى ونجزعُ

معاذا الهوى لو كنت مثلىَ فى الهوى * اذاً لدعاك الشوقُ من حيث تسمعُ

هناك الكرى، إنى من الوجد ساهرٌ * وبردُ الحشا، إنى من البين موجَعُ

فلا لُبَّ لى إلاّ تماسك ساعةٍ * ولا نوم لى الاّ النعاسُ المروَّعُ

ألا ليت شعرى كل دارٍ مُشتةٌ * ألا موطنٌ يدنو بشملٍ ويجمعُ

وانظر كيف يقول :

وماحائمات يلتفتن من الصدى * الى الماء قد موطلن بالرشفان
إذا قيل هذا الماء لم يملكوا لها * معاجاً بأقران ولا بمثان
بأظما الى الأحباب مني وفيهم * غريم اذا رمت الديون لواني
فياصاحبي رحلي أقلا فانني * رأيت بليلي غير ما تريان
ويامزجي النضو الطليح عشية * تراك ببطن المأزمين تراني
وهل أنا غادٍ أنشد النبلة التي * بها عرضاً ذاك الغزال رماني

وانظر كيف يستمطر الدمع حين يقول :

خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى * ونجداً وكثبان اللوى والمطاليا
ومرّوا على أبيات حيٍّ برامةٍ * فقولوا لديغ يبتغي اليوم راقيا
وقولوا لجيرانٍ على الخيف من منىً * ترا كم من استبدلتم بجواريا
ومن حلّ ذاك الشعب بعدى وأرشقت * لواحظه تلك الظباء الجوازيا
ومن ورد الماء الذي كنت وارداً * به ورعى الروض الذي كنت راعيا
فوالهفتي ! كم لي على الخيف شهقة * تذوب عليها قطعة من فؤاديا
صفا العيش من بعدى لحيٍّ على النقا * حلفت لهم لا أقرب الماء صافيا
فياجبل الريان إن تعرَ منهم * فاني سأكسوك الدموع الجواريا
وياقرب ما أنكرتم العهد بيننا * نسيتم وما استودعتم الود ناسيا
أأنكرتم تسليمنا ليلة النقا * وموقفنا نرمى الجمار لياليا
عشية جاراني بعينيه شادن * حديث النوى حتى رمى بي المراميا
رمى مقتلي من بين سجفي غبيطه * فيارامياً لا مسك السوء راميا

فياليتنى لم أعلُ نشزاً إليكمُ * حراماً ولم أهبط من الأرض واديا
ولم أدر ما جمعٌ وما جمرتا مِنى * ولم ألق فى اللاقين حياً يمانيا
ويا ويح نفسى كيف زايدت فى مهاً * بذى البان لا يُشْرَيْنَ إلا غواليا

ويقول الابيوردي يصف شوقه الى حبيبته :

وأُقسمُ بالبيت الرحيب فِناؤهُ * وبالحجَر الملثوم والحِجْرِ والرُّكنِ
لأنتِ الى نفسى أحب من الغنى * وذكركِ أحلى فى فؤادى من الأمْن

ويصور الحارث بن خالد شوقه الى عائشة بنت طلحة بشوق الغريق الى النجاة، ويقول:

يا أُمَّ عِمران مازالتْ ومابرحَتْ * بنا الصبابة حتى مسَّنا الشفقُ
ألقلب تاق اليكم كى يلاقيكم * كما يتوق الى مَنجاتِه الغرِقُ

وإنك لتلمس حرارة الشوق فى قول العذرى

لو جُزَّ بالسيف رأسى فى مودتكم * لمرَّ يهوي سريعاً نحوكم رأسى
ولو بَلِي تحت أطباق الثرى جسدى * لكنت أَبْلَى وما قلبى لكم ناسى
أو يقبض الله روحى صار ذكركمُ * روحاً أعيش به ما عشت فى الناس
لولا نسيمٌ لذكراكم يُرَوِّحنى * لعُدت محترقاً من حَرِّ أنفاسى

والشوق يحمل ابن الدمينة على أن يحمد لحبيبته ذكرها له بالمساءة ويقول :

أرى الناس يرجون الربيع وانما * ربيعى الذى أرجو نوالُ وصالكِ
أرى الناس يخشون السنين وانما * سنِيَّ التى أخشى صروفُ احتمالكِ
لئن ساءنى أن نلتِنِي بمَساءةٍ * لقد سرَّنى أنِّى خطرت ببالكِ

ليهنك إمساكى بكفى على الحشا * ورقراق عينى رهبةً من زِيالكِ

وانظر لوعة الشوق فى قول أحد المتيمين

أقول لأصحابى وهم يعذلوننى * ودمع جفونى دائم العبرات

بذكرمىً نفسى فبلّوا إذا دنا * خروجى من الدنيا جفوف لهاتى

راحة السلوان

ومن العشاق من يستريح الى السُّلُوّ ، ولكن أين الى السُّلُوّ السبيل؟

فمن ذلك قول العديل بن الفرخ

صحا عن طِلاب البيض قبل مشيبهِ * وراجع غضّ الطرف فهو خفيضُ

كأنىَ لم أرْعَ الصِّبا ويروقنى * من الحىّ أحوى المقلتين غضيضُ

دعانى له يوماً هوًى فأجابهُ * فؤادٌ إذا يلقى المِراضَ مريضُ

لمستأنِساتٍ بالحديث كأنهُ * تهلُّل غُرٍّ برقهنّ وميضُ

وقال الشريف

هى سلوةٌ ذهبت بكل غرامِ * والحب نَهب تطاوُل الأيامِ

ولقد نضحت من السلوّ وبردهِ * حرّ الجوى فبردْتُ أىَّ ضرامِ

من بعد ما أظما الغليل جوانحى * وأطال من ملل الزّلال أُوامى

لايدّع العذّال نزع صبابتى * بيدى حسرت عن الغرام لثامى

قد كانت الصبَوات تعسف مِقودى * فالآن سوف أطيل من إجمامى

هيهات يخفضنى الزمان وانما * بينى وبين الذل حدّ حسامى

وظاهر هذا الشعر أن أصحابه نزعوا عن الحب طائعين . وفى مقابل

هذا المعنى يقول ابراهيم بن العباس :

وعلّمتَني كيف الهوى وجهالَهُ * وعلّمكم صبرى على ظلمكم ظلمى

وأعلم مالى عنـدكم فيردني * هواىَ الى جهلى فأرجع عن علمى

ويقول ابن الاحنف فى اليأس من السلوان

تجنّب يرتاد السلوَّ فلم يجد * له عنك فى الأرض العريضة مذهبا

فعاد إلى أن راجع الوصل صاغِرًا * وعاد إلى ماتشتهين وأعتبا

ويقول من كلمة ثانية

كم قد تجرّعت من غيظٍ ومن حُرَقٍ * إذا تجدّد حزنٌ هوّن الماضى

وكم سخِطت وما باليتم سخَطِى * حتى رجعت بقلبٍ ساخطٍ راضى

ويقول أيضاً ابراهيم بن العباس :

لمن لا أرى أعرضت عن كل من أرى * وصرت على قلبي رقيباً لقاتِلهْ

أُدافعهُ عن سلوَةٍ وأردُّهُ * حنيناً إلى أوصابه وبلابِلهْ

ويقول ابن أُذينة

إن التى زعمت فؤادك ملّها * خُلِقتْ هواك كما خُلِقتَ هوًى لها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها * بلباقةٍ فأدقّها وأَجلّها

حجبت تحيتّها فقلت لصاحبى * ما كان أكثرها لنا وأقلّها

وإذا وجدت لها وساوس سلوةٍ * شفع الضمير الى الفؤاد فسلّها

ويقرب من هذا المعنى قول صاحب البدائع

ولمّا نسيتم ودّنا وغرامنا * ولم تحفظوا بعد الفراق لنا عهدا

جعلنا نغضُّ الطرف عنكم وعندنا * من الشوق نارٌ لا نُطيق لها وَقْدا

غدر الغوانى

ولابد من ذكر شيء مما تألم له الشعراء فى حياة الحب ، التى طالما يغدر فيها النساء . وإنا لنجد من بينهم من يحسب الغواني جميعاً غادرات، ويقول :

فلا تحسبَنْ هنداً لها الغدر وحدها * سجيةَ نفس ، كلُّ غانيةٍ هندُ !

ويقول كُثيِّر فى السُّخْر من عهود النساء

ألا إنما ليلى عصا خيزرانةٍ * إذا غمزوها بالأكُفِّ تلين

تمتّع بها ما ساعفتك ولا تكنْ * عليك شجاً فى الحلق حين تبينُ

وإنْ هى أعطتك الليانَ فإنها * لآخرَ من خُلاّنها ستلينُ

وإن حلفت لا ينقض النأى عهدها * فليس لمخضوب البنان يمينُ

وقال الشريف يشكو المطل والتسويف :

ياظبية البان ترعى فى خمائلهِ * ليَهنِكِ اليومَ أن القلب مرعاكِ

الماء عندك مبذولٌ لشاربهِ * وليس يرويك إلا مدمع الباكى

وعدٌ لعينيك عندى ما وفيت بهِ * ياقرب ما كذبت عينىَّ عيناكِ

أنتِ النعيم لقلبي والعذاب لهُ * فما أمرَّكِ فى قلبى وأحلاكِ

عندى رسائل شوقٍ لست أذكرها * لولا الرقيب لقد بلغتها فاكِ

هامت بك العين لم تتبع سواكِ هوًى * من علّم العين أن القلب يهواكِ

وإنى ليشجينى قوله من كلمة ثانية :

تهفو الى البان من قلبى نوازعهُ * وما بىَ البانُ بل من داره البانُ

أسدٌ سمعى إذا غنّى الحمام به ٭ كيلا يُبينَ سِرّ الوجد إعلانُ
وربّ دارٍ أوليها مجانبةً ٭ وبى الى الدار أطرابٌ وأشجان
اذا تلفّتُّ فى أطلالها ابتدرت ٭ للقلب والعين أمواهٌ ونيرانُ
كَلْمٌ بقلبى أداويه ويقرفهُ ٭ طول ادّكارى لمن لى منه نسيانُ (١)
لا لِلّوائم إقصارٌ بلائمةٍ ٭ عن العميد ولا للقلب سلوان
على مواعيدهم خلفٌ إذا وعدوا ٭ وفى ديونهـم مَطْلٌ وليّان
هم عرّضوا بوفاء العهد آونةً ٭ حتى إذا عذبونى بالمنى خانوا

وابن الرومى يجعل الغدر من طبائع الحِسان ، اذيشبههنّ بالحديقة ، تحمل الثمر حيناً وتعرَى من الورق حينا ، واليك قوله من قصيدة طويلة

يُوالينَ ما فيـه إغرامٌ وآونةً ٭ يُولين ما فيه للمعشوق سلْوانُ
ولا يَدُمْنَ على عهدٍ لمعتقِدٍ ٭ أنّى ؟ وهنّ كما شُبهن بستانُ
يميـل طوراً بحملٍ ثم يُعْدمهُ ٭ ويكتسى ثم يُلْفَى وهو عُرْيانُ
تغدو الفتاة لها خِلٌّ فان غدرتْ ٭ راحت ينافس فيها الخِلّ خُلّانُ
ماللحسان مسيئاتٍ بنا ولنا ٭ إلى المسيئات طول الدهر تحنان
وإن تبِعن بعهد قلن معذرةً ٭ إنا نسينا وفى النسوان نسيان
يكفى مُطالبنا بالذكر ناهيةً ٭ ان اسمنا الغالب المشهور نسوان
لانلزم الذكر إنا لم نسمّ بهِ ٭ ولامُنحناه بل للذكر ذكرانُ
فضل الرجال علينا أن شيمتهم ٭ جودٌ وبأسٌ وأحلامٌ وأذهان

---

(١) الكلم : الجرح . وقرف الجرح إصابته من جديد

وأن فيهم وفاءً لانقوم بهِ * ولن يكون مع النقصان رجحان
صدقنَ ماشئن لكننّا تقنصنا * منهنّ عينٌ تلاقينا وأُدمان(١)
أنكى وأزكى حريقاً فى جوانحنا * خلقٌ من الماء والالوان نيران
إذا ترقرقن والإشراق مضطرمٌ * فيهنّ لم يملك الأسرار كتمان
ماءٌ ونارٌ فقد غادرن كل فتًى * لابسْنَ وهو غزير الدمع حرّانُ
تخضلُ منهنّ عينٌ فهى باكيةٌ * ويستحرُ فؤادٌ وهو هيمان

وقال فتًى فى ابنة عمه، وقد تجنّت عليه وغدرت به

أأحبابنا لو تعلمون بحالنا * لما كانت اللذات تشغلكم عنا
تشاغلتمُ عنا بصحبة غيرنا * وأبديتم الهجران ماهكذا كنا
وآليتمُ أن لاتخونوا عهودنا * فقد وحياة الحب خنتم وماخنا
غدرتم ولم نغدر وخنتم ولم نخن * وحُلتم عن العهد القديم وماحلنا
وقلتم ولم توفوا بصدق حديثكم * ونحن على صدق الحديث الذى قلنا

وكان صخر بن عمرو، أخو الخنساء، يحب سلمى بنت عوف ثم تزوجها، وتعاهدا على أن لايتزوج واحد منهما بعد صاحبه، ثم طُعن فى أحد الايام، فمرض سنة كاملة. فقصرت زوجه فى السهر عليه، والرفق به. ولا كذلك أمه الرءوم. قالوا: وسمع يوماً امرأة تقول لأمه: كيف حال صخر؟ فقالت: نحن بخير مادمنا نرى وجهه. وسمع أخرى تقول لامرأته كيف حال صخر؟ فقالت: لاحيٌّ فيُرْجَى، ولا ميتٌ فينعى!! وحكى أنه جلس يوماً ليستريح وقد

(١) عين جمع عيناء وهى جميلة العين. والامادن الظباء

رُفع له سَجْف البيت ، فرأى سلمى واقفة تحادث رجلا من بنى عمها وقد وضع يده على عجيزتها ، فسمعه يقول لها : أيُباع هذا الكفل ؟ فقالت عن قريب ! فقال صخر لأمه : عليَّ بسيفى ، لأنظر هل صدِئ أم لا . فأتته به فجرّده ، وهمّ بقتل سلمى . فلما دخلت رفع السيف فلم يستطع حمله . فبكى وقال

أرى أُمَّ صخر لاتملُّ عيادتى * وملّت سُليمى مضجعى ومكانى
فأىّ امرىء ساوى بأم حليلةً * فلا عاش إلاّ فى شقاً وهوانِ
أهمُّ بأمر الحزم لو أستطيعهُ * وقد حِيل بين العَير والنزوانِ
وما كنت أخشى أن اكون جنازةً * لديك ومن يغترُّ بالحدَثانِ

ويذكرون أن غسان بن جهضم كان مفتونا بابنة عمه ، ثم تزوجها ، فلما حضره الموت حلفت لاتتزوج من بعده ، ثم حنثت فى يمينها ، فأنشدها فى نومها ليلة الزفاف

غدرتِ ولم ترعَىْ لبعلك حرمةً * ولم تعرفى حقاً ولم تحفظى عهدا
ولم تصبرى حولاً حِفاظاً لصاحب * حلفتِ لهُ يوماً ولم تنجزى وعدا
غدرتِ به لمّا ثوى فى ضريحهِ * كذلك يُنسى كل من سكن اللحدا

ويذكرنى هذا الشعر بقول أبى العتاهية

اذا ما انقضت عنى من العيش مدتي * فان غناء الباكيات قليلُ
سيعرَض عن ذكرى وتُنسى مودّتى * ويحدث من بعد الخليل خليلُ

وهذه طبيعة العالم ياصاح ، فاقض من أوطارك ما أنت قاض ، واترك الوهم للمجانين !!

* ميزان الحب

ميزان الحب فيما يرى جميل أن يهب المحب لمحبوبه دمه وماله ، وانظر كيف يقول

لحا الله من لا ينفع الود عندهُ * ومن حَبْلُهُ إن مُدَّ غير متينِ
ومن هو ذو لونين ليس بدائمٍ * على ثقةٍ خوان كلِّ أمينِ
فلو أرسلت يوماً بثينة تبتغي * يميني ولو عزت عليَّ يميني
لأعطيتها ماجاء يبغي رسولها * وقلت لها بعد اليمين سليني
سليني مالي يابثين فانما * يُبَيَّنُ عند المال كل ضنين
فمالك لما خبَّر الناس أنني * أسأت بظهر الغيب لم تسليني
فأُبلِيَ عذراً أو أجيء بشاهدٍ * من الناس عَدْلٍ أنهم ظلموني
فليت رجالا فيك قد نذروا دمي * وهمُّوا بقتلي يابثين لَقُوني
اذا ما رأوني طالعاً من ثنيةٍ * يقولون من هذا؟ وقد عرفوني!

الليالي الخوالي

وما أكثر حنين الشعراء الى الأيام السوالف ، والليالى الخوالى !!
ويذكرون أن المتوكل أحب أن ينادمه الحسين بن الضحاك ، ليرى مابقى من ظَرفه ، وشهوته لما كان عليه . فأحضره وقد كبِر وضعُف ،

* فى كتاب « الأخلاق عند الغزالي » بحث مفصل عن الحب من الوجهة الفلسفية ، فليرجع اليه القارىء إن شاء

فسقاه حتى سكر ، وقال لخادمه شفيع : اسقه ! فسقاه وحيّاه بوردة . وكانت على شفيع أثواب موردة . فمد الحسين يده الى درع شفيع . فقال المتوكل : اتجس غلامى بحضرتى ؟ فكيف لو خلوت به! ما أحوجك ياحسين الى أدب ! وكان المتوكل غمز شفيعاً على العبث به . فقال الحسين : ياسيدى ! أريد دواة وقرطاساً . فأمر له بهما فكتب :

وكالوردة البيضاء حيّا بأحمر * من الورد يسعى فى قراطق كالورد
له عبثات عند كل تحية * بكفيه يستدعى الخلى الى الوجد
تمنيت أن أسقى بكفيه شربة * تذكرنى ماقد نسيت من العهد
سقى الله عيشاً لم أبت فيه ليلة * من الدهر الامن حبيب على وعد

فطرب المتوكل لهذا الشعر ، وهم بتقديم الغلام إليه ، لو كان مما تسمح بمثله النفس ! !

وانظر مايقول ابن هانىء فى ذكرى أيامه السوالف

قمن فى مأتم على العشاق * ولبسن السواد فى الأحداق
وبكين الفراق بالعنم الرطـــب المقنّا وبالخدود الرقاق
ومنحن الفراق رقة شكوا * هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دمـــع طليق ومهجة فى وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى * آذنوا بالفراق قبل التلاقى
ودنوا للوداع حتى ترى الأجـــياد فوق الأجياد كالأطواق
يوم راهنت فى البكاء عيوناً * فتقدمت فى عنان السباق
أمنع القلب أن يذوب ومن يمنـــع جمر الغضى عن الاحراق

ربَّ يومٍ لنا رقيق حواشى اللهـــو حُسْناً جوَّال عقد النطاقِ
قد لبسناه وهو من نفحات الــمِسْكِ درع الجيوب درع التراقى

وما أوجع قول ابن الرومى فى البكاء على لياليه الخوالى

أأيام لهوى هل مواضيك عُوَّدُ * وهل لشبابٍ ضلَّ بالأمس مُنشِدُ
رُزِئْتُ شبابى عودةً بعد بدأةٍ * وهُنَّ الرزايا بادئاتٌ وعُوَّدُ
سُلِبتُ سواد العارضين وقبلهُ * بياضهما المحمود اذ أنا أمردُ
وبُدِّلتُ من ذاك البياض وحُسنه * بياضا ذميما لايزال يُسوِّد
لشتان مابين البياضين : معجبٌ * أنيق ومشنوءٌ الى العين أنكدُ
وكنت جلاءً للعيون من القذى * فقد جعلت تقذى بشيبى وترمَدُ
هى الأعين النُّجل التى كنت تشتكى * مواقعها فى القلب والرأس أسودُ
فمالك تأسى الآن لما رأيتها * وقد جعلت مرمى سواك تَعَمَّدُ
تَشكَّى اذا ما أقصدتك سهامها * وتأسى اذا نكَّبنَ عنك وتكمدُ
كذلك تلك النبل من وقعت بهِ * ومن صُرِفت عنه من القوم مُقصدُ
اذا عدلت عنا وجدنا عدولها * كموقعها فى القلب بل هو أجهد
وبيضاء يخبو دُرُّها من بياضها * ويذكو له ياقوتها والزبرجدُ
اذا ماالتقى السُّكران: سكر شبابها * وأكوابها، كادت من اللِّين تعقد
لهوت بها ليلا قصيراً طويلَهُ * ومالىَ الا كفها متوسَّدُ
وكم مثلها من ظبيةٍ قد تفيأَتْ * ظِلالى وأغصان الشبيبة مُيَّدُ

ليالي سنتريس *

وقد أكثر صاحب البدائع من الحنين الى سِنْتَرِيس ، وهى مَهْوَى قلبه ، ومُنْيَةُ روحه ، إذ كانت مَلْعب صباه ، وميدان لَهْوه ، فى أيامه السوالف ، ولياليه الخوالى !

وانظر كيف يقول :

ليالىَ النيل واللذات ذاهبةٌ * وجدى عليكنّ أشجانى فأضنانى
لو يرجع الدهر لى منكنّ واحدةً * فى سِنتريس وَيُدنى بعض خُلانى
إذاً تبيّن دهرى كيف يرحمنى * من ظلم همى ومن عدوان أحزانى
كم ليلةٍ لى بذاك النهر سالفةٍ * قضيتها بين غاداتٍ ووُلدانِ

***

وذى دلالٍ هو الدنيا وزينتها * يُردى الأُسودَ بطرفٍ منه نعسانِ
كأنما فعل عينيهِ بعاشقهِ * فعل المدامة فى أعطافِ نشوانِ
شربت من ريقهِ راحاً مشعشعةً * بخالص الوُدّ لم تُمزج بسُلوانِ
وكم حبيبٍ براح الريق أسكرنى * وكم جميلٍ بورد الخد حيّانى

***

يامُوقد النار فى قلبى مؤججةً * وقاطناً بين أنهار وريحانِ
عَرِّجْ علىّ فما نفسى بصابرةٍ * على نواك وما طرفى بوسنانِ

واليك قوله من كلمة ثانية

* فى مقدمة كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) وصف شائق لهذا البلد الطيب الجميل

إيهِ يافتنة الوجود سلامٌ * من مَشوقٍ متيّم القلب عانِ
لو يشاء الهوى حوتكِ ضلوعٌ * حانياتٌ على رِصباكِ حواني
فارحمى فانياً من الوجد يشقى * بغرامٍ مؤجّجٍ غير فانِ
رنّقتْ وردَهُ الليالى فأمسى * يرقب الصفوَ من خِلال الأمانى

* * *

آهِ لو يسمح الزمان ونلقى * من طوى قربهم عناد الزمانِ
وترى سِنتريس والدهر غافٍ * ماقضينا من الليالى الحِسان
حين كنا من السرور نشاوى * فى نجاةٍ من النوى وأمان
نتساقى الحديث عذْباً شهيًّا * وقطوف المنى رِطابٌ دوانى

* * *

ياخليلىّ والرفيق معينٌ * أسعفانى ببعض ما تملكانِ
أبتغى آسياً فقد عيلَ صبرى * من توالى الوَجيب والخفقان
أبتغى صاحباً تولَّهَ قبلى * وشجاهُ من الجوى ماشجانى
فلقد يُسعفُ الجريحَ أخاهُ * ويواسى الزميل فى الأحزان

* * *

وقد لحّن هذه القصيدة البلبل الغِرّيد الشيخ عبدالسميع عيسى الباجورى وما أروع شعر الوِجدان إذا غُنّىَ بمثل صوته العذب الجميل !!

صبا نجد

وما أشوق القلب إلى شميم صَبا نجد ! فقد حبّبه إلينا الشعراء حتى لنجد (صردُر) يرى المرور بنجد شركا من أشراك الهوى ، حين يقول

النّجاءَ النجاءَ من أرض نجدِ * قبل أن يعلق الفؤاد بوجدِ
ان ذاكـ الثرى لينبت شوقاً * فى حشا ميّت اللُّبانات صَلْدِ
كم خليٍّ غدا إليه وأمسى * وهو يهذى بعَلوةٍ أو بهندِ
وظباءٍ فيه تُلاقى المُوالى * والمعادى من الجمال بجُند
بشتيت من المباسم يغرى * وسَقامٍ من المحاجر يعدى[1]
وبنانٍ لولا اللطافة ظُنَّتْ * لجناياتها براثن أُسْدِ
وحديث إذا سمعناه لم ند * رِ بخمرٍ نضحننا أم بشهد
أَنِفَتْ من براقع الخزّ والقز * خدودٌ قد برقعوها بوردِ

ويقول الطغرائى

ياحبذا نجدٌ وأعراق الثرى * لُدْنٌ وأنفاس النسيم رقاقُ
فهواؤه خَصِرٌ النسيم وتُرْبهُ * حالى الأديم وماؤه رقراق
وبسا كنيه ان استقر بنا النوى * تشفى النفوس وتُمسَك الارماق

ويقول ابن الخياط

خذا من صبا نجدٍ أماناً لقلبهِ * فقد كاد ريّاها يطير بلبهِ

(١) المراد بالمبسم الشتيت الثغر المفلج

وإيا كما ذاك النسيم فانهُ * إذا هب كان الوجد أيسر خطبهِ
خليليّ لو أحببتما لعلمتما * مكان الهوى من مغرم القلب صبّهِ
تذكّر والذكرى تشوق وذو الهوى * يتوق ومن يعلق به الحب يصبهِ
غرامٌ على يأس الهوى ورجائهِ * وشوق على بعد المزار وقربهِ

وقال ابن التعاويذى

يارفيقيّ هل لذاهب أيّا * مٍ تقضّتْ حميدةً من مَرَدّ
أنجدانى بوقفة فى مغانى الـــحيّ إن جزتما بأعلام نجدِ
وابكياها بمقلتى واسألاها * من سقاها ماء المدامع بعدى
جنّبا عندها مصارع من ما * ت بداء الغرام فالشوق يعدى
فبأكنافها جاذرُ رملٍ * بين أثوابها براثن أُسْدِ

جناية العين والقلب

من الشعراء من يرى أن عينه سبب بلائه ، كقول خالد الكاتب

أعان طرفى على جسمى وأحشائى * بنظرةٍ وقفت جسمى على دائى
وكنت غِراً بما يجنى على بدنى * لاعلم لى أن بعضى بعض أدوائى

ومثله قول الأرجانى

تمتعتما يامقلتيّ بنظرةٍ * وأوردتما قلبى أشر المواردِ
أعينيّ كفّا عن فؤادى فانه * من البغى سعى اثنين فى قتل واحدِ

ويرى الشريف الرضى أن قلبه سبب شجاه ، ويقول

قلب كيف علقت فى أشراكهم * ولقد عهدتك تُفلت الأشراكا

أكثبتَ حتى أقصدتك سهامهم * قد كنت عن أمثالها أنهاكا
إن ذبت من كمد فقد جر الهوى * هـذا السقام علىَّ من جرّاكا
لاتشكون الىّ وجداً بعدها * هـذا الذى جرت علىّ يداكا
لأُعاقبنك بالغليل فانني * لولاك لم أذق الهوى لولاكا

ويأسى صرّدر على أن كانت أجفانه حجاب قلبه ، ويقول

لواحظنا تجنى ولا علم عندها * وأنفسنا مأخوذةٌ بالجرائرِ
ولم أر أغبى من نفوس عفائفٍ * تصدق أخبار العيون الفواجرِ
ومن كانت الأجفان حُجّاب قلبهِ * أذنَّ على أحشائه للفواقرِ

وقال ابن الأحنف يشكو ظلم قلبه وحبيبه

يهيم بجيران الجزيرة قلبهُ * وفيها غزال فاتر الطرف ساحره
يؤازره قلبي علىَّ وليس لى * يدان بمن قلبى علىّ يؤازره .

قضاء الله

ونختم هذا الكتاب بقول صاحب البدائع

قالوا عشقتَ فقلت كم من فتنةٍ * لم تغن فيها حكمة الحكماء
إن الذى خلق الملاحة لم يشأ * إلاّ شقائى فى الهوى وبلائى

ولله الأمر من قبلُ ومن بعد !

فهرس



بقلم

الدكتور زكى مبارك

من كان بطبعه ميّالا الى الحرية فى الفكر، والاستقلال فى الرأى، وكان مع ذلك محبًّا للانصاف، راغبا فى الاعتدال، فليقرأ هذا الكتاب: فانه يُنمّى فكرته، ويقوّى شخصيته، ويزيده بصراً بالنقد. وعلماً بالشعر، ويهديه السبيل إلى فهم الأدب، والحكم على الشعراء

وجديرٌ بمن نظر فيه أن يكمل علمه، ويكبر عقله، لما عُرف به الاستاذ زكى مبارك من سلامة الذوق، وأصالة الرأى، وما امتاز به من بُعد النظر، ودقة الملاحظة، مع ماله من رشاقة الاسلوب، ومتانة التركيب، إلى غير ذلك من الميزات التى تجعلنا نأمُل كثيراً أن يكون هذا الابن البار إماماً من أئمة الأدب، وعظيماً من عظماء الأمة

جعله الله قدوةً لشباننا العاملين، وأبنائنا الناهضين، والسلام

٢٥ فبراير سنة ١٩١٩ — مصطفى القاياتى



كتاب يمثل قوة الحق وروعة الجمال





مابال فريق من الناس ، يؤمنون بما خلقت له أيديهم وأرجلهم ، وعيونهم وآذانهم ، ثم يرتابون فيما خلقت له عقولهم ؟

فلا وربك لا يؤمنون حتى يعرفوا أن المؤمن عن نعمة العقل مسئول .

وما كنت لأعقّ العقل ، وقد حكّمه الله يوم هداني إلى الايمان . فمن كان يريد أن يرى غضبتي للحق ، وعبادتي للجمال ، فليقرأ هذا الكتاب .

ومن كان يريد أن يرى صورة مكرّرة لمن سلف من الكتاب والشعراء ، فليعلم أن الخمول أحب الى من أن أكون صدًى لأحد من القدماء ، أو المحدَثين . وما أهون التضحية فى سبيل الابداع إذا انحصرت فى الخمول !

زكي مبارك

الاخلاق عند الغزالى

قُدِّم هذا الكتاب إلى الجامعة المصرية ، ونوقش أمام الجمهور فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيِّد جدًّا » ولقب دكتور فى الآداب

يقع هذا الكتاب فى ٤٣٤ صفحة ، وبه كثير من الرسوم التاريخية التى تمثل طائفةً من المعالم القديمة ، وبه مقدمة بديعة بقلم الكاتب الفيلسوف الدكتور منصور فهمى . . وهذا الكتاب ضرورىٌّ جدًّا لمن يحب الوقوف على فلسفة الأخلاق ، وعلى العصر الذى عاش فيه الغزالى ، والمصادر التى استقى منها آراءه الفلسفية ، والفرق بين الخير والشر ، والكفر والايمان ، والشك واليقين ، والجبر والاختيار ، وما إلى ذلك من المباحث الهامة التى حار فى فهمها المتقدمون ، وخبط أكثرهم فيها خبط عشواء . وفى هذا الكتاب باب ممتع فى الموازنة بين الغزالى وبين الفلاسفة المحدثين ، حيث تناول المؤلف بالنقد والتحليل آراء ديكارت ، وبسكال ، وهوبس ، وبوتلير ، وكارليل ، وسبينوزا ، وجسّندى ، ومالبرانش . . وفيه كذلك صورة لآراء علماء العصر فى الغزالى : كالدكتور منصور فهمى ، والشيخ على عبد الرازق ، ومحمد بك جاد المولى ، وعبده بك خير الدين ، والشيخ عبد العزيز شاويش ، والكونت دى جالارزا ، والشيخ عبد الوهاب النجار ، والشيخ حسين والى ، والشيخ عبد الباقى سرور ، والشيخ يوسف الدجوي

وقد قامت حول هذا الكتاب ضجة عنيفة ، فمن الواجب أن يطلع عليه أهل العلم ليقفوا على كُنه مافيه من آثار حرية الفكر والرأى

